من ذخائر التراث الإسلامي

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

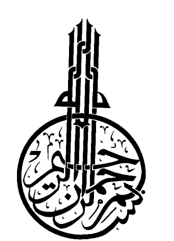
ⓒ دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

خفاجي ، محمد عبدالمنعم

من ذخائر التراث الإسلامي / د. محمد عبدالمنعم خفاجي
الرياض ، ١٤٢٦هـ
٢٩٧ ص ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٧-٩٣-٦٨٧-٩٩٦٠
١- البيلوجرافيات العامة ٢- التراث الاسلامي - ببيلوجرافيات
أ- العنوان :
ديوي : ١١ ، ١٤٢٦/٣٤٥٣

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٣٤٥٣
ردمك : ٧-٩٣-٦٨٧-٩٩٦٠



الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
موقع الانترنت : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية



موقـع

" لقـاء المؤمنـين "

على الشبكة الدولية الإنترنت

www.alnahwi.com

يهـدف هذا الموقع إلى المساهمـة مع المواقع الإسـلاميـة الأخرى وجهـود العـاملين إلى بناء الجيل المؤمن وبناء الأمة المسلمة الواحدة التي تكون فيها

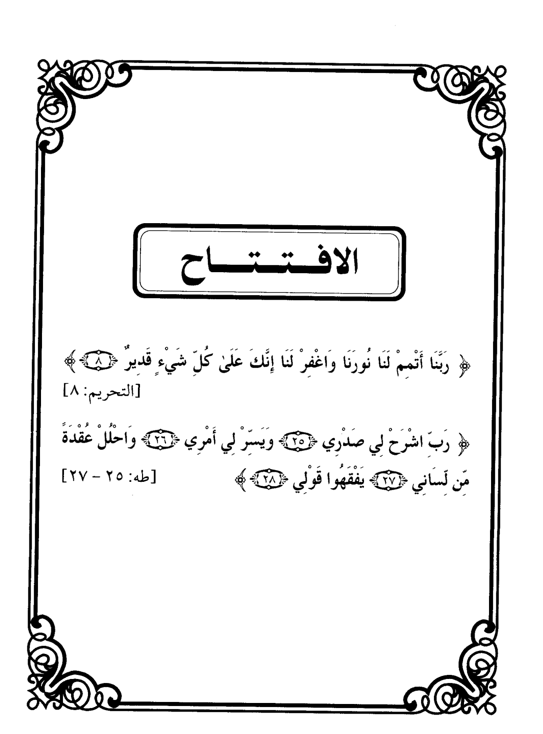
كلمـة الله هـي العليـا

نأمل التلطف بزيارة هـذا الموقع وإبداء مــلاحظاتكم ونصائحكم على البريد الإلكتروني :

info@alnahwi.com

كما يسرنا دعوة إخوانكم وأصدقائكم لزيارة الموقع .





الافـــتـــاح

﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾
[التحريم: ٨]

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه: ٢٥ - ٢٧]



إضَـــــاءَة

روّاد الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية من أسلافنا الخالدين ، تركوا لنا أعمالهم الشامخة ومؤلفاتهم الأوابد لتتحدث عنهم الأجيال ، ولتنقل أفكارهم إلى طلاب المعرفة ، عبر العصور ، ليفيد من علمهم وثقافتهم كل راغب وطموح إلى العلم والعرفان ، وإلى الهداية والإيمان .

وهذه في أغلبها دراسات لأمهات الكتب المأثورة على مدى الأجيال والتاريخ ، عرضتُ فيها آراءهم ومناحي تفكيرهم ، فيما سطره مؤلفوها فيها من بحوث وإبداعات ترشدنا إلى عظمة الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وهي في مجملها تضيء أمامنا الطريق ، وتذلل لنا الصعاب ، وترتفع بنا إلى مستوى العلماء وعلمهم الخالد النافع .

وليس من ريب أن ما سطره هؤلاء العلماء والمؤلفون والباحثون ، هو جزء من ثقافتنا الإسلامية ، التي تثَّقفتْ عليها أجيال المسلمين شيوخاً وشباباً ، رجالاً ونساء على امتداد الأيام والعصور .

وقد اخترت عدداً كبيراً من المؤلفات المشهورة لمؤلفين أجلاَّء ، درستُها ودرستُ ما أثاروه فيها من نظريات ، في كل جوانب المعرفة .

والثقافة الإسلامية في مجملها تخدم عقيدتنا ، وتشرح كل ما غمض من أحكام الشريعة ، وتوضح هويّتنا ، وتحدد شخصيتنا بين جميع الأمم والشعوب والأجناس ، وهي التي تتلمذ عليها العالم أجيالاً طوالاً ، وأفادوا من أفكارها وكشوفها فائدة جلّى .

والتراث الإسلامي هو دعامة حضارة المسلمين وهو الباني لصرحها الشامخ العظيم ، والذي أسهم في بناء الشخصية الإسلامية ، وفي تقدم العلوم وفي إسعاد المجتمعات والشعوب .

وحدِّث كما تشاء عن مراكز الحضارة الإسلامية ، في كل مكان ، وعلى

الخصوص في القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وبخارى و سمرقند وأصفهان وغيرها من الحواضر والعواصم ، وما قدمته للبشرية من جليل الأعمال والإبداعات ، وما أسهمت به في تقرير الفكر الإنساني وحماية حقوق الإنسان ، وإسعاد البشر أجمعين .

والتراث الإسلامي من كل العصور حتى عصرنا الحاضر ، بحرٌ لا ساحل له ، وهو مفخرة العالم ، ومعجزة القرون والأجيال ، وبه قامتْ حضارة الغرب ، وسارت مراكبهم نحو الكشوف الجليلة التي خدمت الإنسانية ، وهو الذي رفع مكانة الإنسان في الدنيا ، وحرَّر العقل من إساره وشقّ الطريق للعالم نحو الحرية والإخاء والسلام .

محمد عبد المنعم خفاجي

القاهرة

٥/١/١٤٢٦هـ

١٤/٢/٢٠٠٥م

التقـــديـــم

بقلم الدكتور عدنان علي رضا النحوي

في هذه اللحظات العصيبة من تاريخ أمتنا المسلمة ، حيث أخذت تتدفّق وسائل التغريب من حداثة وعلمانيّة لتلحّ بقطع صلتنا بتراثنا الخالد ، وحيث أصبح لعمليّة التغريب جنود منا يدعون بدعوتها ، ويدوّون بصراخها ، في هذه اللحظات تطلع إشراقة هذا العمل الكريم : " **من ذخائر التراث الإسلامي** " في سفْر جليل يكتبه هذا العالم العَلَم والأديب الكبير ، الباحث المحقّق ، **الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي** ، ليضاف هذا الكتاب إلى ذلك العطاء الغنيّ والإبداع النديّ من مؤلفاته وتحقيقاته ومقالاته ، في عطاء يقارب ستمائة كتاب بين تأليف وتحقيق كما ذَكَر لنا ، على مدى خمسة وسبعين عاماً في جهاده العلمي والأدبي في ميادين متعدّدة ، فأبدع في كل ميدان ، وأجاد في كل عطاء ، حتى اجتمع ذلك عطاءً ثرّاً ونهجاً وتميّزاً ومدرسة حقيقية .

ولد الأستاذ الدكتور **محمد عبد المنعم خفاجي** في " تلبانة " من قرى مركز المنصورة بمحافظة الدّقهليَّة في العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٣٣هـ الموافق ٢٢ يوليو (حزيران) ١٩١٥م . حصل على شهادة الليسانس من كلية اللغة العربيّة بجامعة الأزهر سنة ١٩٤٠م ، وعلى التمهيدية لشهادة الأستاذية سنة ١٩٤٤م، ثم نال الشهادة " العالمية " ، أستاذ دكتوراه في الأدب والنقد سنة ١٩٤٦م برسالته عن الشاعر الناقد الخليفة العباسي " ابن المعتز " .

وانطلق الدكتور خفاجي انطلاقة مباركة في ميادين العطاء : فمن مدرّس اللغة الفرنسية ، إلى مدرّس في كلية اللغة العربيّة في جامعة الأزهر ، ثم أصبح رئيساً لقسم الأدبَ والنقد في الكلية نفسها ، ثم عميداً لكلية اللغة العربيّة ، وعضواً في المجلس الأعلى للأزهر وفي مجلس جامعة الأزهر . وأصبح عضواً في لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ونائباً لرئيس رابطة الأدب الحديث ، ثمّ

رئيساً لها ، ثمّ أستاذاً مُتَفَرَّغاً بجامعة الأزهر ، وأستاذاً زائراً في كليّة الآداب في جامعة الخرطوم السودانية ، وعضواً في مجلس اتحاد الكتاب وخبيراً في مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة .

وقد أسهم في مشروعات فكريّة وأدبيّة وثقافية كثيرة : فقد اشترك في إعداد تفسير القرآن الكريم الذي نشره مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر ، وساهم في مهرجانات شعريّة وأدبيّة وفكريّة في عدد من البلاد العربيّة ، وساهم في مهرجانات في ذكرى أعلام التاريخ والفكر والأدب ، وشارك في كثير من المؤتمرات في أنحاء مختلفة من العالم .

وعلى أثر هذه الجهود المباركة ، فقد نال أوسمة وجوائز تقديرية : فقد نال وسام العلوم والفنون والآداب من الطبقة الأولى ، ونال الجائزة التقديرية للثقافة العربيّة ، الجائزة التي رشّحته لها رابطة الأدب الحديث . ورابطة الأدب الحديث هي أقدم رابطة أدبيّة وثقافية في العالم العربي ، وأشرف على رسائل كثيرة للماجستير والدكتوراه ، وربّى أجيالاً كثيرة ، وكتبه تدرّس في عدد من الجامعات العربيّة .

أما كتبه في التحقيق فكثيرة جداً نذكر منها : الإيضاح في البلاغة للقزويني ، المنتخب في الدين ، ديوان الشافعي ، سرّ الفصاحة للأمير ابن سنان الخفاجي ، البديع لابن المعتز ، قطر الندى في النحو ، فحولة الشعراء للأصمعي ، توضيح الباجوري في الفقه ، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، المغني لابن قدامة ، وكتب أخرى كثيرة .

وأما مؤلفاته فممتدّة في شتّى ميادين الفكر الإسلامي والأدب والنقد ، فمنها : الإسلام وحقوق الإنسان ، الإسلام دين الإنسانية الخالد ، موكب النبوّة ، بين الشيوعية والإسلام ، شرح عدة سور من كتاب الله الكريم ، الردّ على المشركين والملحدين والماديين وأعداء الإسلام في أربعة كتب ، الإسلام ونظريته الاقتصادية ،

وله كتب في التصوّف وفي فكره وأدبه ، وله سلسلة واسعة للتراجم والنصوص والأعلام ، وله موسوعة النقد والبلاغة ، وموسوعة الأعلام ، ومدارس النقد ، وموسوعة تاريخ الأدب العربي ، وكتب أدبيّة وعلمية . وله كتب تاريخية عن بني خفاجة ، وعن الأزهر في ألف عام ، وله كتب في الشعر عن بناء القصيدة ، وعن فن الشعر ، والعروض والقوافي ، وعن موسيقى الشعر وميزانه . وتبلغ دواوينه الشعرية سبعة عشر ديواناً ، وكتب أخرى كثيرة .

وقد قدّم لعدد من المؤلفات والدواوين لكتّاب وشعراء عديدين ، وخاض ميادين كثيرة أبدع فيها وأجاد ، حتى إن سيرة هذا العالم لتحتاج إلى كتاب كامل ليوفي حقّه ، ولكننا نعطي في هذه المقدّمة لمحة سريعة على قدر ما يقتضيه الحال .

في هذا الكتاب الجديد له : " **من ذخائر التراث الإسلامي** " يبيّن لنا المؤلف في " التراث والزمن التاريخي له " ، في أول الكتاب ، أهميّة التراث من أسلافنا الخالدين ، ومن روّاد الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في مراكزها العظيمة من حواضر العالم الإسلامي . ويقدّم تعريفاً للتراث وزمنه يختلف عن التعريف المتداول ، فيمتدُّ التراث عنده ليشمل آثار الأعلام القريبين من أمثال البارودي وشوقي وحافظ والعقاد وغيرهم . ويبين في هذه الإضاءة أهمية هذا التراث الممتد الخالد في أنه حَمَل أعظم رسالة وأرفع حضارة وأمجد ثقافة في تاريخ البشرية كلها ! إنّه تراث الأمة المسلمة كلها ، الأمة المسلمة التي امتزجت شعوبها في هذا الدين العَظيم والدين القيّم الذي نفى عنها العصبيات الجاهلية ، وآخى بينها في لُحْمة قويّة من الإيمان والتوحيد ، وعروة وثيقة من أخوّة الإيمان ، وحبلٍ متين من اليقين والإسلام .

ويستشهد على أهمية التراث ، ليس بما نراه نحن المسلمين فحسب ، ولكن بأقوال رجال من الغرب عرفوا خطورة التراث وأهميته ، من مثل أقوال " جوته " و " لانسون " و " إليوت " ! وإن كان هناك فرق كبير بين تراث وتراث . وينعى على الحداثيين نزعتهم إلى قطع الصلة بالماضي . ولكننا نؤكد في هذه المناسبة أن

جهود هؤلاء مهما اشتدت وغُذِّيَتْ فإنها سائرة إلى الزوال بمشيئة الله ، لأن تراث الأمة المسلمة نابع ومرتبط بالقرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه .

ولشدّة حرص المؤلف على التراث يختم كلمته هذه بإحدى عشرة وصيّة لحماية التراث والعناية به . وهي وصايا جليلة تستحق التقدير والتنفيذ .

ثمّ يأتي الكتاب في أربعة أبواب كبيرة بعد الإضاءة . وكل باب يشمل عدة فصول مرتبطة بموضوع الكتاب :

- الباب الأول : عن القرآن الكريم .

- الباب الثاني : عن محمد ﷺ والصحابة رضي الله عنهم .

- الباب الثالث : عن الدين .

- الباب الرابع : صوت التاريخ .

وهذه الأبواب وموضوعاتها متسلسلة مترابطة فيما بينها ترسم حقيقة معنى التراث ومنبعه ومسيرته ، وتعطي الصورة المشرقة لمعنى الكتاب ونهجه وغايته ، ابتداءً من الباب الأول : " عن القرآن الكريم " حتى الباب الرابع " صوت التاريخ " حتى كأن التراث مسيرة أمّة وحياة رسالة .

ونلاحظ كذلك أن محور الكتاب كلّه هو الإسلام ، الدين الخالد ، دين العرب وجميع الشعوب التي دخلت الإسلام ، حتى أصبح لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى ، في أعلى صورة لمعاني الإنسانيّة الصادقة وأصدقها ، وإنّك لن تجد الإنسانيّة الصادقة خارج الإسلام ، إلا شعارات وضجيجاً .

وأسلوب الكتاب واضح جليّ ، فلكل موضوع يطرقه يأخذ الدكتور خفاجي كتاباً من كتب التراث القديم أو الحديث ، فيناقشه ويكشف إبداعه وارتباطه بالتراث الإسلامي . ويجيء الاختيار متنوّعاً موفّقاً مترابطاً ، يظل مع كل كتاب ، يبرز أهميّة التراث وخطورته وعظمة الإسلام ، وحاجة البشريّة إليه . وأحياناً

أخرى يتناول عَلَماً من أعلام التراث ، فيتحدَّث عنه ويبرز دوره في الدعوة الإسلامية ويعرض مؤلفاته ويستعرض مَنْ كتب عنه .

ففي الباب الأول : " عن القرآن الكريم " يتحدث عن كتاب " الفلسفة القرآنية " للعقاد ، ثم عن كتاب " أساليب الخطاب القرآني " لصادق عبد الرحيم ، ثم كتاب " التصوير القرآني في كتاب الله " للدكتور علي علي صبح ، وعن " إعجاز القرآن في الدراسات الأدبية والنقدية " ، وعن " الإعجاز البلاغي في القرآن " ، وعن " دلائل الإعجاز " للإمام عبد القاهر الجرجاني ، وثمَّ بما كُتِبَ عن " ترتيب السور " ، وعن " الإشارات القرآنية إلى الطبائع البشرية " ، وفواتح سور القرآن الكريم .

مع كلّ موضوع يختار كتاباً من كتب التراث ، ثم يستقصي ما كُتِب في هذا الموضوع لمؤلفين آخرين . وفي هذا الباب فصل هام بعنوان : " الجهل بالتراث " ، يكشف فيه المؤلف خطورة جهل تلامذة الغرب من أبنائنا من أنصاف المتعلمين بتراث أمّتهم ، وإن كانوا يتصدرون موكب العلم والثقافة في ميادين مختلفة ليعرضوا بضاعة الغرب .

ويمضي الباب الثاني عن الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ، على نسق الباب الأول ، حيث يختار كتاباً من كتب التراث يدور حول الموضوع المطروح ، فيناقشه ويبدي فضله وأثره ، ويستقصي كذلك كل ما كُتِب عن الموضوع نفسه في جهد كريم وتتّبع دقيق . فيختار كتباً من التراث تدور حولَ : الرسول ﷺ الذي تفتخر به الإنسانية على امتداد العصور ، ثم عن الرسالة النبوية إلى مصر ، ثم عن أعلام الصحابة ، وعن قصص الأنبياء ، وعن " الإسراء والمعراج " ، وعن ابن الخطاب رضي الله عنه والشعر ، وعن الصحابية الجليلة " أم عمارة " ، وغير ذلك .

وفي الباب الثالث : " عن الدين " ، يختار أحد عشر موضوعاً ، ولكل موضوع كتاب من كتب التراث . فمن الموضوعات : " الإسلام والإنسان المعاصر

" لفتحي رضوان ، و " هذا الدين " للدكتور عبد الله دراز ، و " الإسلام دعوة عالمية " للعقاد ، وفضائل شهر رمضان ، وموضوعات وكتب أخرى ، كلها تمثّل قضايا هذا الدين العظيم وممارسته في الواقع . ويمضي الأسلوب نفسه في تقصٍّ ما كُتبَ عن كل موضوع لمؤلفين آخرين ، مما يكشف سعة اطلاع الدكتور خفاجي ، وشدّة متابعته ، وعمق علمه وثقافته ، وبصورة تثير الإعجاب الحقَّ والتقدير الصادق . فعن فضائل شهر رمضان المبارك مثلاً يتحدّث عن كتاب مخطوط للعالم " نافع الجوهري بن سلمان " حول هذا الموضوع ، ويبيّن أنه الكتاب الوحيد في العالم . ويتحدّث عن كتاب " لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي " . ومع كل موضوع وكتاب تقصٍّ وعمق .

ويأتي الباب الرابع : " صوت التاريخ " على نفس النسق السابق في الأبواب الثلاثة الماضية ، إلا أنه يبدو كأنه النتيجة الحتميّة لها ، يبدو صوتاً قوياً ينطلق من قلب الواقع يأخذ أحداثاً وموضوعات ورجالاً تكشف عبقرية الإسلام في ممارسته ، وعبقرية رجاله . إنها نماذج منتقاة بحسٍّ قوي ونظرة ثاقبة . فمن كتاب " الأخبار الطوال " للدينوري ، إلى الإمام المجاهد في سبيل الله في ميادين شتى الإمام ابن تيمية ، إلى الإمام ابن قيم الجوزية ، إلى العبقرية الفذّة ابن خلدون في موضوع العمران البشري وموضوع التاريخ للحضارة الإسلامية ، إلى صفحة مضيئة من تاريخ الإسلام في الرحلة إلى الحرمين .

ويأتي في ختام الكتاب قائمة مؤلفات الدكتور خفاجي وتحقيقاته ، على قدر ما توافر لدينا . وهو يقول في إحدى رسائله إن بعض الكتب غابت في المطابع أو دور النشر .

هذا الكتاب سفرٌ كريم يدفعه الأستاذ الدكتور الخفاجي في وقته ومناسبته وحاجتنا إليه ، ليحمَل زاداً ثَرّاً غنيّاً نديّاً من علم وثقافة ، ومواقف وأحداث ، كلُّها تعين لتوقظ ، وتشدَّ العزائم لتنهض ، والأمّة لتُفيق !

والكتاب سهلٌ في أُسلوبه ، متينٌ في لغته ، مترابطٌ في موضوعاته ، عميقٌ في دراسته ، يتميّز بالشمول والتقصّي ، والدقّة والعدالة ، وأمانة البحث واستقامته . ولا عجب في ذلك فهو يخرج من رجل عَلَم هو أهل لهذه الصفات وأكثر منها .

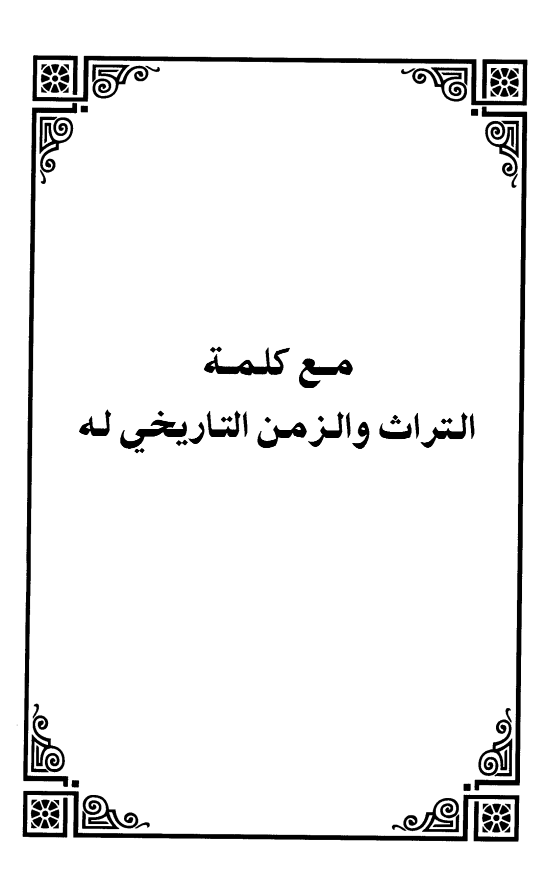
وأنا أُطالع الكتاب قبل إجازته وطبعه ونشره ، أشعر بالمتعة الكبيرة ، والفائدة الغنيّة ، و أشعر بالرغبة تلحّ عليّ بأن أعيد قراءته ثانية وثالثة لما فيه من خير ومتعة .

وقد عَهد إليّ الدكتور الخفاجي بكتابة مقدّمة هذا الكتاب القيم ، فإني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يبارك في الكتاب ومقدمته ، عملاً مباركاً خالصاً لوجهه الكريم ، غنيّاً بعونه ، نديّاً برحمته ، يتقبّله عنده قبولاً حسناً ، إنه هو السميع المجيب . وعسى أن أكون أوفيت القصد إن شاء الله أو قاربت .

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

٢/٤/١٤٢٦هـ

١٠/٥/٢٠٠٥م



مع كلمة
التراث والزمن التاريخي له

الـتـراث
والـزمـن الـتـاريخـي لــه

(١)

التراث في أحدث تعريف له هو موروثات الفكر البشري إلى ثلاثين عاماً مضت منذ اليوم . فتراث الجاحظ ، وتراث العقاد ، وتراث التوحيدي والزيات ومصطفى صادق الرافعي كله سواء في أنه غذاء العقل ومفجِّر الروح ، وباني النهضة والتقدم ، ورافع رايات الحق والمساواة والإخاء .

وكان الكثير من الباحثين يحددون التراث بأنه ما تركه الأسلاف قبل بداية القرن التاسع عشر الميلادي ـ الثالث عشر الهجري ، من ذخائر الفكر البشري وكنوزه وإبداعاته في كل مجال من مجالات المعرفة والعلم والثقافة وهذا ـ ولا ريب ـ ظلم لآثار الأعلام القريبين من أيامنا ، من مثل شوقي وحافظ في الشعر ، ومن مثل د . محمد حسين هيكل والرافعي والبِشْري والمازني في النثر .

فالتراث الإسلامي هو كل ما خلَّفتهُ لنا الأجيال السابقة على جيلنا المعاصر من كنوز ثقافية ، تتمثل في غالب الأمر في الكتب المؤلفة ، المخطوطة والمطبوعة على السواء .

وسواء أكان هذا التراث المكتوب بالعربية تراثاً علميا أم إنسانيا لغوياً أو أدبياً أو دينيا أو تاريخيا فإنه وديعة الأجيال لدينا ، والكنز الثمين الذي يملأ حياتنا ثراء ومجداً وعزة إيمانيّة مذكورة ، إنه الصورة الكبيرة الواضحة للأمة المسلمة في مختلف عصورَها وأجيالها ، وشتى ألوان فكرها وحياتها . وهو الضوء الباهر الذي كان العالم كله في فترة من فترات التاريخ يرنو إليه ويحيا عليه ، ويخشع لديه ، ويعشو إلى نوره ، ويسير في ضيائه .

هذا التراث الخالد الذي فصلت فيه أعظم رسالة وأرفع حضارة ، وأمجد ثقافة ، والذي كُتِب فيه تاريخنا وآثار مفكرينا وعلمائنا وأدبائنا على مر العصور ،

وهو تراث كبير كبير ، لأنه تراث الشعوب العربية خاصة ، والشعوب الإسلامية الناطقة بالعربية عامة . تراث أجيال طويلة وأعلام خالدين في الفكر الإسلامي ، بل الإنسانية عامة .

وبحسبنا أنه تراث عصور تمتد أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهو تراث لا يطاوله تراث أمة أخرى من أمم العالم ، وبه تعلو منزلتنا في الحضارة الإنسانية ، وفي الفكر العالمي ، بل ومنه تستمد الأمة أصول بقائها وحضارتها ومجدها التليد .

يتمثل لنا هذا التراث الإسلامي في مئات الألوف من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وفي مختلف فروع الفكر الإنساني والثقافة العالمية . وتحفل خزائن الكتب في جميع أنحاء العالم عامة ، وفي تركيا على وجه الخصوص ، بالكثير من المخطوطات التي طبع منها القليل ، وحقق من هذا القليل الأقل من نوادره وذخائره ، ولا يزال باقيه مخطوطاً حتى اليوم في دور الكتب الغربية والعربية ، وفي تركيا ومصر على وجه الخصوص . وهذه المخطوطات على صعوبة الاطلاع عليها أو تصويرها ، لا يتعامل معها إلا الباحثون والمحققون والدارسون في مختلف الجامعات .

(٢)

إن اهتمامنا بهذا التراث واجب قومي وطني ، بل وواجب إسلامي كذلك ، فهو الهوية الشخصية لأمتنا الإسلامية .

يقول جوته شاعر ألمانيا الكبير : " في كل فن توجد صلة نسب ، فإنك إذا رأيت فناناً كبيراً فلابدّ أنه قد وعى أحسن ما عند أسلافه ، وأن هذا هو الذي جعله عظيماً ، الرجال لا ينبعون من الأرض ، بل إنما يأخذون إبداعهم من القديم " .

ويقول لانسون : " إن إبداع أمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد رواسب من الأجيال السابقة ، وبؤرة للتيارات المعاصرة " .

ويقول إليوت : " إذا أردت أن تجدد في الحاضر فيجب أن تكون جذورك عميقة في الماضي " .

أما الحداثيون ومن يشايعهم من دعاة قطع صلتنا بالتراث ، فهم معاول هدم لشخصية الأمة الإسلامية ، ولكيانها وفكرها ومجدها الكبير ، وليس أضر على جيلنا والأجيال القادمة من بعدنا ، ولا أدعى لضعف شخصياتهم وثقافاتهم من مثل هذه الدعوة المنكرة التي تصرفهم عن التراث ، وتدعوهم إلى التنكر له ، والاستغناء عنه بثقافات بديلة أجنبية لا صلة لها بفكرنا وثقافتنا الإنسانية . لنأخذ في الجوانب العلمية ما نشاء من ثقافات العالم ، أما في مجال الدراسات والثقافات الإنسانية ، فإن في تراثنا وفي عناقه للمعاصرة وإبداعاتها ما يحمي كياننا من الانهيار .

وعظمة جيلنا من الشيوخ والأجيال السابقة عليه إنما يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى تزودهم بالتراث ، وارتوائهم من معينه ، سواء التراث الإسلامي أم اللغوي أم الأدبي بشتى فروعه المختلفة ، والثقافة المعاصرة للأجيال الجديدة لا بد أن تنهل من معينين متآخيين ، من أصالة التراث ، ومن جديد المعاصرة التي نعيشها .

ومن أهم ما يجب علينا العناية به تراث الراحلين من أعلامنا في شتى فروع المعرفة ، فإذا كان القدماء لم يألوا جهداً في الكتابة عن معاصريهم والترجمة لهم في كتب سموها كتب الطبقات أو في كتب التراجم أو في كتب قصروها على عَلَم من الأعلام ، فإن جيلنا مقصر كل التقصير في حق الراحلين من الأعلام والروّاد وما أكثر ما نحار في الوقوف على تراث عَلَم رحل عنا أو على ترجمة وافية له ، أو قائمة بأهم أعماله ودراساته .

وفي فترة من فترات تاريخنا الثقافي ، وبخاصة بعد سقوط بغداد ، وتدمير شتى المراكز الثقافية في عاصمة الخلافة العباسية وحرق الكتب والمكتبات ، وإلقاء المخطوطات في مياه دجلة ، أقبل العلماء على تهذيب الكتب التراثية الكبيرة أو اختصارها ، كما أقبلوا على كتابة الموسوعات الكبيرة في كل فروع الثقافة وبخاصة في اللغة والأدب .

(٣)

إن التراث في عناق دائم ومستمر وطويل مع المعاصرة . ولحقٌ الأجيال القادمة علينا أن نترك لهم التراث الإسلامي مضيئاً ، وموردًا عذباً يرتوون منه ، سواء بالعناية به والمحافظة عليه وتسجيل روائعه ونوادره وذخائره بالطرق العلمية الحديثة ، أم بجمع ما تفرق منه في أنحاء العالم ولو بتصويره وإيداع صور منه في مكتباتنا ، أم بنشره وتحقيق فرائده تحقيقاً علمياً متميّزاً أو طبعه طباعة جيدة ليقبل الشباب على قراءته ، أم بكتابة دراسات حديثة عنه ونشرها في شتى وسائل النشر والإعلام . أم بإبداع قصص وحلقات إذاعية مُستَمدَّة من عيون التراث وفرائده .

وفي هذا المجال لا بدَّ لنا من إنشاء أكاديمية علمية للتراث وإحيائه ونشره وتحقيقه خاصة ، ولنطلق عليها دار الحكمة تخليداً لدار الحكمة التي أنشأها الحاكم الفاطمي في القاهرة عام ٤٠٨هـ الموافق ١٠١٨م ، ولدار الحكمة التي أنشأها المأمون في بغداد ، ولدار الحكمة التي قامت في القيروان في عهد الأغالبة في أواخر القرن الثالث الهجري .

وتحقيق التراث بشرحه وفق المنهج الإسلامي القديم أو بتوثيق نصوصه والترجمة لأعلامه وفق المنهج الاستشراقي الحديث ، أو بهما معاً ـ وفق منهج تكاملي مستحدث ، ـ إنما بدأه المسلمون أولاً ، وتابعهم فيه المستشرقون .

فهذا الحافظ البوسيني الدمشقي كانت عنده نسخة من صحيح البخاري ، فأحب تحقيقها ، فقارنها مع أصل مسموع لصحيح البخاري للحافظ الأُصيلي ، وأصلٍ ثالث له للحافظ ابن عساكر .

عمل أبو الحسن علي بن عبد الرحمن التنوخي مثل ذلك في تحقيق سنن أبي داوود ، بل إن المستشرقين في بادئ الأمر أقبلوا على نشر التراث الإسلامي دون تحقيق ولا توثيق ، فنشروا عام ١٥٩٣م كتاب النجاة لابن سينا دون تحقيق ، ونشر

المستشرق (لابل) عام ١٨٠٨م " شرح المفضليات " لابن الأنباري دون مراجعة ، ونشر (فرتاغ) عام ١٨١٩م " المنتخب في تاريخ حلب " لابن العديم دون ما تحقيق ، ثم تفرعت بهم المناهج في التحقيق للتراث دون التزام لمنهج بعينه .

وللأسف نرى تراث مصر التاريخي لا يزال أغلبه مخطوطاً وموزعاً في الكتب المصرية ، وفي مكتبة الأزهر وبعض مكتبات الأقاليم وفي مكتبات السعودية ومختلف الدول العربية .

ومن الجدير بالاهتمام العناية بهذا التراث وتحقيقه ونشره ، لنضيء التاريخ المصري في شتى عصوره إضاءة كاملة ، منذ عصر حكم الولاة العباسيين لمصر بدءاً من عام ١٣٢هـ الموافق لعام ٧٥٠م حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري عام ١٢٩٩هـ الموافق ١٨٨٢م وهو عام قيام الثورة العرابية في مصر .

وأخيراً نقدِّم هذه التوصيات في آخر هذه الكلمة :

١ - إنشاء أكاديمية تعنىٰ بأمور التراث عامة من إحياء ونشر وتحقيق ودراسة .

٢ - ضرورة العناية بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة وتوسيع مجالات نشاطه التراثي .

٣ - تخريج طبقات من المحققين لذخائر التراث .

٤ - المحافظة على مخطوطاتنا التراثية وإبعاد أيدي الجهلة والسرقة عنها ، واستخدام الوسائل التعليمية الحديثة في حفظ المخطوطات المودعة في مكتباتنا القومية .

٥ - إصدار مجلة تراثية علمية .

٦ - تشجيع نشر التراث عن طريق الهيئات الرسمية ، ودور النشر الخاصة .

٧ - المساواة بين تحقيق المخطوطات والبحوث العلمية في الترقيات الجامعية .

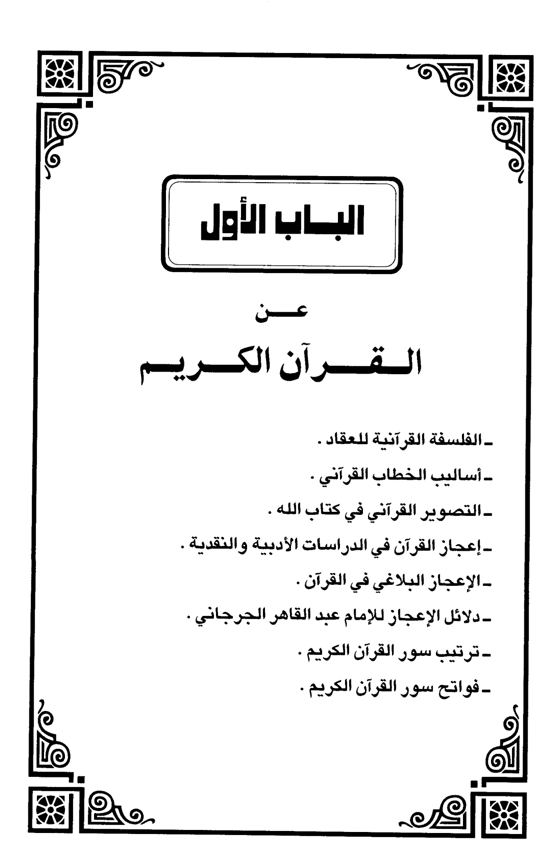
٨ - تشجيع العاملين في مجال التراث أدبياً ومادياً .

٩ - الاهتمام بالأعمال التراثية في كل وسائل الإعلام المتشعبة .

١٠- عمل مسابقات بين طلاب الجامعات حول التراث وكتبه الكثيرة ، وعمل دراسات حولها .

١١- العناية بتحقيق المشهور والأهم من كتب التراث ، وبخاصة التراث التاريخي والعلمي والبلاغي .

إلى غير ذلك من واجبنا نحو تراثنا الإسلامي الكبير .



الباب الأول

عن

القرآن الكريم

- الفلسفة القرآنية للعقاد .
- أساليب الخطاب القرآني .
- التصوير القرآني في كتاب الله .
- إعجاز القرآن في الدراسات الأدبية والنقدية .
- الإعجاز البلاغي في القرآن .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني .
- ترتيب سور القرآن الكريم .
- فواتح سور القرآن الكريم .

الفلسفة القرآنية
للمؤلف عباس محمود العقاد
١٨٨٩م - ١٩٦٤م

(١)

عباس محمود العقاد من أشهر الأدباء والنقاد والشعراء والكتاب الإسلاميين في العصر الحديث ، ومؤلفاته وكتاباته الإسلامية من أكثر صور الأدب ذيوعاً وشهرة وإقبالاً من الجماهير عليها ، الخاصة والعامة ، وإن كان أسلوبه يعجز الكثير عن فهمه بسهولة ويسر .

وكتابه (**الفلسفة القرآنية**) من أشهر مؤلفاته وأجلّها قدراً عند المثقفين الإسلاميين ، ومن العجب أن لا تعيد هيئة الكتاب طبعه مرة ومرة في إحدى سلسلاتها الكثيرة .

والحديث عن العقاد وعن تنوع ثقافاته ، وتعدد مواهبه ، ورحابة عبقريته ، وغزارة إنتاجه ، يبهر العقل والشعور ، ويأخذ باللب ، فهو طاقات إنسانية تفيض جداولها الثرة بزاخر من القيم الفكرية ، لا تبلى جدتها ، ولا تحول نضرتها ، مهما يتطاول الزمن ، إلا أن تصفه بأنه دائرة معارف كاملة هذا من ناحية قراءاته واطلاعه ، أما العقاد المفكر الفيلسوف ، فأيسر ما يوصف به أنه قد تكاملت له عوامل التواثب والتفوق والتجديد .

ومع أنه درس مذاهب الفلاسفة ووعى نظرياتهم ، فقد اجتهد بحيث لم يسيطر عليه مذهب أو نظرية . وحاول في نجاح كبير أن ينفرد بفلسفته الخاصة به والدالة عليه ، ومبتعداً عن الهياكل التي حصر الفلاسفة انطباعاتهم الفكرية داخل نطاقها . والمستقرئ لفلسفة العقاد يجد العقيدة الدينية منبثة في كل جزئياتها .

فلسفة العقاد التي ارتكزت عليها كبرى قيمه تلك هي الفلسفة الدينية ، ومن أجلها جمع العقاد إلى صفاته الحقة صفة المفكر الفيلسوف .

إنها فلسفة الإيمان بأن صفات الله لا ينبغي أن نشبهها بما نألف من الصفات ، وتلك هي فلسفة القرآن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]

وقد أشار العقاد إلى هذا المضمون في كتابه (الفلسفة القرآنية) . وكما يقول : " كل ما نعلمه أن الله جل جلاله كمال مطلق وأن العقل المحدود لا يستطيع أن يحيط بالكمال المطلق الذي ليست له حدود ، وليس لهذا العقل المحدود أن يقول عن الكمال المطلق : كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد " (١) .

(٢)

وكتاب فلسفة القرآن كنت أحب أن يكون اسمه (الرسالة القرآنية) أو (البلاغ القرآني إلى الإنسانية) مثلاً .

ويشرح العقاد في مقدمة هذا الكتاب غرضه من هذه التسمية فيقول : " إنه أقرب الأسماء إلى بيان غرضه ، وكان اسم فلسفة القرآن من الأسماء التي اقترحت في سياق ذلك ، فخطر لي أن هذا الاسم قد يوحي إلى الذهن أننا نتخذ القرآن موضوعاً لدراسة فلسفية كدراسة فلسفة النحو أو البيان أو التاريخ ، وليس هذا المقصود ، وإنما المقصود أن القرآن الكريم يشتمل على مباحث فلسفية في جملة المسائل التي عالجها الفلاسفة من قديم الزمن ، وأن هذه الفلسفة القرآنية تغني الجماعة الإسلامية في باب الاعتقاد ، ولا يصدها عن سبيل المعرفة والتقدم ، وهي لذلك تحقق ضرورة الاعتقاد ، وتمنع الضرر الذي يُبتلى به من تصدهم عقائدهم عن حرية الفكر وحرية الضمير ، وليس للعلماء ولا الفلاسفة أن يطلبوا من الدين غير هذا . فمهما يكن من رأيهم في الإيمان بالله فهم لا يجهلون ولا يستطيعون أن يجهلوا أن الإيمان ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والأنبياء " .

ثم يسترسل العقاد فيقول في نهاية هذا الكتاب : " في هذا العصر الذي

تتصارع فيه معاني الحياة بين الإيمان والتعطيل ، وبين الروح والمادة ، وبين الأمل والقنوط ، تلوذ الجماعات الإسلامية بعقيدتها المثلى ، ولا تخطئ الملاذ ، لأنها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين من خير ، ولا تحرمها شيئاً من خيرات العلم والحضارة . وهذا الذي نرجو أن نبينه في هذا الكتاب " .

وفي خاتمة الكتاب يقول العقاد : " ومتى استوفى العقل والضمير حظهما من سعة القرآن على هذا النهج القويم فلا حاجة إلى موافقة النظريات المستحدثة ، كلما ظهر منها جديد . وعلى هذا النهج نقرر أن الفلسفة القرآنية خير ما تتكفل به الأديان القائمة من عقيدة تعمر الضمير ، وتطلق للعقل عنانه في سبيل الخير والمعرفة وسعادة الأرواح والأبدان . بحسب أننا وفَّينا القصد من تقنع من يقرأ هذه الصفحات بالحقيقة التي أردناها ، وهي : أن جماعة المسلمين لا يستغنون عن عقيدة ، وأنهم لا يصطفون لأنفسهم عقيدة ميسرة سمحة خيراً لهم مما اعتقدوه " .

(٣)

في مقدمة الكتاب يؤكد العقاد أن الدين لازمة من لوازم الحياة البشرية . كما يؤكد أن حب العقيدة الصالحة ضروريٌّ لأنّ من صلاحها أنها تنهض بالعقل والقريحة ، ولا تصدهما عن سبيل العلم والصناعة ، ولا تحول بين معتقديها وبين التقدم في الحضارة وأطوار الاجتماع .

والكتاب يشتمل على ستة فصول :

في الفصل الأول ـ عن القرآن والعلم ـ يؤكد أن القرآن كتاب عقيدة يخاطب الضمير . وخير ما يطلب من كتاب العقيدة في مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكماً من الأحكام يَشلُّ حركة العقل في تفكيره . كما ينفي العقاد أن الأسباب ليست هي موجدات الحوادث ـ المسببات ـ ولا هي مقدمة عليها بقوة تخصها دون سائر الموجودات ، ولكنها مقارنات تصاحبها ، ولا تغني تقدير

المصدر الأول لجميع الأسباب وجميع الكائنات . وهذا هو حكم القرآن الكريم .
فالخلق كله مرجعه إلى إرادة الله ، أو إلى كلمة الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٦٨]

وكل شيء في السماء والأرض بإذن الله . فلا علاقة بين الأسباب والخلق .

وتحدث العقاد في هذا الفصل عن الأخلاق في القرآن ، وينتهي حديثه إلى أن مصدر الأخلاق الجميلة هي (عزم الأمور) كما سماه القرآن الكريم ، وهو مصدر كل خلق جميل حث عليه شريعة القرآن .

فمصدر الجمال في الأخلاق هو أن يشعر الإنسان بالتبعة ، وأن يدين نفسه بها ، لأنه يأبى أن يشين نفسه ، ويعتبر الشَّينْ غاية ما يخشاه من عقاب ، وليس للتفاوت في جمال الخُلُق مقياس أصدق من هذا المقياس ، ولا أعم منه في جميع المجالات ، وفي جميع المقابلات بين الخصال المحمودة .

ثم يسترسل العقاد فيقول : " القرآن الكريم يقرر (التبعة) الفردية ، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق " .

وفي رأيي أن الآية الكريمة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

هي شرح ذلك ، والأمانة أفضل من اسم التبعة على كل حال .

وفي هذا الفصل كذلك يتحدث العقاد عن المسؤولية الفردية التي يتحملها الإنسان أمام الله ، كما يقررها القرآن الكريم :

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النجم: ٣٨]

وفي الفصل الثاني يتحدث العقاد عن الحكومة في القرآن الكريم حيث يؤكد العقاد أنها هي الحكومة لمصلحة المحكومين لا لمصلحة الحاكمين ، يطاع الحاكم ما أطاع الله .

ثم يتحدث عن الطبقات والمساواة مؤكداً أنه بإقرار التفاوت أقر القرآن الكريم أصلح النظم التي تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة . ويتحدث عن التجربة الروسية الفاشلة في هدم ما زعموه من إلغاء نظام الطبقات ، ويقول : " وكان هذا ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية التي كلفتها نيفاً وعشرين مليوناً من النفوس " .

وفي الفصل الثالث يتحدث العقاد عن المرأة في القرآن الكريم ، مؤكداً الفوارق بين الرجل والمرأة ، مما يقتضي باختلاف الحقوق والواجبات بينهما . ثم يسترسل إلى القول بأنه على الرغم من التفرقة بين الجنسين ، فإن هذه التفرقة لا تتعدى تكاليف المعيشة وعلاقات المجتمع ، إلى تكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق ومطالب الروح .

ويعرض العقاد في هذا الفصل للزواج وللميراث وموافقة مصالح لكل ما قرّره القرآن الكريم في هذا المجال . وهذا مما يجعلنا ننفي كل زيف صنعته الحضارة الأوروبية في هذا المجال .

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الأسر أو الرق . وتشريعات القرآن في هذا المجال ، من حيث معاملة الأسرى وحفظ كرامتهم الإنسانية والدعوة إلى تحريرهم ، وهي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية . وأمامنا صور معاملة أمريكا للأسرى من رجال المقاومة للاحتلال الأمريكي ، ومعاملة إسرائيل للأسرى من رجال المقاومة للاحتلال الإسرائيلي ، وهي صورة مزعجة للضمير الإنساني ولكل المبادئ الشريفة التي تدعم العمل على المحافظة على كرامة الإنسان .

وفي هذا الفصل يعرض العقاد للعلاقات الدولية وللعقوبات في القرآن ، مؤكداً مبدأ القرآن في السلام والتعاون بين الأمم والشعوب ، ومبدأ رعاية الحرية الشخصية في فرض العقوبات ، مؤكداً عظمة تشريعات القرآن في هذا المجال .

وفي الفصل الخامس يتحدث العقاد عن الإلهية ، مؤكداً أن القرآن فيما

يفرضه من العقيدة قد فرض أكمل عقيدة في العقل ، وهي أكمل عقيدة في الدين ، خالق واحد هو الأوّل وهو الآخر ، قدير على كل شيء ، عليم بكل شيء ، محيط بكل شيء ، وليس كمثله شيء ، وهكذا يؤمن المسلم بوجود الإله الواحد ، الله الذي لا إله إلا هو .

وفلسفة القرآن في إثبات وجود الله ترجع إلى حجج ثلاث : برهان الخلق المعروف عند الأوروبيين بالبرهان الكوني ، وبرهان النظام المعروف عندهم ببرهان الغاية أو القصد ، وبرهان الاستعلاء والاستكمال المعروف عندهم ببرهان القديس أنسلم .

وفي هذا الفصل يتحدث العقاد عن الروح ، وعن مسألة القدر بإفاضة شارحاً كل ما جاء في القرآن الكريم من ذلك .

وفي الفصل السادس يتحدث العقاد عن الفرائض والعبادات ، وعن التصوف ، وعن الحياة الأخرى ، وعن الإصلاح في الإسلام ، مؤكداً في نهاية هذا الحديث أن الإسلام قد أقام قواعد الاقتصاد التي يقام عليها كل نظام صالح ، فقرر أن يمنع الاحتكار وكنز الأموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن يكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءاً من ثروة الأمة كلها ، وقد تزيد عليها بأمر الإمام وإحسان المحسنين ، ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال وإهمال العاجزين عن التكسب والعمل .

ويعرض العقاد لتفسير القرآن في العصر الحديث ، فيؤكد أن المسلم مأمور في القرآن بالتفكير والتأمل والتدبر . وليس الخطاب في القرآن مقصوراً على الأميين العرب ، ولا هو مقصور على أبناء القرن العشرين ، ولكنّه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان ، إذ ليس من المعقول أن يُفَكِّرَ الإنسان على نسق واحد في جميع العصور .

(٤)

وبعد ، فلا مفر من الإيجاز في عرض كل المسائل التي عرض لها الكتاب الذي يقع في ٢١٦ صفحة بالخط الدقيق من طبعة الهلال للكتاب (العدد ٢٢٩ الصادر عن دار الهلال منذ نحو العشرين عاماً أو يزيد ـ ط ١٩٧٠م) .

هذا الكتاب القيم يؤكد أن القرآن الكريم يغني الأمة المسلمة في باب الاعتقاد و الممارسة ، ولا يصدُّها عن سبيل المعرفة والخير والنهضة والتقدم .

تحية للكتاب وتحية للمؤلف في ذكرى وفاته عام ١٩٦٤م ...

---

(١) ولكننا نستطيع أن نؤمن به إيماناً يقينيّاً لأنه سبحانه وتعالى غرس الإيمان في فطرتنا ، ولآياته البينات في الكون ، ولرسله الذين بعثهم الله في كلّ أمة والذين ختموا بمحمد ﷺ .(الناشر)



أساليب الخطاب القرآني

للمؤلف صادق عبد الرحيم

الخطاب القرآني :

الخطاب القرآني للإنسان وللناس ، وهذا ما لا ريب فيه . فإذا كان القرآن رسالة فإن الخطاب بهذه الرسالة موجه للإنسان وللناس .

رسالة القرآن رسالة عامة لا تخص قوماً دون قوم ، ولا جنساً دون جنس ، ولا عصراً دون عصر ، والله عز وجل يقول لنبيه الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

ويقول عز وجل :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٤]

فالخطاب بهذه الرسالة هو للإنسانية جمعاء ، وللبشرية كافة ، وللأجيال والعصور عامة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١]

المأمور به هنا لأمر عام يشمل الناس جميعاً . أما إذا كان المأمور به أو المتحدث عنه خاصاً فالغالب أن يقول الله تعالى : يا أيها الإنسان أو بالإنسان وحده :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١]

وقد لاحظ الكفوي (الكليات للكفوي - القسم الرابع ص ٣٧٣) أنه إذا كان المقام مقام التعبير عن المفرد يذكر الإنسان نحو :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء: ١٣]

إذا كان المقام مقام التعبير عن الجمع يذكر الناس نحو :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

الناس يشمل الناس جميعاً . أما الإنسان فخاص :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠]

أي شديد البخل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

وقد ذكرت لفظة الإنسان في القرآن الكريم ستاً وستين مرة أما لفظة الناس فقد ذكرت أضعاف ذلك .

هذا كلُّه ما نفهمه وندركه من قراءة كتاب : " **أسلوب الخطاب القرآني** " تأليف صادق عبد الرحيم الذي ألم في كتابه بكثير من الدراسات القرآنية ، حول الخطاب القرآني للناس وللإنسان من خطاب الحاضر إلى خطاب النداء إلى خطاب الأمر ، إلى خطاب التمليك ، إلى خطاب المسؤولية إلى خطاب الهدى ، وغير ذلك من بحوث تتصل بالخطاب القرآني .

ويقول الباحث :

خاطب الله النبيﷺ بلام التملك في قوله ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٨]

كما خاطب بها الناس في قوله﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم: ٢]

فكفل الله للنبي ﷺ وللناس بهذا الخطاب حقوقهم الاعتبارية والمعنوية ، فلم يفرض الله عز وجل حقاً شرعياً للنبي خارج إطار حقوق النبوة إلا فرض مثله للناس الذين آمنوا ، ولم يفرض حقاً شرعياً لهم إلا فرض له مثله .

أما خطاب المسؤولية فهو ما خوطب به الرسول ﷺ في مجال الرسالة والنبوة والوحي ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]

ويقول الله عز وجل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .فقد ملَّك الله الناس جميعا هداهم ، وامتلاكهم لهذا الهدى مرهون باختيارهم فهم يملكون لأنفسهم طريق الهداية كما يملكون طريق الضلال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]

(٢)

ويذكر مؤلف الكتاب ـ دراسات في أساليب الخطاب القرآني ـ أن للقرآن الكريم أسماء وليس اسماً واحداً ، وللتعرف على هذه الأسماء نعود إلى كتاب الإتقان للسيوطي ، فتراه قد أورد فيه ما روى عن كعب . فقال : قال في التوراة : يا محمد إني منزل عليك نوراً فحديثه يفتح أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً . وأخرج ابن حاتم عن قتادة ، قال : لما أخذ موسى الألواح قال : يا رب ، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في قلوبهم فاجعلهم أمتي . قال الله تعالى له : تلك أمة محمد ـ أو أحمد ـ . ويعلق السيوطي على ما أورده قائلاً : ففي هذين الأثرين تسمية القرآن توراة وإنجيلاً ، ومع هذا لا يجوز الآن أن يُطْلَقَ عليه هذا و ذاك . وحكى المظفري فيما رواه السيوطي أيضا أنه لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم سموه إنجيلاً فكرهوه ، وقال بعضهم سموه السفر ، فكرهوه فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه " المصحف " فسموه به ، وبذلك كان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف .

ويقول المؤلف : إن أسماء القرآن هي التي قررها الله عز وجل وذكرها في قرآنه ، وذكر الجاحظ أن الله عز وجل قد سمى تنزيله اسماً مخالفاً لما سمى به العرب كلامهم فسماه قرآنا . ويقول العزيزي في كتابه " البرهان " إن الله تعالى

قد سمى القرآن خمسة وخمسين اسماً . ولكن المجمع عليه هو اسم واحد . وهو " القرآن " . والناظر لما أورده صاحب البرهان أن هذه الأسماء الكثيرة هي صفات وليست أسماء . مثل هدى ، ونور ، وموعظة ، وذكر وكريم ، ورحمة وتنزيل ، والنبأ العظيم ، ومهيمن ، وتنزيل ، وبعض هذه الأسماء عامة مثل كتاب ، وحكمة ، ومجيد .

وبحسبنا قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] . إنه اسم واحد للرسالة التي نزلت على محمد بن عبد الله ﷺ خاتم المرسلين ، وهو القرآن ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس: ٦٩] . أما اسم التنزيل والكتاب فهما اسمان مشتركان للدلالة على كل ما نزل من عند الله عز وجل من رسالات سماوية ، فاسم الكتاب اسم عام شامل لكل ما أنزله الله تعالى على رسله الكرام ! وجاء اسم الفرقان كثيراً وهو القرآن : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان: ١]

وقد سمى الله عز وجل إحدى السور القرآنية باسم الفرقان . ولكن الله عز وجل أطلق على رسالة موسى الفرقان أيضاً :﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣]

كما أطلق اسم الكتاب على القرآن .. ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت: ٢، ٣]

كما أطلق الكتاب على التوراة : ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) ﴾ [غافر: ٥٣] كما أطلق على الإنجيل أيضاً : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) ﴾ [آل عمران: ٤٨] .

(٣)

إن الخطاب القرآني خطاب موجه إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين برسالته وإلى الإنسانية جمعاء. وهذا متفق وعموم الرسالة وأنها رسالة للناس جميعاً في كل زمان ومكان حتى تقوم الساعة، وهي خاتمة الرسالات وتضم تحت ظلالها كل الرسالات والنبوات وكل شرائع الله إلى عباده، وكل القيم الإنسانية الرفيعة التي كلف الله عز وجل بها عباده وكل العبادات والطاعات التي كلف بها الناس جميعاً.

وتدعو رسالة الله إلى خاتم رسله إلى التوحيد المطلق والإيمان الخالص بالله جل جلاله وحده لا شريك له رب البشر أجمعين، وقد دعا رسل الله إلى توحيد الله وحده لا شريك له منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

فهذا إبراهيم يقول لقومه: ﴿ **يا قوم إني بريء مما تشركون** ﴾ [الأعراف: ٥٩] .ومن قبل يخاطب نوح قومه فيقول لهم ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩]

ويقول هود لقومه عاد: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)** ﴾ [الأعراف: ٦٥]

ويدعو شعيب أهل مدين إلى التوحيد فيقول لهم: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [هود: ٨٤]

وكذلك كان التوحيد دعوة لوط إلى قومه، ودعوة موسى وعيسى والنبيين جميعاً عليهم السلام: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)** ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

وصدق الله العظيم فيما يقول: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ**

وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩]

ولأن رسالة القرآن عامة شاملة ودعوة إلى التوحيد المطلق يقول الله عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩]

بل إن الله عز وجل لما خلق الخلق أمرهم بعبادته وحده ،﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وصدق الله العظيم فيما يقول لنبيه الكريم : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣]

وبعد .. فإن في فصول هذا الكتاب ـ دراسات في أساليب الخطاب القرآني لمؤلفه صادق عبد الرحيم ـ ما قد يفيد القارئ ويمده بالكثير من أساليب الخطاب القرآني الموجه إلى البشرية كافة هدى ورحمةً ونوراً وحكمة وعبادة خاشعة وتوحيداً خالصاً لله رب العالمين .

التصوير القرآني في كتاب الله

للمؤلف الأستاذ الدكتور علي علي صبح

كتاب جديد في ثلاثمائة صفحة من تأليف الأستاذ الدكتورعلي علي صبح ، عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر . يتميز بحسن عرضه وعمق فكره وجمال أسلوبه ، ودقة بحثه لموضوعه ، مما يعطي للكتاب قيمة علمية كبيرة ، وريادة واضحة في دراساته ، التي تضمنت العديد من الصور القرآنية البليغة القائمة على التحليل والتطبيق لوجوه الإعجاز في كتاب الله الخالد لأخطر القيم التشريعية والخلقية الرفيعة .

يقع هذا الكتاب في مقدمة وخمسة فصول ، ويستمد الكتاب قيمته من موضوعه ، إذ تناول المؤلف فيه معجزة القرآن وبلاغته المبهرة في تصوير أصول الفكر الإسلامي وقيمه السامية ، وما أكثرها وأجلها وأعظمها .

والدكتور صبح في مؤلفاته الكثيرة معني كل العناية بالجوانب الإسلامية وبخاصة القرآنية السامية بجانب عنايته بالنص الأدبي في إبداعات الرواد من أدباء وشعراء . والمؤلف يعلل لسر اختياره لعنوان كتابه " التصوير القرآني " دون عناوين أخرى من مثل الأسلوب القرآني والنظم القرآني مثلاً ، لأن التصوير أدق وأبلغ وأوفى بحق كتاب الله العظيم وجلاله الكبير ، وهو كذلك لأن عنوان " التصوير القرآني " ملزم بالأدب مع كتاب الله أكثر من تعبيرات الأدباء والنقاد المعاصرين التي تتضمن احتمالات لا تتفق مع عظمة القرآن وإعجازه وجلال بيانه وقداسته ، فالقرآن وحي الله وكلامه المنزل على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ ، ولا ينبغي أن يخضع لمقاييس البشر في دراساتهم لنصوص الأدب في شتى أجناسه وضروبه ، وليس من الأسلوب المستقيم أن يُقَدَّر إعجاز القرآن الكريم بنفس الأصول الفنية والأدبية ، التي يحتكم إليها النقاد في تقرير النصوص الإنسانية .

في الفصل الأول من الكتاب يعرض المؤلف لنظريته هذه ، ولقضيته تلك المثارة ذاتها على بساط البحث ، ولإعجاز القرآن في التشريع للفرد والأسرة

والمجتمع والأمة والبشرية عامة ، وفي العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب . هذا الإعجاز يعرفه بالذوق كل دارس للنص الإلهي العظيم المنزل من السماء .

هذا الإعجاز الواضح في مختلف ألوان التفكير والعلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، هو معجزة الرسول ﷺ الكبرى التي تحدى بها الناس . ويوالي المؤلف الحديث عن هذا الإعجاز العظيم في قصة أهل الكهف وقصة موسى والخضر ، بل وفي غيرهما من القصص الرفيعة الحكيمة البليغة كما يتحدث عن جلال هذا التصوير في آيات فريضة الحج .

وفي الفصل الثاني يفيض في شرح الإعجاز في التصوير المبهر لتعاقب الليل والنهار ، وفي الفصل الثالث يشرح وجوه الإعجاز في التصوير القرآني لآيات فريضة الصيام .

أما الفصل الرابع فيعرض فيه لشرح قضايا الإعجاز البليغ الرفيع في كتاب الله في تصويره لموضوع تربية النشء ، مفيضاً في الحديث عن المنهج التربوي الإلهي في تأديب الشباب في مختلف مراحل نموهم .

أما آيات العقود والمعاملات وفروع الاقتصاد فيخصها المؤلف بدراسة وجوه الإعجاز فيها في الفصل الخامس والأخير من الكتاب .

وبذلك ينتهي هذا المؤلَّف الخطير ، ويقف المؤلف حيال ذلك كله ناطقاً بعظمة الإعجاز في كتاب الله الحكيم .

مرحلة طويلة قطعها الدكتور صبح في دراسة مواضيع كبيرة عرض لها في كتابه بتفصيل واسع ودقيق ، فجاء كتابه وافياً أبعد حدود الوفاء بهذه المضامين الكبيرة التي ألف فيها العلماء والباحثون آلاف الكتب ، ولم يصلوا فيها في رحلتهم الشاقة إلى شاطئ المعرفة .

تحية للكتاب وتحية للمؤلف ودعوة للقارئ إلى أن يجلس إلى هذه المائدة الدسمة لعله يخرج منها بثمرات طيبات يقف بها أمام أفق واسع من المعرفة .

إعجـاز القـــرآن
في الدراسـات الأدبيـة والنقديـة (١)

للمؤلف صلاح عبد التواب

(١)

نحن أمام عمل علمي كبير جداً يقدمه لنا المؤلـف الأستاذ الدكتور : صلاح عبد التواب في كتابه الرائع الممتع " **دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن** " .

القرآن الكريم كتاب السماء والوحي الإلهي المنزل على خاتم المرسلين وسيد النبيين ، محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

القرآن الكريم المعجزة الكبرى لسيد الأنبياء ، التي تتحدى الدنيا ، ويقف أمامها العقل الإنساني مذهولاً ، والتي جاءت دلالة قوية واضحة على صدق رسالة الرسول الأمين ﷺ ، وعلى صحة كل ما بلغ به عن رب العزة جل جلاله .

والقرآن ، يتلى ، وما يزال يتلى على مسامع الدنيا والعالم والبشر منذ عصر الرسالة حتى اليوم ، وهو ملء سمع الزمن وبصره ، وحديث العصور والأجيال جيل بعد جيل .

والحديث عن المعجزة ، وعن التحدي ، وعن العجز البشري أمام هذا الكتاب الإلهي المعجز الخالد : هو حديث المفكرين والعلماء والباحثين على مرور العصور ، وهو حديث قديم جديد ، يملأ آلاف آلاف الصفحات المخطوطة والمطبوعة ، ويوليه أقصى درجات الاهتمام كل مسلم يعبد الله في الأرض ، بل كل إنسان يبحث عن الحق والحقيقة ، وعن صلة الأرض بالسماء ، وعن الوحي والرسالات الإلهية ، التي هدت الناس وأخرجتهم من الظلمات إلى النور على مدى الأحقاب والقرون .

(٢)

والمؤلف في هذا الكتاب الرائع الشامخ يحدثنا حديث العالم الثَّبْت الحجة عن الدراسات الأدبية والنقدية حول الإعجاز القرآني في القديم والحديث ، موجهاً عنايته إلى مختلف الاتجاهات في النقد والأدب عند القدماء والمحدثين في موضوع :

" **إعجاز القرآن الكريم** " ، وما أجله من موضوع ، وما أجمله وأروعه من حديث .

(٣)

في الجزء الأول من هذا الكتاب القيم ، وفي فصلين ممتعين متعاقبين يحدثنا ، المؤلف د. صلاح عبد التواب عن آراء الأقدمين في بيان الإعجاز .

عن آراء النظَّام (٢٣٥هـ) شيخ المعتزلة في مذهبه في الصَّرفة ، وأنها هي سر هذا الإعجاز العظيم ، وأن الله عز وجل صرف العرب عن إمكان معارضة القرآن في بلاغته دليلاً على تمام المعجزة وتمامها ، فسلبهم كل ما يمكن أن يساعدهم على التحدِّي .

كما يحدثنا عن آراء الجاحظ (١٦٠ـ٢٥٥هـ) في قضية الإعجاز القرآني الذي يفسره الجاحظ ببلاغة النظم القرآني الفائق المذهل .

ونستمع إلى المؤلف في هذا الجزء وهو يحدثنا أيضاً عن آراء ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في قضية الإعجاز ، وعن شتى مناهج الأقدمين في بيان الإعجاز .

- منهج الرماني (٢٩٦ـ٣٨٤هـ) .
- منهج الخطابي (٣١٩ـ٣٨٨هـ) .
- منهج الباقلاني (٣٧٢ـ٤٠٣هـ) .

- منهج عبد القاهر الجرجاني (٤١٠ـ٤٧١هـ) في كتابه الرائع " دلائل الإعجاز " .

- منهج الزمخشري (٤٦٧ـ٥٣٨هـ) .

(٤)

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب الشامخ بفصوله الأربعة يحدثنا المؤلف الأستاذ الدكتور صلاح عبد التواب عن دراسات المحدثين ومناهجهم في بيان الإعجاز .

فيعرض علينا آراء الإمام محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥م) ، وآراء الشيخ محمد رشيد رضا (١٩٣٥م) في قضايا الإعجاز .

ويحدثنا عن مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ـ١٩٣٧م) وآرائه في قضية الإعجاز ، وعن منهج الدكتور محمد عبد الله دراز (١٨٩٤ـ ١٩٧٠م) في كتابه " النبأ العظيم " في موضوع إعجاز كتاب الله الخالد العظيم .

وفي هذا الجزء أيضاً يدرس المؤلف مقاييس الجمال الفني عند علماء الجمال والمقاييس الجمالية عند علماء الإعجاز .

(٥)

وفي الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب الممتع في فصوله الثلاثة يتحدث المؤلف عن جانب من أساليب العرض القرآني الفنية :

- كالتشبيه والتمثيل .
- وكالاستعارة .
- وكالكناية .

ويدرس المؤلف أخيراً الأسلوب القصصي في القرآن الكريم دراسة مفصلة ، مؤكداً من خلال عرض الأساليب المختلفة في القرآن الكريم ، وطرق عرض آيات الله المحكمات ، وإن كانت قد أصابت أغراضها الدينية في وضوح ويسر ، فقد أدَّت في ذات الوقت غرضها الفني في دقة عجيبة بارعة بلغت حد الروعة والإعجاز .

وأخيراً فإن هذا الذي حدثنا فيه الدكتور الأستاذ صلاح عبد التواب في أجزائه الثلاثة عن مختلف قضايا الإعجاز يستحق من كل باحث أن يضعه أمامه موضع التقدير والاحترام ... والله ولي التوفيق .

---

(١) كتاب إعجاز القرآن في الدراسات الأدبية والنقدية يقع في ثلاثة أجزاء من تأليف أ.د صلاح عبد التواب ... أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ـ نشر دار الكتاب الحديث بالقاهرة ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م .

الإعجاز البلاغي في القرآن

للمؤلف الدكتور محمد محمد أبو موسى

الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم تأليف الدكتور محمد محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة والنقد بجامعة الأزهر ، وقد صدر عن مكتبة وهبة في نحو أربعمائة صفحة .

وهو دراسة عميقة جادة لقضايا إعجاز القرآن الكريم ، قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤١٠ـ ٤٧١هـ) ، عند أئمة علماء البلاغة والإعجاز القرآني ، من أمثال الخطابي والرمّاني والباقلاني ، وقد وقفت حقاً أمام هذه الدراسة المتميزة معجباً كل الإعجاب ، لدقة الفهم ، وروعة التحليل ، وصواب الاستنتاج ، وصحة الاستنباط .

ويقول المؤلف في مقدمة كتابه : " إن هذه الدراسة تحاول أن تتفهم كلام القدماء في هذا الباب ، وليس لها غاية أكثر من الاجتهاد في ذلك ، وذلك لأنها ترى في كلام القدماء في هذا الباب ، وفي غيره ، ودائع من حقائق المعرفة لم تستخرج بعد ، فضلا عن أن نكون قد انتفعنا بها في حياتنا العقلية انتفاعا مثمراً على الوجه المرضي " .

ويؤكد الدكتور المؤلف في المقدمة أنه يلح في هذه الدراسة وفي غيرها على ضرورة إثبات حقائق المعرفة من كلام القدماء لأمور منها أولاً وقبل كل شيء في اعتقادنا أن تراث الأمم هو ذات الأمم حتى كأنها هو ، وكأنه هي ، ويذكر أن حصيلة هذه الدراسة في قراءة ثلاثة كتب فقط للخطابي والرمّاني والباقلاني ، وأنها انتظمت في مدخل وثمانية فصول :

- فالمدخل يعالج موضوع العربية ودلالة الإعجاز .
- والفصل الأول يتناول إعجاز القرآن عند الإمام الخطابي ٣١٩-٣٨٨هـ) .

- ويتناول الفصل الثاني قضية الإعجاز عند الروماني (٣٧٦ـ٣٨٤هـ).
- والفصل الثالث قراءة في مقدمة كتاب الباقلاني عن إعجاز القرآن .
- والرابع حول إعجاز القرآن عند الباقلاني (٣٣٠ـ٤٠٣هـ) .
- والخامس والسادس والسابع حول الباقلاني ونقد الشعر .
- والفصل الثامن عن قضية الصَّرفة التي نادى بها النظام شيخ المعتزلة (١٦٠ـ ٢٢١هـ) .

وهذا الكتاب يمثل لنا فكراً عميقاً قوياً واقفاً على أسرار العربية . ومختلف قضايا البلاغة والإعجاز ويمثل لنا شخصية عالم متضلع في فهم التراث وتعمقه والإفادة منه ، لأن هذا التراث هو روح الأمة ، وجوهر شخصيتها ، ودعامة صبغتها الإسلامية .

الجهل بالتراث :

وليس هناك اليوم صلة بين التراث وبين القضايا التي يرددها تلامذة الغرب والمستشرقون من أنصاف المتعلمين الذين يدَّعون تصدر موكب العلم والنقد والبلاغة عندنا ، وهم أجهل الناس بتراث أمتهم ، وأبعد الناس عن فهم هذا التراث ، وأقرب التلامذة صلة بالغرب ، ومحاولة تقليده ، وإمعانا في الاعتراف بأستاذيته لهم .

وقد ورث الإمام الخطابي عن علماء البلاغة والإعجاز قبله نظريتين ، إحداهما تقول إنّ الإعجاز كان بالصرفة ، وهي التي كان يرددها النظَّام المعتزلي ، والأخرى تقول إن الإعجاز بالنظم ، وهي التي كان ينادي بها أبو عثمان الجاحظ (١٦٠ـ٢٥٥هـ) ، وعاصر مذهباً ثالثاً يقول إنَّ سبب الإعجاز القرآني هو ما اشتمل عليه من الأخبار بالغيب ، وهذا المذهب قريب عند الخطابي، ويعني لقربه إما قرب زمنه منه ، وإما وضوحه وعدم حاجته على التعمق ، لقربه من فهم الجماهير من العلماء .

ويقول الخطابي : وزعم آخرون أن إعجازه هو من جهة البلاغة ، وهو رأي الأكثرية من علماء النظم . وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ويصعب منه الانفصال . قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ، ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده .

ويدعو الخطابي إلى البحث عن أسرار هذه البلاغة التي تختص بالقرآن الكريم ، ويحاول دراسة ظاهرة البلاغة القرآنية ، أو معجزة الإعجاز في القرآن دراسة عالم متمكن ، وأستاذ متعمق ، على هدى من ملكته القادرة في البلاغة والنقد وشتى علوم العربية . ويفيض المؤلف الدكتور أبو موسى في عرض آراء الخطابي وتحليلها إفاضة عالم ثبت ذي قدم صدق في فهم العربية وأسرارها ، وفي الوقوف على حصيلة أراء العلماء في بلاغتها وأسلوبها .

وينتقل المؤلف إلى الرماني وكتابه " النكت في إعجاز القرآن . " والرماني يذكر أن القرآن معجز من سبع جهات :

ترك المعارضة - التحدي للطاقة - الصرفة - البلاغة - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة - نقض العادة - قياسه بكل معجزة .

والبلاغة عند الروماني ثلاث طبقات :

١ - طبقة عليا : وهي طبقة بلاغة القرآن .

٢ - طبقة دنيا : وهي أوفى منزلة في كلام الناس .

٣ - طبقة بينهما ، وفيها تتفاوت منازل الشعراء والبلغاء .

وأبواب البلاغة عند الرماني كثيرة ، منها الإيجاز ، ومنها التشبيه ، ومنها الاستعارة ، والفواصل ، والتجانس ، والتلاؤم ، ... الخ .

أما الباقلاني فيأخذ نحو ثلث الكتاب ، ويمضي المؤلف دراسة آرائه في الإعجاز ، التي دونها الإمام الباقلاني في كتاب " إعجاز القرآن " بجد واهتمام ومثابرة وتعمق في الفهم والاستنباط .

مقدمة إعجاز القرآن للباقلاني تستثير المؤلف ، فيمضي معها دارساً ومعلقاً في فصل كامل ، هو الفصل الثالث من الكتاب " الإعجاز البلاغي " ، مشيراً إلى محاولات المستغربين فرض آراء الغرب بدعوى التجديد ، ويؤكد أن قضية الإعجاز عند الإمام الباقلاني هي من علم الشعر والأدب والتعرف على طرائق الكلام ، وكيفية تقلبه في وجوه الفصاحة والبلاغة ، وقد عالجها الباقلاني في هذه الحدود ، ولم يدخلها من علم الكلام وأصول الدين ، إلا ما لا يمس جوهرها ، فظلت أدبية خالصة ، وقد دخل بها أدق المسالك في هذا الباب ، وطرق بها أغمض جهاته .

وتدور دراسة الباقلاني في إعجاز القرآن على محورين أساسيين :

الأول : تحديد العناصر البلاغية الخاصة بالقرآن الكريم .

الثاني : إمعان النظر في الآيات القرآنية ، ومدارستها كلمة كلمة ، وجملة جملة ، وسورة سورة .

ووقف الباقلاني من البديع ، موقفا خاصاً ، يرفض أن يكون الإعجاز وقفاً عليه ، ويرضى أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز ، وسبباً من أسبابه الكثيرة ، والبلاغة هي سر معجزة الإعجاز في آية ، والبلاغة عنده عشرة أقسام كالتشبيه والاستعارة والتجنيس والتطابق وغيرها ، ويدرس الباقلاني نظم القرآن دراسة عالم حجة فيما يذهب إليه .

معجزة القرآن :

ويعرض المؤلِّفُ الباقلاني نقدَ الشعر في الفصل الخامس من كتابه " الإعجاز البلاغي " ، ويخص دراسة رأي الباقلاني في معلقة امرىء القيس " قفَا نبْك " بالفصل السادس ، ودراسة قصيدة البحتري " أهلاً بذلكم الخيال َالمقبل " ، بالفصل السابع ، والحديث عن مذهب الصرفة بالفصل الثامن والأخير ، ومذهب الصَّرفة هو مذهب النظَّام الذي كان يريده ويذهب إليه ، وكانت حصيلة ما قيل في

الإعجاز في عصر النظّام والجاحظ هي النظم الذي نادى به الجاحظ ، والصَّرفة التي نادى بها النظام مع ذهابه إلى مشاركة الأخبار بالغيب للصرفة في قضية الإعجاز ، والصَّرفة تعني صرف الله عز وجل للعرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم ، وهي تعني ، كما فهم الرماني ، صرفَ الهمم عن المعارضة ، أو تعني تحقيق عدم إعطاء الله عز وجل لهم القدرة والأسباب التي تعينهم على محاولة الإتيان بمثل القرآن الكريم إن كان في مقدورهم ذلك . وقد عرض الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " لموضوع الصرفة عرضاً موجزاً ، وأفرد له فصلاً في رسالته " الرسالة الشافية " ، والقول بالصرفة رأي ضعيف عند الإمام عبد القاهر ، بل عند غيره من علماء قضايا الإعجاز والبلاغة .

وبعد فماذا أقول عن هذا الكتاب القيم النفيس الذي هو ثمرة جهود العلماء في القرن الرابع الهجري قبل الإمام عبد القاهر في فهم قضية الإعجاز القرآني من شتى وجوهها .

إن المؤلف في كتبه : التصوير البياني ، وخصائص التراكيب ، ودلالات التركيب ، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ومن أسرار التعبير القرآني ، يثري البلاغة العربية حقاً بدراسات قيمة ترفع من شان البحث البلاغي ، ودراسات الظاهرة القرآنية تدور حول إعجاز القرآن الكريم .

ونحن لا نملك إلا أن ندعو المؤلف إلى المثابرة على بذل أمثال هذه الجهود المضنية من أجل التراث ، وبلاغة القرآن الكريم ، وفهم قضية البلاغة العربية في أدق حقائقها .

تحية للكتاب وللمؤلف ، ودعاء له بالتوفيق .

دلائـــل الإعجـــاز

للإمام عبد القاهر الجرجاني

(٤٠٠ـ٤٧١هـ ـ ١٠١٠ـ١٠٨١م)

(١)

أبو بكر عبد القاهر الجرجاني علم من أعلام النقد العربي والبلاغة العربية ، ورائد من رواد الفكر والتراث والمعرفة .

تصدَّر حلقات العربية والبيان في جرجان . وقصده الناس للاغتراف من علمه والإفادة من فضله ، وقيل عنه : إنه فرد في علمه الغزير ، والعلم المفرد في الأئمة المشاهير في العصر السلجوقي ، وكان والده عبد الرحمن أول أستاذ له . وتتلمذ على يد عبد القاهر علماء وطلاب لا يحصون عدداً ـ توفي عام ٤٧١هـ . وله مؤلفات عديدة منها :

- مختارات من شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي طبعه عبد العزيز الميمني باسم " الطرائف الأدبية " .
- المغني في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي في ثلاثين جزءاً ، واختصره في كتاب باسم (المقتصد) الذي يعد شرحاً موجزاً للإيضاح .
- التكملة ، وهو ذيل لكتاب الإيضاح .
- الإيجاز ، وهو مختصر لكتاب الإيضاح .
- الجمل في النحو .
- العوامل المائة .
- شرح الفاتحة .
- العمدة في التصريف .
- كتاب في العروض .

- وله شرحان على كتاب " إعجاز القرآن " للواسطي (ت ٣٠٦هـ) : أحدهما كبير سماه " المقتصد " والآخر صغير .

- الرسالة الشافية في الإعجاز ، وقد طبعت مع رسالتين أخريين بعنوان " ثلاث رسائل " علق عليها محمد خلف الله وزغلول سلام .

- التذكرة - ذكره القفلي في " إنباء الرواة " .

- المفتاح - ذكره صاحب كتاب " طبقات الشافعية " .

وأجلُّ كتبه وأخلدها ، وأعظمها أثراً ، وأكبرها خطراً ، وأخلدها على الأيام كتابان ، هما : " دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة " .

وهذان الكتابان يحتلان الذروة بين كتب البلاغة والنقد على مر العصور ، وقد عني بهما الإمام محمد عبده ، ونشرهما وعلق عليهما الشيخ رشيد رضا. ومع أهميتهما في علم البلاغة وريادتهما فيه ، فإنهما يمثلان الذروة في كتب النقد العربي ويمثلان منهجاً كاملاً فيه .

وثقافة عبد القاهر البيانية والنقدية والنحوية أغلب عليه[1] ، ولذلك لقب بالنحوي لتفوقه في النحو ، واستقصائه لأحكامه وعلله ووجوهه [2] .

وكتاب " دلائل الإعجاز "[3] لعبد القاهر يحمل مقدمات في دراسة الإعجاز القرآني ، ويلوح بمنهج متكامل في هذه الدراسة وهو في قمة كتب البيان والبلاغة العربية ، وفيه يجعل الإعجاز في البلاغة ، ويجعل البلاغة في " النظم " . ويشرح في كتابه هذا " النظم " شرْحاً واسعاً ، مما يجعله صاحب " نظرية النظم " ومبتكرها ، بتحديده لمعناها ومصطلحها ، وبتطبيقاته الواسعة عليها ، والنظم كما يعرفه عبد القاهر تَوَخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم [4] ، ولذلك درس عبد القاهر في هذا الكتاب وجوه النظم في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والفصل والوصل ، والقصر ، وتأكيد الخبر ، وضروب المجاز العقلي ، وغير ذلك .

ويقرر عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " أن المزية للكلام (البلاغة) إنما هي في نظمه ، لا في مجرد معناه ، ولا في ألفاظه ، إذ ليس للفظ من حيث هو لفظ مزية وفضل ، وهذه المزية هي التي تقودنا لمعرفة الإعجاز القرآني الذي نلمسه في النظم وحده ، لا في شيء آخر ، فالبلاغة إنما هي في النظم لا في الكلمة مفردة ، ولا في مجرد المعاني وحدها ، والباحث عن الإعجاز عليه أن يتلمسه في النظم وحده .

(٢)

ونظرية النظم هي خاصة فلسفة عبد القاهر البلاغية ، وهي بما اشتملت عليه من تطبيقات واسعة ، وشروح طويلة ، جديدة كل الجدة عند هذا الإمام الكبير ، ولم يعرض لها أحد قبله هذا العرض المتميز ، ولذلك جهد عبد القاهر في إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترضه فيها ، ففلسفة عبد القاهر البيانية إنما تنهض على أساس فكرة النظم (٥) ، وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن هو المخترع لها ، وإنما كان هو الذي بسط القول فيها ، وأقام على أساسها كتابه " دلائل الإعجاز " إذ سبقه إليها الجاحظ ، ثم الواسطي في كتابه " إعجاز القرآن في نظمه " ، ثم القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمذاني المتوفى عام ٤١٥هـ في كتابه " المغني " في جزئه السادس عشر ، ونلمسها عند السيرافي (ت٣٦٨هـ) في مناظرته المشهورة لمتى بن يونس الفيلسوف التي رواها أبو حيان التوحيدي في كتابه " الإمتاع والمؤانسة " ، فمثل هذه الآراء لا تدفع عن عبد القاهر ريادته في البلاغة ، لقد استخدم عبد القاهر معاني النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً ونقدياً محضاً ، وإلا لكان في النحو غنى عن كل ما يرده عبد القاهر ، ويؤكد نفيه له في كتابه ، كما يقرر في كل فصل من فصول " الدلائل " "ألا لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا بالنظر في الكتاب الذي وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه وأنه الطريق إلى البيان ، وألاَّ معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذي كان له معجزاً " .

(٣)

وقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتماداً كلياً في كل ما قرر من أحكام ، مؤكداً أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولاً ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلاً ، وحتى تختلف عليه الحال عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، وقد أثرى عبد القاهر البلاغة بما كتبه في نقد الأساليب وتحليلها واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على الأساليب وضروب النثر والشعر . وذلك الذوق الخالص لا يمكن أن يغني في الأدب عنه شيء آخر . ونظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ، وردِّ المعاني إلى النظم ، ومنهجه في نقد النصوص نقداً موضوعياً ، ما هي إلا مراحل تنتهي به إلى النظم ، ومنهجه في نقد النصوص نقداً موضوعياً ، ما هي إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ، ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره ، وإحساس عبد القاهر الأدبي السليم سابقٌ دائماً لعقله ، والحكم على النظم عنده هو النظر في المعنى منظوماً ، والذوق هو الفيصل الصادق الأخير في الحكم على هذه الدقائق ، وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسِّه الأدبي الخالص ، فالذوق عنده يتحكم في نظم المعاني التي نعبِّر عنها .

إن الأدب عنده فنٌّ لغوي ، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب من غيره من الفنون ، لقد بدأ الجرجاني بنظرية بسيطة في اللغة ، ثم انتهى إلى الذوق الشخصي الذي هو المرجع الأخير في الحكم على الأدب ، هذا الذوق الذاتي التأثري هو الحكم في قضايا الأدب والنقد والبيان .

وإذا كان الجاحظ (١٦٠-٢٥٥هـ) صاحب نظرية " وجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال " في البلاغة ، وابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ) صاحب نظرية البديع ، وقدامة (٣٣٧هـ) صاحب نظرية المعنى ، والآمدي (٣٧١هـ) صاحب نظرية عمود الشعر ، وابن جني (٣٩٢هـ) صاحب نظرية الفن اللغوي في الأدب ، فإن عبد

القاهر صاحب نظرية النظم . ويجمع اللغويون وكبار النقاد في كل اللغات على أن الكلمة رمز لمعناها . رمز للفكرة أو التجربة أو العاطفة ، وقيمتها فيما ترمز إليه ، وليست البلاغة فيها وحدها ، لأن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلمة المفردة مجردة عن الأسلوب التي هي فيه ، فليست البلاغة فيها وحدها ، وهذه هي نظرية رمزية اللغة ، التي بحثها عبد القاهر وأفاض في شرحها ، وبحثها بعد عبد القاهر بقرون طوال " فنت " الألماني متأثراً كل التأثير بعبد القاهر ، ويتفق على ذلك مع صاحب الدلائل كل النقاد العالميين .

يقول أفلاطون : الكلمة رمز لمعناها ، ويقول أرسطو : الكلمات رموز للمعاني ، ويقول عبد القاهر : إنك تطلب المعنى فإذا ظفرت به فاللفظ معك وإزاء ناظرك . ويقول برجسون بعده بزمن طويل : إننا نفكر بالألفاظ ، ويقول : " لاسل أبر كرومبي " أستاذ النقد في جامعة لندن : على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ، ورمزاً لتلك التجارب ، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما في نفسه بذلك الرمز وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء ، فما وظيفة الألفاظ في الأدب إلا أن تكون رمزاً ، ويقول ميخائيل نعيمة في " الغربال " لا قيمة للغة في ذاتها ونفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة .

(٤)

ونظرية عبد القاهر في النظم ، وأنه حسن استخدام العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي ، أو كما يقول : إنه تآخي معاني النحو فيما بين الكلم " بعضه والبعض " ، أو أنه مجموعة من العلاقات اللغوية بتعليق القيم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة ، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية ، وهذه الآراء التي بسطها

عبد القاهر تقوم عليه فلسفة " فرديناند دي سوسير " اللغوي السويسري رائد علم اللسان الحديث . يقول سوسير : " من مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة ، وفيها يظهر الجمال البياني " ، ويقول أيضا : " اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل هي مجموعة من العلاقات " . واللغة عند عبد القاهر ومجموعة النقاد العالميين المحدثين لا تصبح لغة شعرية إلا حين يستعملها الشاعر ، لا لأنها في ذاتها لها هذه الخاصية ، بل لأنها خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر ولمقتضيات التعبير عن هذه التجربة .

ويقول الناقد الإيطالي " بندتو كروتشيه " (المتوفى عام ١٩٥٢م) : " إن الحقيقة الجمالية لا تظهر في المضمون بل في الشكل الأدبي " ، ومن ثم فقد اعتدَّ بالصورة . وهو في هذا يتلاقى مع عبد القاهر الذي يعظم من شأن الصورة تعظيماً شديداً .

وإذا كان النقاد العرب قبل عبد القاهر من مثل ابن قتيبة وقدامة وأبي هلال العسكري ، يفصلون بين اللفظ والمعنى ، لأنهما عندهم عنصران مستقلان تمام الاستقلال ، من حيث ذهب ابن رشيق إلى أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، فهما متلازمان ولا يمكن الفصل بينهما ، وهذه هي نظرية النقد اليوناني القديم ، فإن عبد القاهر يجعل الصورة والمضمون وجهان للنموذج الأدبي والفصل بينهما غير ممكن ، فمادة العمل الأدبي وصورته لا يفترقان ، وهذه هي فلسفة الجماليين من حيث رفع الكلاسيكيون من شأن اللفظ ، واهتم الرومانسيون بالمعنى ، وحرر دعاة الفن للفن النص الأدبي من كل قيود المضمون ما دام النص يغذِّي الحاسة الجمالية فينا ، ودعا الرمزيون إلى الاهتمام بالنغم وما توحيه الصور والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق أصواتها وموسيقاها ، وأكد الواقعيون الاهتمام بالمضمون ومحتواه الاجتماعي ، وذهب " إليوت " إلى أن الشكل والمعنى هما الشيء نفسه ، وهكذا قرر عبد القاهر في جرأة نقدية وحدة العمل الأدبي ، وربط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق ، فاللفظ عنده يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى ، والمعنى

يستمد مزيته من حيث إنه المادة الغُفُل التي يصوغها اللفظ ، وإذا كان الشعر صياغة كما يقرر الجاحظ ويؤكده عبد القاهر ، فإن " مالارميه " الفرنسي لا يخرج عن ذلك حين يقول : الشعر لا يُصْنَع من الأفكار ، ولكنه يُصْنَعُ من الألفاظ .

ولا يغفل عبد القاهر ـ بعد تأكيده للعلاقات في النص ولرمزية اللغة ، وللجانب الجمالي في الصياغة ـ أهمية المعاني الثانوية في النص ودلالاتها الجمالية ، فكثير من المهارة الأدبية تعود إلى إطلاق تلك المعاني الثانوية ، من كتابة ومجاز وحسن تعليل وتبجيل ، وغير ذلك لتعمل عملها في الخيال ، وعبد القاهر يتلاقى معه في هذا كل النقاد في مختلف الآداب ، ويقول " كرومبي " : المعنى الذي تجده في معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التي يتجمع حولها طائفة من المعاني الثانوية التي هي ذات أصالة كبيرة في الصورة الأدبية .

ومن كل هذه القيم صاغ عبد القاهر ـ سابقاً لزمنه ـ نظريته النقدية ، أو فلسفته البلاغية الجمالية . وتعجب كيف نهج عبد القاهر في نقد النصوص نهجاً تأثرياً موضوعياً ، لينتهي إلى الذوق الذي يدرك الحقائق ، ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره ، الأدب عنده فنّ لغوي ، وإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب من غيره من الفنون . (٦) .

وإن كان " كروتشيه " يرى أن الحقيقة الجمالية إنما هي في الشكل لا في المضمون ، ولا قيمة للفظ المفرد عنده ، فإن ذلك هو ما ذهب إليه عبد القاهر قبله بقرون طوال .

(٥)

" **دلائل الإعجاز** " إذاً نظرية جديدة في البلاغة وهو أيضا نظرية جديدة في النقد الأدبي العربي ، وعبد القاهر هو الذي وضع أصول علم المعاني في البلاغة العربية كاملة ، أو شبه كاملة .

لكن من المؤكد أيضا أنه حين وضع الأصول إلى فهم الإعجاز في كتاب الله الحكيم ، مرّ على الحديث عن الإعجاز نفسه مرور الكرام، فلن نجد فيه ما تجده من قصد لمسائل الإعجاز القرآني البلاغي في البحث وحدها كما في " إعجاز القرآن للباقلاني " ، ولن نجد فيه قصة التحدي وما يدور حولها من بحث ، ولا قصة الإعجاز الكلي للعرب وغيرهم أمام بلاغة القرآن الكريم .

عبد القاهر وضع المنهج لبحث قضية الإعجاز ولم يطبق هذا المنهج في دراسات مطولة عن الإعجاز نفسه .

تحدث في " الدلائل " في فصل جد قصير عن الوصف الذي قد تجدد بالقرآن وأعجز الناس جميعا ، وهو البلاغة ودقة النظم ، ورد مذهب المعتزلة في الصَّرفة .

وما ذكره عبد القاهر عن الإعجاز إنما هو تأكيد لرأيه في أنه لا يُعرف الإعجاز إلا بالرجوع إلى النظم لتعرف المزية به ، ولتجلى البلاغة القرآنية بالتطبيق عليه .

عبد القاهر إذاً كان يريد الحديث عن الإعجاز ، ولكنه لم يوقف كتابه " دلائل الإعجاز " على هذه القضية التي تحدث عنها بإيجاز في كتابه الصغير " الرسالة الشافية " .

---

١ - راجع في الترجمة لعبد القاهر كتاب بغية الوعاة للسيوطي ص ٢١٠ ، ص١٨٨ ج٢ إنباء الرواة للقفطي ، ٢٤٠ ج٣ ، شذرات الذهب ،٢٤٢ طبقات الشافعية ، ٤٤٣ روضات الجنات .

٢ - ٢٤٢/ ٢ فوات الوفيات لابن شاكر .

٣ - علق عليه الشيخ رشيد رضا والشيخ أحمد المراغي ، وشرحه الدكتور كاتب هذا المقال ، كما علق عليه أخيراً محمود شاكر .

٤ - ٢٣٧-٢٥٠ دلائل الإعجاز .

٥ - ص ١٠٣ مدارس النقد الأدبي الحديث للخفاجي - نشر الدار المصرية اللبنانية - القاهرة عام ١٩٩٥م .

٦ - مقدمة " دلائل الإعجاز " . لعبد القاهر .

٧ - الميزان الجديد لمندور .

ترتيب سور القرآن الكريم

للإمام جلال الدين السيوطي

٨٤٩ـ ٩١١هـ / ١٤٤٥ـ ١٥٠٥م

(١)

هذا الكتاب " **ترتيب سور القرآن** " وضع له مؤلفه الإمام السيوطي اسماً حيث سماه " تناسق الدرر في تناسب السور " ، ومنه نسخة خطية واحدة ضمن مجموعة برقم ٤١٩ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية ، وقد حققه عبد القادر عطا ونشره عام ١٩٧٦م بعنوان " أسرار ترتيب القرآن " .

وأعاد د. السيد الجميلي تحقيقه وكتب مقدمة بعنوان : " تناسق وترتيب سور القرآن " كما يذكر المحقق نفسه ، ولكن مكتبة الهلال نشرته بعنوان " ترتيب سور القرآن " . والمؤلف هو الإمام الجليل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ـ ٩١١هـ/ ١٤٤٥ـ ١٥٠٥م) وهو من أعلام مصر وعلمائها الكبار في القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر .

وقد عاش السيوطي حياته كلها مع الكتاب والتأليف والتدريس والفتيا ، ومع تلاميذه ، ولكنه في العشرين سنة الأخيرة من حياته اعتزل الناس ولزم بيته للتأليف والكتابة والقراءة ، وكان من ثمرة ذلك كتبه الموسوعية الجليلة في مختلف فروع الثقافة الإسلامية ، التي كان يعد من أئمتها وأعلامها الكبار . وقد بلغت مؤلفاته ستمائة مؤلف كما يذكر ابن إياس المؤرخ الشهير ، والسيوطي في كتابه " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة " يذكر أن مؤلفاته بلغت وقت تأليفه لهذا الكتاب ثلاث مائة مؤلف ، ويذكر " بروكلمان " أنها أكثر من أربعمائة وأحصى له المستشرق " فاوكل " ٥٦١ مؤلفاً .

وعن السيوطي يقول تلميذه الداودي (٩٤٥هـ) في انبهار بعظمة شيخه "كان السيوطي في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله " .

وليس في العالم من بلغ ما بلغه السيوطي في كثرة المؤلفات سوى " رامون قول " الإسباني أحد كُتاب العصور الوسطى بلغت مؤلفاته نحو الخمسمائة .

وقد اعتمد السيوطي على النقل والعقل ، وأضاف في العلوم الإسلامية والعربية إضافات كثيرة وجديدة وكان يعد نفسه المبعوث الإلهي في القرن التاسع الهجري ليجدد للأمة الإسلامية دينها مصداقاً للحديث الشريف " **إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها** " [(١)].

(٢)

ويذكر السيوطي في مقدمة كتابه في ترتيب سور القرآن أنه ألف كتابه " أسرار التنزيل " مشتملاً على بضعة عشر نوعاً من أنواع هذه الأسرار ، وأنه أفرد جزءاً في نوع خاص من هذه الأنواع ، هو " مناسبات ترتيب السور " ، ليكون عجالة لمريده وبغية لمستفيده لقلة من تكلم في ذلك ، أو خاض في هذه المسالك . وقال : " وقد كنت أولاً سميته " نتائج الفكر في تناسب السور " ، ثم عدلت وسميته " تناسق الدرر في تناسب السور " ، لأنه أنسب بالمسمى " .

ويخوض السيوطي في كتابه في الحديث عن كل ما يتصل بأسرار ترتيب السور في القرآن الكريم ، فيذكر سور القرآن سورة سورة ، وما يتصل بها مما يدور في الأغلب حول ترتيب السور القرآنية ويتصل بصلة كل سورة بما قبلها وما بعدها ، وأسرار وضع كل سورة في موضعها .

ففي سورة الجن مثلا يقول السيوطي : " قد فكّرت مدة في وجه اتصالها - أي اتصال هذه السورة - بما قبلها فلم يظهر لي سوى أنه - أي الله عز وجل - قال في سورة " نوح " قبلها ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** ﴿١٠﴾ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ﴿١١﴾ ﴾ [نوح: ١٠، ١١]، وقال في هذه السورة - الجن : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن: ١٦] وهذا وجه بيِّن في الارتباط " .

وأقول لشيخنا السيوطي : لِمَ لا يكون وجه الاتصال بين سورة نوح وسورة الجن أن نوحا أكد لقومه أمر البعث : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] ، وفي سورة " الجن " تأكيد للبعث في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجن: ٢٥]

(٣)

ويذكر السيوطي في كتابه نقلاً عن الكرماني في " البرهان " أن ترتيب السور كما في المصحف الشريف الذي بين بصرنا وبين أيدينا هو من عند الله تعالى في " اللوح المحفوظ " وهو على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبي ﷺ على جبريل عليه السلام ما اجتمع لديه منه ، وعرضه ﷺ في السنة التي توفي فيها مرتين .

ويروي السيوطي أن وضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي ، وينقل عن البيهقي أن القرآن كان على عهد النبي ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب .

كما يروي عن أبي جعفر النحاس أن المختار هو تأليف آيات السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ ، كما ينقل عن الحافظ ابن حجر أن ترتيب معظم السور توقيفي أي من الله عز وجل ، فترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد النبي ﷺ .

ويقول السيوطي : وليس هنا شئ أُعارض به - أي القول بأن ترتيب السور توقيفي من الله عز وجل - سوى اختلاف مصحف أبي بن كعب وابن مسعود ، فلو كان ترتيب السور توقيفاً لما وقع فيهما اختلاف في ترتيب السور كما يقع في ترتيب الآيات .

ومجمل القول : إن العلماء اختلفوا في ترتيب السور : هل هو ترتيب من النبي ﷺ عن طريق الوحي أو أن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة مع الإجماع على أن ترتيب الآيات في السور كان بتوقيف من النبي ﷺ عن جبريل عن رب العزة جل جلاله .

فبعض العلماء رأى أن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة ، ومن هؤلاء : مالك وابن فارس . ويستدلون على ذلك بالاختلاف في ترتيب السور في مصاحف السلف : فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف عليّ الذي كان أوله " اقرأ " ، ثم البواقي على ترتيب نزول المكي ثم المدني . وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ، ثم النساء ثم آل عمران ، وكذلك كان مصحف أبي بن كعب وغيره رضي الله عنهم .

وآخرون من العلماء قالوا : إن ترتيب السور في المصحف توقيفي ، ومنهم القاضي أبو بكر الباقلاني في أحد قوليه ، فترتيب السور في المصحف كترتيب الآيات في السور كله توقيفي كان عن النبي ﷺ ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن ، ويؤيد ذلك الكرماني والبيهقي وأبو جعفر النحاس المتوفى عام (٣٣٩هـ) وابن حجر وسواهم .

والمصاحف التي وقع فيها الاختلاف في ترتيب السور هي مصحف أبيّ وابن مسعود ، فكلاهما قدم فيه السور الطوال ، ثم السور المثاني ، ثم المفصل كمصحف عثمان رضي الله عنهم ، وإنما اختلفوا في ترتيب سور كل قسم من هذه الأقسام .

ويرجح السيوطي الرأي القائل بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي عن النبي ﷺ عن جبريل عن رب العزة جل جلاله .

ومما يدل على ذلك توالي الحواميم ، وتوالي السور المبدوءة بـ (الَر) .

وليس هنا - كما يقول السيوطي - شئ أعارض به سوى اختلاف مصحف أبيّ بن كعب ومصحف ابن مسعود رضي الله عنهما ، ولو كان الترتيب توقيفاً لما وقع في هذين المصحفين اختلاف ؟!.

ويجيب السيوطي عن هذا الاعتراض : أن الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرضة الأخيرة ولم يبلغ ذلك ابن مسعود ولا أبي بن كعب رضي الله عنهما كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني .

فترتيب كل المصاحف إذن ـ توقيف واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية المنسوخات . ولم يبلغ النسخ هؤلاء الأعلام من الصحابة ، ومما وقع فيه النسخ دعاء القنوت في الوتر ، وهو : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق (٣:٨٥ الإتقان للسيوطي) .

ومما تقدم نعلم يقينيا أن ترتيب الآيات في السور توقيفي بالإجماع وأن ترتيب السور في المصحف الأرجح أنه توقيفي كذلك .

(٤)

ويذكر السيوطي في كتابه وجوهاً من وجوه اتصال كل سورة بما قبلها ، ومن هذه الوجوه :

١ - اتحاد الفواتح كالحواميم والّر .

٢ - موافقة آخر السورة لأول السورة بعدها . وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيعة أنه سئل : لم قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال : قُدِّمتا أُلِّف القرآن على علم ممن ألَّفه ، وقد اجتمعوا على علمهم بذلك فهذا مما يُنتَهى إليه ولا يُسأل عنه (١/ ٥٢ القرطبي) .

ويتحدث السيوطي عن الصلة بين سورتي الضحى ، وألم نشرح .. ليقول :

" ألم نشرح " شديدة الاتصال بسورة " الضحى " ، وقد ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما ، وفي حديث الإسراء : أن الله تعالى قال : " **يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أُذكَرُ إلا ذُكِرْتَ** " .

الحديث أخرجه ابن أبي حاتم . وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى ، والله أعلم .

(١) الجامع الصغير وزيادته / الرقم : (١٨٧٣) .

فواتح
سور القرآن الكريم
لابن أبي الأصبع المصري
(٦٥٤هـ)

(١)

موضوع " أسرار فواتح القرآن الكريم " شغل أذهان العلماء قديماً وحديثاً ، وكُتبتْ فيه بعض المؤلفات في العصور المختلفة ، ولا يزال موضع حديث حتى اليوم ، لأنه موضوع خطير ، يتصل بكتاب الله العزيز ، وحوله تدور الآراء والأحاديث ومحاولات الفهم والتحديد والاستقصاء ، ولابن أبي الأصبع المصري المتوفى عام ٦٥٤هـ كتاب في ذلك الموضوع ، سيكون موضوع حديثنا في هذه الصفحات .

إن الآراء في معاني ابتداءات - أو فواتح - سور كتاب الله الكريم عديدة ، والاختلافات حولها كثيرة لا تكاد تحصى . وهذه الابتداءات أو الفواتح واردة في تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم ، فنحن نقرأ : ألم - المر - المص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمعسق - حم - ص - ق - ن - طه - الر .. وهي كلمات مكونة من بعض الحروف الهجائية ، وتقرأ هذه الكلمات بقراءة حروفها الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فمثل " الم " تقرأ هكذا : الف - لام - ميم . والحروف التي كررت في هذه الفواتح هي أربعة عشر حرفاً من حروف الهجاء في سورها البالغة تسعاً وعشرين كلها من السور المكية ما عدا البقرة وآل عمران فهي من السور المدنية ، ومجموع هذه الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفاً .

فما معنى البدء في بعض السور القرآنية بهذه الحروف المفردة أو المركبة المعربة أو المعجمة ؟ .

كتبتُ منذ سنوات طوال أقول : إن الله عز وجل يريد بذلك التنويه باللغة العربية التي هذه بعض حروفها ، والإشارة من وراء ذلك بالقرآن الكريم كتاب العربية الخالد ، الذي تلك بعض آياته ، وكأنه عز وجل يقول للناس : هذه هي اللغة العربية لغة البلاغة ، وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز ، وكتاب العربية المبين ، والصلة بين العربية والقرآن العزيز ، مما لا يجهلها إنسان ، فقد نزل القرآن باللغة العربية ، وجاء في أعلى درجاتها بلاغة ، نزل على محمد ﷺ النبيِّ العربي ، وتحدَّى به بلغاء العرب أولاً ، وبلغاء الأمم جميعاً في كل العصور والأجيال ثانياً . فخروا عاجزين في مجال التحدي ، ولا يزالون عاجزين حتى اليوم وإلى يوم الدين ، القرآن نزل بالعربية ، لأنها هي أكمل لغة لدى البشرية ، يليق أن ينزل بها الكتاب المعجز ، الذي آخى بين البشر في الإيمان ، وجعل لا فضل لعربي على عجميٍّ إلا بالتقوى .

ورأى الزمخشري(٥٣٨هـ) في تفسيره " الكشاف " أن هذه الفواتح تشير إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي تنطقون بها في كلامكم ، فالقرآن ليس إلا منها ، وأنتم قادرون عليها ، عارفون بها ، فهاتوا مثله ، إن كنتم قادرين ، وإلا فلم كان عجزكم ؟ وبهذا الرأي أشار المبرد والفراء والكثير من العلماء بعدهما من قبل الزمخشري .

ويذهب كثير من العلماء إلى الوقوف في فهم ذلك والصمت عن الكلام فيه ، فهو مما استأثر الله عز وجل بعلمه ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : " لله في كل كتاب سر ، وسره في القرآن أوائل السور [١] " ، ويروى عن علي رضي الله عنه : " إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي " ، ويقول الشعبي (ت ١٠٦هـ) إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونَكِلُ العلم فيها إلى الله عز وجل [٢] ، وسار على ذلك أبو بكر الأنباري [٣] .

ومن العلماء من رأى أن هذه الفواتح أسماء للسور ، وهذا رأي زيد بن أسلم وابن قتيبة [٤] ، وقيل إنها أسماء لله عز وجل [٥] ، وقيل : إنها أسماء للنبي ﷺ [٦] ، وقيل : إن هذه الحروف جيء بها للتنبيه وإثارة العجب [٧] .

ورأى الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير " المنار " أن هذه الفواتح إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي تتكلمون بها ، وذلك للتدليل على إعجازه ، وهذا هو رأي الزمخشري والبيضاوي ، أو بإشارة إلى أن هذه الحروف أشير بها للتنبيه .

ورأى مالك بن نبي التسليم بالعجز عن إدراك معاني هذه الفواتح (٨) .

ويرى المستشرق " لوت " أن هذه الفواتح ترجع إلى تأثير أجنبي يهودي (٩)، وهذا كذب وتضليل ، وهذا المستشرق يهودي متعصب ليهوديته .

ويرى " نولدكه " الهولندي أنها رمز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين ، وليست من القرآن في شيء (١٠) ، وهذا كلام شعوذة وجهل .

ويرى مستشرق آخر هو " اسبرانجيز " أنها تعرف بقلبها لتكون رمزاً لأشياء معروفة وهو كلام فارغ(١١)

ويرى " بوير " أنها ترتبط بموضوع السور التي جاءت في ابتداءاتها (١١).

وفضل المستشرق " بلاشير " أنها اختصارات لأسماء الله تعالى (١٢) .

ويرى مولانا محمد علي الهندي أن لهذه الحروف قيماً عددية ، وأنها مرتبطة بأحداث الأعوام التي نزل فيها كتاب الله عز وجل (١٣) .

ويذكر د. زكي مبارك في كتابه النثر الفني أن المسيو " بلانشو " عرض عليه تأويلاً جديراً بالدرس والتحقيق ، ففي رأيه أن الحروف " الم ـ الر ـ حم ـ طسم ـ وأشباهها " ليست إلا إشارات وبيانات ورموزاً موسيقية يتبعها المرتلون " النثر الفني ، ص ١٣٠ ـ ١٣٤ " من كتاب " عن القرآن لمحمد صبيح " .

ويبدي زكي مبارك تحفظه على هذا الرأي الغريب ونحن لا نوافق عليه ، فإن القرآن في بلاغته غني بموسيقى نظمه ، ولا حاجة لإعجازه بمثل هذه الفواتح ما دامت لا تحمل إلا تنبيهاً على موسيقى بلاغة القرآن التفاتاً إليه ، ورمزاً لإعجازه .

وذهب باحث مشعوذ في كتابه " الهيروغليفية تفسير للقرآن الكريم " أن الحروف التي تبتدئ بها بعض السور هي حروف أو كلمات هيروغليفية ، وأخذ يجتهد في بيان معان لها قد تتفق وموضوع السورة ، وقد فند رأي هذا المشعوذ العديد من الباحثين ، من بينهم الدكتور محمد فتحي الريس ـ أستاذ الفارسية بآداب القاهرة سابقاً ـ ، والدكتور حسن إسماعيل عبد الرازق ـ أستاذ بكلية اللغة العربية بالزقازيق ـ وغيرهما ، وقد ورط هذا المشعوذ شخصيات علمية كبيرة في موضوع هيروغليفيته توريطاً عجيباً .

(٢)

ولكن ما هو إذاً الكتاب الذي نكتب له وعنه هذه الكلمات إذن ؟

أقول : إن الكتاب هو " الخواطر السوانح في أسرار الفواتح " لابن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤هـ) صاحب الكتب الذائعة : بديع القرآن ـ تحرير التحبير* وغيرهما ، وقد عثر عليه المحقق الكبير المرحوم الأستاذ الدكتور حفني محمد شرف ـ رحمه الله تعالى ـ ، فحققه وكتب مقدمات ضافية له وعلق عليه ونشره ليسد به فراغاً حول موضوع فواتح سور القرآن الكريم .

ومقدمات الدكتور المحقق عن فواتح السور القرآنية غنية بالبحث والمراجع والاجتهادات العلمية الصائبة .

ويقول الدكتور حفني محمد شرف في مقدماته : لقد فكر المؤلف ـ ابن أبي الأصبع ـ أن يكتب عن بلاغة القرآن ، ثم صرفه عن ذلك ما هو أهم في نظره ، لأنه وجد هذا الأهم يحصل به غرضه الذي قصده من تقرير الإعجاز ، فألف هذا الكتاب في البحث عن فواتح السور ، لأنها تنظم إعجازاً يحصل به الاستدلال القاطع[١٤] . ويلخص المحقق موضوعات الكتاب على ثلاثة أركان ، كل ركن منها يتضمن بابين .

تكلم في الركن الأول عن حصر الفواتح وأقسامها ، وفي الباب الثاني تكلم عن الفواتح المعربة .

أما الركن الثاني فيكشف فيه عن أسرار هذه الفواتح وإيضاح خصائصها وإظهارها : ففي الباب الأول منه يكشف عن أسرار الفواتح المعجمة ، وفي الباب الثاني كشف عن أسرار المعربة ومعانيها .

أما الركن الثالث فقد أبان فيه عن دلالة تلك الفواتح على الصانع والمصنوعات ، وما يتنخل من ذلك من المعجزات المعجِّزات للبلغاء في كل زمان ومكان ، ففي الباب الأول منه تكلم عن الاستدلال بها على الصانع والمصنوعات ، وفي الباب الثاني منه استنبط منها المعجزات المعجِّزات(١٤).

ويقول المحقق أيضا : أنا أمام بحث فريد في نوعه يكشف فيه مؤلفه عن أسرار فواتح السور القرآنية ومعانيها (١٥) .

(٣)

لقد تناول ابن أبي الأصبع فواتح السور القرآنية المعجمة والمعربة بالتحليل والتفسير ، فبين عددها وأقسامها وأصولها من الحروف ، واشتمال المعجم منها على حروف المعجم في النطق وإن كانت تتضمن أربعة عشر حرفاً في الخط ، وبين سبب اقتصار الفواتح المعجمة على تسع وعشرين فاتحة ، رابطاً ذلك بمنازل القمر ، ويرى أن المعجمة أصل المعربة ، وأن أولها " الم " القمر ، وأول المعربة " الحمد " أم الكتاب ، وكلا السورتين مفتتحة بالألف ، وأن الألف تشير إلى اسم من أسماء الله تعالى .

وكما يقول ابن أبي الأصبع إن الفواتح المكونة من حرف واحد قسم ، ولذلك كان ما بعدها مجروراً بالقسم ، وهو معطوف عليها ، وحكم المعطوف على شيء في الإعراب حكم ذلك الشيء ، فإنه قال : (**ق* والقرآن المجيد**) ، فعطف القرآنَ مجروراً على لفظة " ق" ولا معنى لجره إلا القسم ، فدلَّ على أن لفظة

" ق " قسمٌ ، وكذلك : (**ص * والقرآن ذي الذكر**) ، ومثلها (**ن * والقلم**) ، فيكون المعنى أن الله تعالى أقسم بأسمائه التي أشار إليها ، وكذلك "ص" ولها من العدد تسعون ، وهي تدل على أمور العالم ، و "ن " ولها من العدد خمسون ، وهي تدل على المصنوعات . ويستنتج ابن أبي الأصبع من ذلك أن بعض الفواتح بصورها وحروفها والعدد الذي يخصها تشير إلى الصانع والمصنوعات من جميع أحوال الدنيا والآخرة ، وعوالمها ، وكل موجود فيهما الآن ، وما وجد من قديم الزمن ، وما يوجد بعد فناء الأكوان .. والبعض الآخر من هذه الفواتح قسمٌ أقسم الله تعالى به ، وفيها إشارات إلى معان ، أو إلى أعداد تدل على هذه المعاني ، وقارن هذه الإشارات التي تقيدها هذه الفواتح بما يماثلها من كلام الشعراء والبلغاء ، وأثبتت البلاغة للقرآن في فواتحه وإعجازه وإشاراته .

ويقول ابن أبي الأصبع في مقدمة كتابه " الخواطر السوانح في أسرار الفواتح " بعد حمد الله والثناء عليه : " لَمَّا أظلني شهر رمضان المعظم رغبت في أن أشتغل بما يشغلني عن الرفث ، ويلهيني عن الدنس ، ففكرت في فصاحة القرآن العزيز وبلاغته ، وجوامع كلمه وفوائده ، وغرابة أسلوبه ونظمه ، وعجائب معانيه وبديعه ، وعذوبة ألفاظه ، وسهولة تأليفه ، وحلاوة موقعه ، وطلاوة رونقه ، وتمكين مقاطعه ، وبراعة فواصله ، وكثرة عجائبه ، وأن كل من أَلَّف في إعجازه تأليفاً ، أو صنَّف في بلاغته تصنيفاً ، لم توفِ عبارته بوصفه ، ولم تقم ألفاظه بتأدية معاني نعته ، ولا ذهب في استخراج الإعجاز وتقديره مذهباً تقوم به الحجة عند تحريره ، فاستخرت الله تعالى واستعنت به على بلوغ جميع الآراب .

ويلم ابن أبي الأصبع في كتابه ببعض ألوان البديع ويأتي بمُثُل لها ويقارنها بمثل من كتاب الله المعجز ، من إشارة وإرداف وتمثيل بمنهج ناقد متميز ، وأريب متذوق ، مفطور على البلاغة .

ويقول[١٥] : ولا يظن ظانٌّ أن هذه الأبواب ـ الألوان ـ تحدث للصور الكلامية حسناً بمجردها ، أو تزيل عنها قبحاً ، فإنا نجد الصور من الكلام حسنة بدون البديع بتة ، قبيحة مع وجود كثير من أنواع البديع فيها ، لأن الحسن في

الكلام والقبح أمر خارج عن البديع جملة ، وأكثر ما يكون من جهة التركيب بعد صحة المعنى ودلالة اللفظ عليه .. إلخ .

وبعد ، فإن كتاب ابن أبي الأصبع دليل علم وفضل وأدب ونقد وتذوق ، مما لا مثيل له بين أساطين البلغاء والعلماء والمؤلفين ، وبخاصة ممن كتبوا في فواتح سور القرآن الكريم .

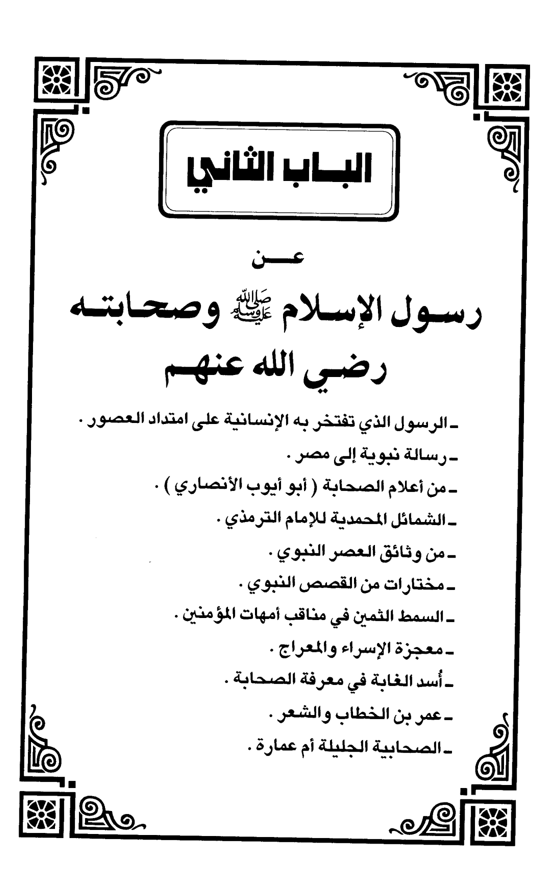
وإنني لا أرتضي مذهب ابن أبي الأصبع في جعل مدلول الحروف الرقمية العددية ذا مدخل في فهم أسرار إعجاز هذه الفواتح وبلاغتها(١٦) .

والله الموفق والمستعان

---

١ - ص : ١/ ١٥٤ مفاتيح الغيب ، ص : ١/ ١٥٤ الجامع لأحكام القرآن .
٢ - ص :١/ ١٧٣ البرهان في علوم القرآن للزركشي .
٣ - ص : ١/ ١٥٤ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ط دار الكتب المصرية .
٤ - راجع ص : ٢٣١ تأويل مشكل القرآن .
٥ - راجع ص : ٢/ ١١ الإتقان للسيوطي - ط مصر ١٢٧٩هـ ، ص : ١/ ١٥٦ مفاتيح الإتقان .
٦ - ص :٢/ ١١ الإتقان .
٧ - ص :١/ ١٥٦ مفاتيح الغيب .
٨ - ص :٥٢ الخواطر السوانح لابن أبي الأصبع نقلا عن مالك ابن نبي للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٧١ .
٩ - ص :٥٣ الخواطر السوانح نقلا عن الدكتور محمد غلاب في كتابه " هذا هو الإسلام " ص ١٠٦ _ ١١٠ " كتاب الشعب رقم ٦٥ " .
١٠ - ص :٥٣،٥٤ الخواطر السوانح .
١١ - ص :٥٥ المرجع نفسه .
١٢ - ص :٥٨_٦٢ المرجع نفسه أيضا .
١٣ - ص :٢،٣ المرجع تفسه ، وص ٧٤ من الخواطر أيضا .
١٤ - ص :٢ المرجع نفسه .
١٥ - ص : ١١٦،١١٧ المرجع نفسه .
* يشير ابن أبي الأصبع إلى كتاب نقدي له اسمه " الميزان " ناقش فيه آراء ابن قدامة النقدية وآراء خصومه ورجح فيه الرأي الذي ارتضاه (ص ١١٤ الخواطر السوانح) .
(١٦) تعقيب من الناشر :
نرى أن هذه الفواتح للسور هي من أمر الغيب ، حيث لم يأت تفسير لها من عند الله أو من عند رسول الله ﷺ ، والآراء التي وردت حولها اجتهادات ظنية ليس معها حجة من الكتاب أو السنة . ونؤثر أن نعتبرها آية من آيات الله اختص الله بعلمها ، ولم ينشغل الصحابة بها وإنما شغلوا بتدبر القرآن وممارسته . واليوم شغل المسلمون بكثير من مثل هذه دون وجود حاجة إليها ، وقصروا كثيراً في تدبر الكتاب والسنة وممارستهما الإيمانية في الواقع لإصلاح حال الأمة وإخراجها من الهوان الذي هي فيه (الناشر) .





الباب الثاني

عـــن

رسـول الإسـلام ﷺ وصحـابتـه رضـي الله عنهـم

- الرسول الذي تفتخر به الإنسانية على امتداد العصور .
- رسالة نبوية إلى مصر .
- من أعلام الصحابة (أبو أيوب الأنصاري) .
- الشمائل المحمدية للإمام الترمذي .
- من وثائق العصر النبوي .
- مختارات من القصص النبوي .
- السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين .
- معجزة الإسراء والمعراج .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة .
- عمر بن الخطاب والشعر .
- الصحابية الجليلة أم عمارة .



الرسول ﷺ
الذي تفتخر به الإنسانية على امتداد العصور

إنها عظمة التاريخ ! إنها عظمة الذات ! وإنها عظمة الله تعالى ، يهب جانباً منها لمن اصطفاه من خلقه - وخصه برسالته - بل بأعظم رسالات السماء إلى الأرض - وإلى الدنيا كافة - وإلى الخلق أجمعين .

وهل أتاك حديث راعي الغنم الصغير اليتيم - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد مناف ؟ الذي رعى الغنم - ثم رعى بعدها الإنسانية كلها والدنيا بأسرها والشعوب كافة منذ أن بعثه الله برسالته إلى اليوم وإلى ما بعد هذا اليوم وحتى تقوم الساعة .

إنه هذا الراعي المتألق الوجه ، المبتسم الثغر ، المضيء الأسارير ، الذي أورثه نسبه حسباً على حسب ، وشرفاً على شرف ، وعزة فوق عزة ، والذي فقد حنان الأب ، ولكنه لم يفقد الشخصية حتى في يتمه ، وحتى مع صغر سنه ، بل ازداد جلالاً فوق جلال ، وعاش رجلاً في ثياب طفل يفخر به الأطفال والرجال جميعاً .

هل أتاك حديث هذا الراعي الصغير ، يرعى قطيعاً من الغنم في صحارى مكة ووديانها - والعصا على كتفيه ، والبشر في وجهه ، والسماء قبلته ، والله جل جلاله في قلبه وروحه ووجدانه وأعماق مشاعره ، هو نشيده وتسبيحه وابتهالاته ونجواه ؟

الدنيا كلها من حوله ترنو إليه ، والملأ الأعلى يحوطه بالرعاية ، والسماء تضيء شعاب قلبه وروحه .

يا لعظمة الراعي ، ويا لجلال الطفولة ، ويا لروعة الإنسان - ويا لعبقرية الشخصية محمد بن عبد الله ﷺ الذي عاش في ديار بني سعد نحو أربع سنوات في بيت مرضعته حليمة السعدية ، ثم عاد إلى مكة ، وإلى والدته السيدة آمنة ،

وإلى رعاية جده عبد المطلب تشمله عين الله والذكريات والأحساب والعراقة بالرعاية والمجد والجلال ، وتحوطه عناية الخالق القادر بالعزة من كل جانب .

وتموت أمه وهو في السادسة من عمره بالأبواء بين مكة والمدينة ، ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جده عبد المطلب نحو عام ٥٧٩م ، وتولى رعايته بعده عمه أبو طالب ، وحين بلغ العاشرة من عمره كان قد تفتح شبابه ، واستقام عوده ، ولاحت عليه مخايل الرجولة المبكرة الخالدة ، فأخذ يسير في طريق الجد والعمل . وحين أراد أقرانه أن يسمروا ذات ليلة وأن يأخذوه معهم أخذه سبات طويل .

ويقول ﷺ : " لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان . كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة . فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة شديدة ، وقال شدَّ عليك إزارك " .

إنها تربية السماء وعين الله ترعاه :

ويقول ابن الجوزي : كان رسول الله ﷺ ، في زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت إليها ، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها - ويعيبها - (الوفا ١/ ١٣٨) .

وعن عباس [1] عن أم أيمن رضي الله عنها قالت : كان " بوانة " صَنَماً يحضره قريش يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه - فيأبى - حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشَّد الغضب . وجعلن يقلن يا محمد إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، فلم يزالوا حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً ، فقالت عماته : ما دهاك ؟؟ - قال : إني أخشى أن يكون بي لمم ، فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟! قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل

لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم .

ويقول الدكتور رؤوف شلبي في كتابه " بشائر النبوة " ص ٢٣٨ نقلاً عن كتاب " محمد المثل الكامل " لمحمد جاد المولى ص ١٢ وهو ما ذكره صاحب كتاب " الوفا " ـ ج١ ص ١٣٩ " : " لم يكن محمد ﷺ في نشأته جارياً على المألوف في الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون في بيئتهم ، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته ، فنشأ على أكمل ما تتحلىٰ به النفوس من جميل الصفات " .

كان ﷺ في طفولته إنساناً كبير العقل ، رزين الشخصية ، عظيماً في سلوكه ، ينشد الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام ، ويمشي على نهجها . كان مُعداً لرسالة عظمى يبلِّغها قومه والناس أجمعين .

رحلته مع التفكير والتأمل :

في هذه السن المبكرة بدأت رحلته مع رعي الأغنام ومع التأمل ، ومع جَوْبِ الصحراء ، ومع التفكير العميق .

رعي الغنم مهمة يسيرة عسيرة ، وعمل شاق سهل ومسؤولية كبيرة غير كبيرة ، ولكنه تربية ومدرسة من مدارس الحياة ، وتهذيب للنفس وتعويد لها تحمُّل الأمانة ، والنهوض بالمسؤولية ، والتفكير بعقل الإنسان المسؤول عن حياته ، الذي يحمل على كاهله أعباء الراعي الأمين ، والإنسان المسؤول ، ورجل المهمة الصعبة .

هل كان رعي الرسول الأكرم ﷺ للغنم عن فقر ؟؟ لا أجد سنداً لذلك ، ولكنه كان حباً في استقلال الشخصية ، وتعوّد المسؤولية ، والحياة مع الطبيعة والكون والوجود ، وكان كذلك نشداناً للسعادة الروحية .

يقول رسول الله ﷺ : ما من نبي من الأنبياء إلا رعى الغنم ـ فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة [٢] .

ورعي الغنم ليس عمل مهانة وخضوع وفقدان شخصية ، بل إنه بعكس ذلك تماماً ـ تربية للشخصية ، وإعزاز لها .

قال السهيلي في " الروض الأنف " : وإنما جعل الله هذا في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ـ ولتكون الأمم رعاياهم (٣) .

وقال ابن عقيل : لما كان الراعي يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر ـ وكان الأنبياء معدين لإصلاح الأمم حسن هذا في حقهم (٤) .

مكة مجتمع الصفوة من الأغنياء .

لقد كان مجتمع مكة آنذاك ـ أي في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي ـ مجتمع الصفوة من الأغنياء والمترفين والتجار الذين يعملون في الرحلات التجارية بين مكة والشام واليمن ويبيعون ويشترون ، وتتدفق عليهم الأموال والأرباح من كل جانب .

وكانت الحياة في هذا المجتمع تورث الإنسان السآمة والملل من الترف الذي يعيشه الأبناء ـ ويعيشه معهم الآباء جميعاً ! وكان الفرار منه إلى الحياة الطلقة الهادئة البسيطة إنقاذاً كبيراً للنفس الإنسانية حتى لا تلوثها المادة بكل رغباتها وتطلعاتها الجامحة ـ وكان ذلك طلباً للطمأنينة والسعادة والراحة النفسية العميقة .

وكما رعى رسول الله ﷺ الغنم في ديار بني سعد طفلاً صغيراً رعاها في مكة طفلاً كبيراً .

وكان الرسول الأكرم ـ أو قل كان الطفل الشاب الرجل ـ محمد بن عبد الله ﷺ يجد في رعي الغنم متعة وأية متعة ، فهو يصله بالسماء وبالله ، وبالكون العظيم وهو يحرر فكره من الجمود ، ويحرر عقله من التقليد ، ويحرر حياته من التبعية .

وانظر إلى خبر صغير نشرته " أخبار اليوم " الصادرة في ١٠ من مايو

١٩٩٧م ، يقول هذا الخبر الذي جاء بعنوان " السعادة في رعي الغنم " : يلجأ الكثير من الشباب الألمانيين إلى عالم الأحلام - مديرين ظهورهم لعالم الواقع - على أمل العودة إلى الحياة البسيطة في رعي الأغنام - إذا ما أخفق الواحد منهم في قصة حب ، أو أصابه السأم من السباق المحموم على الدرجات العلمية في الجامعة - وتقول ماريا إيبر سبرجر ، وهي زوجة لراعي غنم يدعى إيبر سبرجر : إنها تتلقى مكالمات هاتفية كثيرة من طلاب أصابتهم الحياة العصرية بالتوتر - برغبتهم في الفرار منها إلى حياة رُعاة الغنم البسيطة التي لا تحتاج إلا إلى كلب أمين ، وقطيع مِن الأغنام " .

وإن هذا الشعور من الشباب اليوم هو شعور الشباب بالأمس ، شباب مكة الملولين من حياة الترف والمادة التي يعيش فيها أشراف مكة من قريش وأبناؤهم وبيوتهم ، والراغبين في الحياة مع الطبيعة ببساطتها واكتفائها بالضروريات من أمور العيش .

ووجد الشباب من الأنبياء والمرسلين في رعي الغنم تجديداً لنفوسهم وأرواحهم ، ولصلتهم بالله الأعلى ، وبالسماء وروحانيتها ، وبالكون المملوء بأسرار الله ومعجزاته وجلاله وآثار قدرته .

ووجد رسول الله ﷺ في رحلته مع قطعان الغنم يرعاها في شعاب مكة صلة وثيقة له بالله وبالإيمان وبشريعة التوحيد - شريعة جدِّه إبراهيم ، وجدِّه الأوفى إسماعيل عليهم السلام .

يا لمجد هذه الشعاب الطاهرة التي مشى فيها سيد الأنبياء في أوائل سن شبابه يرعى الغنم - يذود عنها الذئاب والكلاب الضالة ، يقودها إلى نبات الكلأ والعشب ، ويحوطها بمنسأته الحنون بالرعاية والتدبير .

الشعاب الجدباء تحولت إلى مراع ترعى فيها قطعان الغنم التي يرعاها ابن عبد

الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ـ والأغنام العجاف صارت برعايته لها وجدِّه عليها، سماناً مكتنزة باللحم والشحم. ونفس محمد ﷺ تتألق في جوانبها أضواء الإيمان والطهر والتوحيد والطمأنينة والسكينة والابتهال والمناجاة للخالق العظيم.

لقد أسلم وجهه لله عز وجل في كل أطوار حياته:

وحين شب محمد ﷺ وبلغ من القوة مبلغه رأيناه وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره يخرج مع عمه أبي طالب في قوافل قريش التجارية إلى الشام ـ فاتسعت رحلته من شعاب مكة إلى أرض الشام ـ ومدن " بُصرى " وتبوك وغيرهما، ثم وهو يعمل في قوافل التجارة مستقلاً يتاجر في مال خديجة سيدة نساء قريش. ومحمد ﷺ في ذلك أيضاً يحمل المسؤولية ـ ويتأمل الكون العظيم ـ ويفكر بعقله:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾ [لقمان: ١١]، وكان ذلك كله وَصْلاً له بفكر التوحيد ـ وإخلاص النفس لله وحده لا شريك له، ولا إله سواه.

ولقد أسلم محمد ﷺ في كل أطوار حياته ـ وجهه لله عز وجل، وأيقن أن التوحيد ـ الذي هو رسالة جده الأعلى إبراهيم عليه السلام، يجب أن يعود إلى الأرض، وأن الإيمان هو سر سعادة الإنسان، وهو الدواء لكل أمراض الإنسانية، وهو البلسم الشافي لكل أدواء المجتمعات البدوية والمتحضرة معاً على السواء.

وفي البيان الأول الذي ألقاه رسول الله ﷺ على قومه في مكة برسالته إلى الناس كافة ـ بعد أن أمره الله عز وجل بأن ينذر قومه، ويبلغهم رسالة الله بقوله عز وجل ﴿قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾ [المدثر: ٢] (وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: ٢١٤]. [فخرج ﷺ إلى الصفا، ونادى عشائر قريش بطناً بطناً ـ

فلما اجتمعوا بدأهم بالحديث عمّا يقرّون جميعاً به ، وأنهم يصفونه أمس واليوم بالصادق الأمين ـ فقال لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً ـ فقال لهم : إني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم ـ فرد عليه عمه عبد العزى " أبو لهب " : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ وانصرفوا عنه ـ فنزلت في إثر ذلك سورة المسد .

أقول : في هذا البيان الأول من رسالة محمد ﷺ ، نداء لقريش بالإيمان بالله وتوحيده وبالكفر بآلهتهم من الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون الله ، والرجوع إلى الله ، والخوف من عذابه الشديد ، وكان (حريصاً على إيمان الناس جميعاً بالله ، وعلى إقرارهم بتوحيده وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد .

وفي حديثه ﷺ مع عمرو بن عنبسة السلمي (٥) ما يكشف لنا عن دعوته ورسالته ، وكان عمرو ، كما يقص علينا صاحب " السيرة الحلبية " ، قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، فلقى رجلاً من أهل تيماء من أهل الكتاب ـ فقال له : إني امرؤ مكروه ممن يعبدون الحجارة ، فقال له : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها فاتَّبِعْه فإنه يأتي بأفضل الدين .

ويقول السلمي : فلم يكن لي همة منذ قال ذلك إلا مكة آتي فأسأل : هل حدث حدث ؟؟ فيُقال لي : لا . ثم قدمت مرة فسألت ـ فقيل لي حدث ، رجل يرغب عن آلهة قومه ـ ويدعو إلى غيرها .

فشددت له راحلتي ـ ثم قدمت المنزل الذي كنت أنزله في مكة ـ فسألت عنه ـ فوجدته مستخفياً ووجدتُ قريش عليه أشداء ـ فتلطفتُ له حتى دخلت عليه فسألته :

- أي شيء أنت ؟

- قال : نبي .

- قلت : من نبأك ؟

- قال : الله .

- قلت : وبم أرسلك ؟

- قال : بعبادة الله وحده لا شريك له - وبكسر الأوثان - وصلة الرحم - وأمان السبيل .

- فقلت : نعْمَ ما أرسلت به ، قد آمنت بك وصدقتك ، أتأمرني أن أمكث معك أو أنصرفَ ؟

- فقال : ألا ترى كراهية الناس ما جئت به ، فلا تستطيع أن تمكث - كنْ في أهلك - فإذا سمعت بي قد خرجت مخرجاً فاتبعني .

فكنت في أهلي حتى خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة فسرت إليه ، فقدمت المدينة فقلت : يا نبي الله : أتعرفني .

- قال : نعم - أنت السلمي الذي أتيتني في مكة (٦) .

وجاهد رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ، ثم في المدينة عشر سنوات ، حتى بلَّغ دين الله ورسالته إلى الناس كافة ، وإلى الأمم جميعاً ، وبنى دولة الإسلام في الجزيرة العربية التي امتدت حتى شملت أرجاء الدنيا بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ بقليل ، وترك رسول الله ﷺ من ورائه كتاب الله وسنة رسوله ، وفيهما كل قيم الإسلام وأصول دعوته وهذه الأصول تتركز فيما يلي :

١ - عبادة الله وحده لا شريك له .

٢ - الإقرار برسالة محمد ﷺ وأنها خاتمة الرسالات .

٣ - الإيمان بما شرَّعه الله عز وجل من عبادة له في الحياة كلها : من شعائر ، وطاعات وفضائل ، ومن معاملات وتشريعات للفرد وللأسرة وللمجتمع والأمة بل والإنسانية كافة .

٤ - تقرير حقوق الإنسان كاملة .

٥ - تقرير الشورى والعدل والحرية والمساواة لكل بني البشر يتفاضلون بالتقوى .

٦ - تحرير المجتمعات الإنسانية من الخوف والاستعباد والظلم ومن كل ألوان الزيف والضلال .

٧ - إعلان التعارف بين الناس والشعوب والأمم والأجناس كافة ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

٨ - الدعوة إلى العلم والمعرفة وإلى العمل وإلى الخير والبر والإحسان على أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

٩ - إحلال العقل منزلته العادلة كهاد للإنسان في ظلال وحي السماء .

١٠ - كتاب الله هو الدستور الخالد الدائم الصالح لكل زمان ومكان ، ولكل الشعوب والمجتمعات .

١١ - تنظيم الأسرة تنظيماً كاملاً لتكون هي نواة المجتمع الإسلامي الكبير .

١٢ - الإيمان بالغيب ، وبالبعث والنشور والحساب والجزاء .

أيها الراعي الكبير

راعي الغنم العظيم

لقد جئت بالرسالة ، بالمعجزة ، بالخير العميم لكل بني البشر .

وجئت بالنور الحكيم الذي أنزله الله عليك كتاباً منزلاً يحوي خيري الدنيا والآخرة .

وبنيت دولة لم تكن تغرب عنها الشمس . وأقمت أسس حضارة ستُظلُّ بظلها العالم كافة قروناً وأجيالاً . ونشرت السلام والإخاء في الأرض كافة

أيها الرسول الأمين

يا راعي الغنم العظيم

سلام عليك ، سلام عليك في الأولين والآخرين ، وسلام عليك إلى يوم الدين .

(١) ٢٣٩ بشائر النبوة الخاتمة - د. رؤوف شلبي - مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر .
(٢) ويروي أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ : " ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم - قال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط " والقراريط أجزاء من الدراهم أو الدنانير - وقيل هي لموضع (دلائل النبوة ٥٥ج١ - والسيرة الحلبية ١/ ١٥٠ - وفتح الباري ٥/ ٣٤٧) - والوفا ج١ ص١٤٢ .
(٣) الروض الأنف ١/ ١١٢
- وراجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ١٢٥ .
(٤) الوفا - ١/ ١٤٢ .
(٥) ص ٩٥ بشائر النبوة الخاتمة - د. رؤوف شلبي من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٨م .
(٦) بشائر النبوة الخاتمة - رؤوف شلبي - ص ٩٥ ، نقلاً - عن " السيرة الحلبية " ١/ ٢١٧ - في رواية مسلم ١/ ٥٦٩ - وفي رواية السيرة لابن كثير ١/ ٤٤٢ : عمرو بن عبسة بدلاً من عنبسة .
- وراجع مسند أحمد ٤/ ١١١ .
- والشيخ دحلان في سيرته : ويروى : عمرو بن عنبسة .

رسالـة نبويـة إلى مصـر

(١)

فمنذ العام السادس للهجرة (٦٢٨ م) أخذ رسول الله ﷺ يبعث برسائله من المدينة إلى ملوك العالم وأمرائه ، بدءاً بأمراء الجزيرة العربية ، يدعوهم فيها إلى دين الله ويحمّلهم أمانات المحكومين ، ومسؤوليتهم أمام الله وأمام شعوبهم . بعث رسول الله ﷺ إلى : كسرى وقيصر والنجاشي وحاكم مصر المقوقس من قبل قيصر إمبراطور بيزنطة .

والمقوقس باعتباره حاكماً وعظيماً والمسؤول الأول أمام الله عن الشعب ، هو البطريرك الذي عيّنه الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) حاكماً على مصر ، ويقيم في الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك في ظلال الحكم الروماني .

وكان له بحكم تلك السيادة على مصر كلِّها ، كما يذكر " بتلر " في كتابه " فتح العرب لمصر " ص ٤٤٤ ، وتطلق المصادر الأوروبية على المقوقس اسم "كيروس " أو " قيروس " ، ولا نعلم متى ولِّي المقوقس حكم مصر ، ويبدو أن ذلك كان في أوائل حكم هرقل . وقد ظل حاكماً عليها إلى سقوط الاسكندرية في أيدي المسلمين عام (٦٤٢م) .

وكانت مصر في ظلال الحكم الروماني ، الذي استمرَّ أكثر من ستة قرون تعيش في ظلال اضطهاد ديني ، واستبداد سياسي ، وفقر وحرمان ، وعدَّها الرومان مزرعة غلال لهم ، إلى انحطاط في التجارة ، وفي الزراعة ، وتناقص العمران في البلدان ، كما يقول مؤلفو كتاب " تاريخ العالم " .

وفي هذه الأوقات الأخيرة من انهيار الحضارة البيزنطية ، كانت مصر تُنْصتُ بانتباه شديد إلى أنباء الجزيرة العربية ، وبخاصة المدينة ومكة ، وتشهد شروق عصر الرسالة المحمدية الخالدة ، وتسمع أخبار الصراع الشديد بين رسول الله ﷺ ومشركي مكة . وكان اليهود في المدينة يستفتحون على الأوس والخزرج برسول

من الله قبل هجرته ومن قبل بعثته . فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا رسالته ، وائتمروا مع المشركين عليه . وأثناء ذلك كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية عنيفاً شديداً ، وانتصر الفرس انتصارات ساحقة في بدء هذا الصراع منذ تولي هرقل أمر بيزنطة عام (٦١٠م) ، حتى عام (٦١٦م) ، وفقد الروم إمبراطوريتهم على أيدي الفرس ، قبل الهجرة بست سنوات ، وفرح المشركون في مكة بالانتصار الفارسي لأنهم وثنيون مثلهم ، وحزن المسلمون حزناً شديداً لأن الرومان أصحاب كتاب ودين ، ونزل قوله تعالى :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾
[الروم: ٢، ٣]

وتحققت المعجزة ، وأخذت كفة الميزان تنقلب لصالح الروم رويداً رويداً ، حتى هزم هرقلُ الملكَ الفارسيَّ كسرى عام (٦٢٤م) في السنة الثانية للهجرة هزيمةً منكرة ، واقتحم الروم بلاد فارس ، وقبل ذلك انتصر العرب على الفرس في " ذي قار " .

وبعد صلح الحديبية (٦ هـ ـ ٦٢٨م) أخذت الرسائل النبوية تتوالى على ملوك العالم وأمرائه ، دعوة لدين الله ، وحرصاً على مستقبل الشعوب والحضارة والإنسانية .

(٢)

وهاهو ذا المقوقس في عاصمته الإسكندرية يطرق عليه حاجبه الباب ، ليخبره أن رسولاً من بني العرب بالباب ، يحمل رسالة إليه ، فأذن له .

ويدخل حاطب بن أبي بلتعة الصحابي " المتوفى عام ٣٠هـ " في وفد من المسلمين في عزة وجلال ، وألقوا على المقوقس تحية الإسلام ، وقدَّم حاطب إليه الرسالة النبوية ، ونصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم كل القبط : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتَّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون) . وختمت الرسالة بهذا التوقيع الجليل : " محمد رسول الله ﷺ " .

ذُهلَ المقوقس مما سمع ، وهو ممثل الإمبراطورية الرومانية في مصر ، وحوله مائتا ألف من الجنود ، وتحيط بعاصمته الأساطيل البحرية الجرارة . ولكن الأحداث السياسية من حوله دعته إلى مزيد من دهاء السياسي حيال هذه الرسالة ، قال المقوقس للرسول :

ـ أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبياً ؟!

ـ وردَّ حاطب : بلى ، وهو رسول الله .

ـ فقال المقوقس : فماله لم يَدْعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته ؟!

ـ وردَّ حاطب : فعيسى بن مريم ، أتشهد أنه رسول الله ؟!

ـ قال : نعم .

ـ قال حاطب : فماله لم يَدْعُ على قومه حيث أرادوا صلبه حتى رفعه الله!

ـ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكتب المقوقس رسالة إلى رسول الله ﷺ ردَّ بها عليه رداً حسناً ، وبعث مع حاطب فتاة مصرية اسمها مارية تزوجها فيما بعد رسول الله ﷺ ، وأصهر بها إلى شعب مصر ، كما بعث معه جارية أخرى وهي أخت لمارية اسمها سيرين ، تزوجها فيما بعد حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ إلى هدايا أخرى .

فالجاريتان من " حفن " من أعمال مدينة " أنصنا " الدائرة بصعيد مصر على ضفة النيل الشرقية تجاه " الأشمونين " وهي مدينة " أنطينوه " التي أسسها الإمبراطور الروماني " أوريان " (١١٧-١٢٨م) ، وقد سمَّاها المصريون " أفصلة " ، وسمَّاها العرب " أنصنا " . ومارية هي أمّ ابن رسول الله ﷺ إبراهيم ، [ذو الحجة ٨هـ ـ ٢٤ من شوال عام ١٠ هـ] .

وحمد المسلمون في المدينة لمصر ولعظيمها " المقوقس " حرصها على السلام ، وعلى الإيمان برسالات السماء .

وكان أثر هذه الرسالة على المشركين شديداً عنيفاً ، فرأينا ثقيفاً وهي محاصرة في الطائف بعد فتح مكة وغزوة حنين ، تبعث عام (٨هـ ـ ٦٣٠م) بوفد إلى المقوقس ، ردّاً على رسالة رسول الله ﷺ إليه ، واستنصاراً به في حربهم مع رسول الله ﷺ . ويروي ابن حجر في كتابه " الإصابة " أن المغيرة بن شعبة الثقفي ، كان على رأس هذا الوفد ، وكان المغيرة يتردد على مصر قبل ظهور الإسلام ، ويروي الذهبي في كتابه " تاريخ الإسلام : ٢/ ٢٤٧ " عن المغيرة قال : كنّا قوماً متمسكين بديننا ، ونحن سدنة اللات ، فأجمع نفر من بني مالك من ثقيف الوفود على المقوقس وإهداء الهدايا له ، فعزمت على الخروج معهم ، ودخلنا الإسكندرية ، فإذا المقوقس في مجلس على البحر ، فركبت زورقاً حتى حاذيت مجلسه ، فنظر إليّ ، فأنكرني ، وأمر من يسألني ، فأخبرته بأمرنا وقدومنا ، فأمر أن ننزل في الكنيسة ، وأجرى علينا ضيافة ، وسُرَّ بالهدايا ، وأعطانا الجوائز ، ودار حوار بين المقوقس وهذا الوفد ، قال لهم المقوقس : كيف خلصتم إليَّ ، ومحمد وأصحابه بيني وبينكم ؟!

قالوا : لصقنا بالبحر .

قال : فكيف صنعتم بما دعاكم إليه ؟

قالوا : ما تبعه منا رجل واحد .

قال : فكيف صنع قومه ؟ يريد قريشاً .

قالوا : تبعه أحداثهم ، وقد لاقاه من خالفه في مواطن كثيرة .

قال : وإلى ماذا يدعو ؟!

قالوا : إلى عبادة الله وحده ، وأن نخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعونا إلى الصلاة والزكاة ، ويأمرنا بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والربا والخمر .

فردَّ المقوقس : هذا نبي مرسل إلى الناس كافَّة .

فقالوا له : لو دخل الناس كلهم معه ، ما دخلنا معه .

فقال المقوقس : أنتم وما تحبون ، ماذا فعلت يهود يثرب ؟

قالوا : هم أولوا حد .

وكانت ثقيف تحمل راية الوثنية وتدافع عنها بعد فتح مكة ، ومضت أيام هذا الوفد في الإسكندرية دون أن تحقق شيئاً .

ويستمرُّ أثر الرسالة النبوية إلى المقوقس فاعلاً ، فنجد الخليفة أبا بكر رضي الله عنه يبعث بكعب بن عدي التنوخي ومعه رسالة إلى المقوقس في الإسكندرية . ثم يبعث به الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذلك برسالة إلى المقوقس عام ١٥هـ ـ ٦٣٨م ، فقُدم كعب على المقوقس بكتاب عمر بعد نصر اليرموك ، فسأله عن معركة اليرموك ونتائجها ، كما سأله عن أعلام الصحابة في المدينة ، وأخبره أن العباس عم رسول الله ﷺ حيٌّ ، وأنه من أكبر سلالة البيت الهاشمي .

وبعد ثلاث سنين من هذه الوفادة دخل كعب في جيش عمرو بن العاص لفتح مصر ، ويطوق جيش عمرو في شوال عام (١٩هـ) حصن بابليون ، وبعد مفاوضات بين رسل المقوقس ورسل عمرو وفي مقدمتهم كعب ، لم تصل إلى نتيجة ، سقط الحصن في الثاني من المحرم عام (٢٠هـ) .

ويظهر كعب بن عدي التنوخي هذا في مفاوضات تسليم الإسكندرية أيضاً ،

وهي المفاوضات التي دارت بين عمرو والمقوقس، والتي وقعها الطرفان في (١٧ سبتمبر ٦٤٢م)، وبذلك زالت السيادة الرومانية على مصر بعد ستة قرون (٣١ - ٦٤٢م) ... **ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله ربّ العالمين.**

مـن أعـلام الصحابـة

(أبو أيوب الأنصاري) رضي الله عنه

(١)

حدِّث ولا حرج ، عن هذا الصحابي الجليل ، وعن سيرته العطرة ، وبطولته النادرة ، وكفاحه الخالد من أجل الإسلام ودعوته الكبرى .

أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه : ويا له من مثل يُرْوى على َمرِّ الأجيال في التضحية والإيمان والجهاد في سبيل الله والإسلام . وماذا نعرف عن أبي أيوب الأنصاري؟

لقد كان أحد شهود بيعة العقبة الكبرى (١) ـ الثانية ـ عام ٥٢ لميلاد رسول الله ﷺ (٦٢١م) ، التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعهم امرأتان هما: نسيبة بنت كعب (أم عمارة) من بني النجار ، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة ، وكانوا قد قدموا من المدينة لشعيرة الحج وقد أسلموا جميعاً حين بلغهم أمر الإسلام ، على يديْ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف داعية الإسلام في المدينة رضي الله عنه ، بعثه رسول الله ﷺ وأمره أن يقرئ مسلمي المدينة القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، وأغلب مسلمي المدينة كانوا ممن أسلموا في بيعة العقبة الأولى ـ عام (٥١) للميلاد النبوي الشريف وبعدها ، ومصعب أول من صلى الجمعة بالمسلمين في المدينة ، هو وأسعد بن زرارة ، من بني النجار ، أخوال النبي ﷺ .

وبعد أن أشرق نور الإسلام ، في آفاق المدينة هاجر رسول الله ﷺ إليها ، في العام الثالث والخمسين لميلاده الشريف ، وأمْر الهجرة معروف ومشهور .

وفي صباح يوم الجمعة التاسع عشر من شهر ربيع الأول عام واحد للهجرة وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بعد أن أقام في قباء عشرة أيام مباركات .

ويروي بعض الصحابة فيقول : كنا نخرج إذا صلينا الصبح ننتظر رسول الله

ﷺ فو الله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت ، وكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته : هذا جدُّكم قد جاء ، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو في ظل نخلة، وأهل المدينة يقولون لرسول الله ﷺ ادخل المدينة راشداً مهدياً فدخلها ، وأهل المدينة ينظرون إليه وينشدون :

طلع البدر علينا	من ثنيَّات الوداعْ
وجَبَ الشّكْرُ علينا	ما دعا للّه داعْ

فقال له أشراف بني سالم بن عوف : يا رسول الله ، أقمْ عندنا في العدد ، والعدة ، والمنعة ، ورسول الله ﷺ على ناقته ، فقال ﷺ : " **خلوا سبيلها فإنَّها مأمورة** " ، يريد ناقته التي أمسكوا بزمامها .

فلما كان في دار بني بياضة تلقاه رجال منهم ، وقالوا له مثل ما قال الأولون ، فردَّ عليهم رسول الله ﷺ بمثل ما ردَّ على الأولين (٢) .

وعند دار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة في رجال من بني ساعدة ، فقالوا مثل ما قال غيرهم وردَّ عليهم رسول الله ﷺ بمثل ما ردَّ على من سبقوهم .

فلما وصل دار أخواله بني عدي من بني النجار وكانت أم عبد المطلب منهم ، وهي سلمى بنت عمرو اعترضه رجال منهم ، فقالوا : يا رسول الله هلمَّ إلى أخوالك ، إلى العدد والعُدد والمنعة ، فقال ﷺ : " **خلُّوا سبيلها فإنَّها مأمورة** " .

فلما وصل إلى دار مالك بن النجار بركت عند باب مسجده ﷺ وهو يومئذ سوق لأهل المدينة ، ثم قامت فسارت غير بعيد ، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت حيث بركت أولاً ، فبركت فيه حيث باب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه رحل رسول الله ﷺ فوضعه في بيته ونزل عليه رسول ﷺ(٣) .

وحدَّث أبو أيوب الأنصاري قال : " لما نزل عليَّ رسول الله في بيتي ، نزل في السُّفل ، وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهرْ أنت فتكون في العلو ، وننزل نحن فنكون في السُفل ، فقال ﷺ : يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا إنْ نكن في أسفل البيت ، وصارت أم أيوب أختاً لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في الله ، وأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى مسجده ، و مساكن أهله فانتقل إليها.(٤)

(٢)

شهد أبو أيوب غزوة بدر ، وأُحد ، والخندق ، والمشاهد كلّها . وشهد فتح مصر (٢١/ ١ النجوم الزاهرة - القاهرة ١٩٣٠) ، وعاش عصر أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان رضوان الله عليهم ، وكان مع علي رضي الله عنه في حربه ضد الخوارج .

وحين خرج علي رضي الله عنه إلى العراق استخلف أبا أيوب على المدينة ، ثمَّ لحق به .

وخرج مجاهداً عام (٢٨ هـ) إلى جزيرة قبرص ، كما خرج غازياً للروم في عهد معاوية .(٥)

ولم يكف عن الجهاد في سبيل الله ، طيلة حياته ، يعمل من أجل عزة الإسلام ونصرته ، وكفاح أعدائه ، ورفع راية الإسلام عالية منصورة .

(٣)

وفي عام (٥٠هـ) كان أبو أيوب يجاهد في سبيل الله مع جيش معاوية رضي

الله عنه بقيادة يزيد بن معاوية ، الذي وصل إلى أسوار القسطنطينية ، وضرب الحصار عليها ، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يضرب المثل عالياً في الإقدام ، والبطولة ، والتضحية .

وفي موضع قريب من سور هذه المدينة خرَّ أبو أيوب صريعاً ، شهيداً في سبيل الله من أجل الإسلام ، ودفن حيث استشهد ، وأمر يزيد بأن يبقى مكان دفنه سراً ، لا يعلمه أحد ، حتى لا ينبش الروم قبره ويخرجوا جثته ، ويمثِّلوا بها .

وعاد الجيش الإسلامي إلى الشام ، لمنعة أسوار القسطنطينية ، ولشدّة البرد حولها .

وتمرُّ الأيام ، وموضع قبر أبي أيوب مجهول لا يعرفه أحد ، وتسقط القسطنطينية على يدي السلطان محمد الفاتح عام (٨٧٥هـ ١٤٥٣م) .

لقد كان أبو أيوب الأنصاري الصحابي مضيف رسول الله ﷺ مثلاً سائراً في أفواه المسلمين في حب الجهاد في سبيل الله ، ومن أجل نصرة الإسلام .

ووفاة أبي أيوب رضي الله عنه تكاد ترجح كتب الطبقات ، وكتب التاريخ ، أنها كانت عام (٥٠ هـ) ، وقيل : إنه استشهد عام (٥١ هـ) ، وذكر ابن عبد الحكم في كتابه " فتوح مصر والمغرب " الروايتين .(٦)

ويروي الذهبي : أن وفاته عام (٥٢ هـ) ويقول : إنه دفن بأصل حِصْن القسطنطينية (٢٨٨ / ٢٩٦ ج٢ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي) .

(٤)

إني أكتب عن هذا الصحابي الخالد ، أبي أيوب الأنصاري ، وبين يديّ كتاب قيِّم للأستاذ الجليل الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان : " أبو أيوب الأنصاري عند العرب والترك " ومنه أفدت ، وعنه رويت ، وإليه رجعت .

الكتاب في نحو المائة صفحة ، يضمُّ مقدمة وستة فصول :

الفصل الأول : عن عصر أبي أيوب وبيئته .

والثاني : عن أبي أيّوب مضيفاً لرسول الله ﷺ .

والثالث : عنه محدِّثاً .

والرابع : عنه مجاهداً في سبيل الله من أَجل الإسلام .

والخامس : عن قبر أبي أيوب .

والفصل السادس والأخير : عن مسجده . وفي آخر الكتاب ذكر مراجعه العربية والتركية والفارسية والأوروبية . وذلك كله في إطار علمي مشرّف للمؤلف وللبحث نفسه .

والكتاب في صميم الدراسات الإسلامية المقارنة ، فهو دراسة عميقة لهذا الصحابي الجليل ، الذي تتجلى في شخصيته وشائج الصلة الثقافية بين العرب والترك . والمؤلف يُعَدُّ شيخ هذا المجال الكبير الواسع ، مجال الدراسات الإسلامية المقارنة .

وقد نالت مؤلفات الدكتور حسين مجيب المصري في هذا المجال شهرة واسعة .

(٥)

لقد مات مضيف رسول الله ﷺ على أبواب القسطنطينية ، وصار قبره ومسجده ، من أجلِّ أماكن العبادة عند الترك ، كما كان مسجده هو المسجد الرسمي لسلاطين آل عثمان ، الذين يتوجون فيه حينما يتولون أمور الدولة .

لقد حفت بالمسجد وبقبر أبي أيوب رحمات السماء، وبركات الأرض .

وعقبى للمجاهدين في سبيل الله :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩]

(١) راجع الواقدي : الطبقات الكبرى (ص:٤٩) .
(٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبي : ٢٩١/ ٢ .
(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير (بيروت) ٧/ ٥٧ .
(٤) تاريخ الطبري (ليبدن ١٨٨١م) : ص : ٢٢٢٤ج١٣ القسم الرابع .
(٥) العقد الفريد ـ القاهرة ١٩٢٨م : ٣/ ١٢٨ .
(٦) أبو أيوب الأنصاري : د. حسين مجيب المصري : ص : ٦٩ .

الشمائل المحمدية

للإمام الترمذي

(٢٠٩ - ٢٧٩هـ / ٨٢٤ - ٨٩٢م)

(١)

كتاب " الشمائل المحمدية " للإمام الترمذي من أهم ما كتب عن صفة رسول الله ﷺ الخلقية والخُلُقية : وهو باب واسع يضيف للسيرة النبوية العطرة جوانب كثيرة تتصل بحياته ﷺ في معاشه وهيئته وسلوكه مع أصحابه ومع المسلمين كافة ، وعلاقته بالناس وسياسته في الأمة ، ورفقه بالرعية ، وأخلاقه وأحواله في بيته وخارج بيته المطهر الكريم . وفيه يقدم لنا الترمذي من الآثار الصحيحة الموثقة صورة واضحة كاملة لنبي الله ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ .

وبحسب هذا الكتاب شهرة أن شرحه كبار علماء الإسلام من أمثال السيوطي (٩١١ هـ) في كتابه " زهرة الخمائل في شرح الشمائل " ، وابن حجر الهيثمي المكي (٨٥٢هـ) واللاري مصلح الدين محمد بن صلاح بن جلال المتوفى عام (٩٧٩ هـ) وغيرهم ، واختصره عدد من العلماء منهم من المعاصرين :

- الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري المتوفى عام (١٩٣٤ م) في كتابه " مختصر شمائل الترمذي " الذي شرحه في كتاب سماه " العطر الشذي في شرح مختصر شمائل الترمذي " ، أثنى عليه الإمام الشيخ البشري (١٩١٧م) شيخ الأزهر الشريف .

- المختصر في الشمائل لمحمود سامي .

- مختصر الشمائل للشيخ الألباني المتوفى عام ١٩٩٨م .

- أوصاف النبي شرح واختصار " شمائل الترمذي " تأليف سميح عباس ، الذي عنى بتخريج الأحاديث وبيان درجتها وذكر ما يستفاد من الحديث .

(٢)

وعن كتاب " الشمائل " للترمذي يقول الأساتذة محققو كتاب " مختصر شمائل الترمذي " للشيخ الشرنوبي ، وهم الأساتذة : الدكتور حمزة النشرتي ، والشيخ عبد الحفيظ فرغلي ، والدكتور عبد الحميد مصطفى : كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي كتاب جامع لصفات النبي ﷺ الخلقية والخُلقية ، وقد بذل الإمام الترمذي فيه جهداً كبيراً يدل على كثرة حفظه واتساع روايته ، وقد ذكر فيه الترمذي أوصاف الرسول ﷺ صحيحة موثقة وقدَّمها للمسلمين هدية تحفظ صورة نبيِّهم ﷺ في نفوسهم وأرواحهم فلا يقرأه قارئ إلا ويتمثل هذه الحضرة المحمدية المشرقة المهيبة فيدفعه ذلك إلى التأسي بها سلوكاً وعملاً واقتداءً .

ويقول الشيخ الشرنوبي في مقدمة كتابه " مختصر الشمائل " : كتاب الشمائل المحمدية للحافظ الترمذي من أجلِّ ما أُلِّف فيها ، وقد شمل الأنام بفوح عطره الشذي .

كما أثنى عليه العلماء في جميع العصور ، ومن الأئمة المعاصرين الشيخ أحمد محمد شاكر في كلامه عن مادة " ترمذ " في " دائرة المعارف الإسلامية " والدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم في المادة التي قدمتها " الموسوعة الذهبية الإسلامية " .

وبحسبك أيُّها القارئ أن تردد في وصف رسول الله ﷺ قول حسان بن ثابت شاعر الإسلام وشاعر رسول الله ﷺ .

خُلقتَ مبرأً من كلِّ عيب ... كأنَّك قد خُلقتَ كما تشاءُ

ويقول الدكتور أحمد عمر هاشم في مقال له " مجلة منبر الإسلام - عدد رجب ١٤٢١هـ " ، كتاب الشمائل للإمام الترمذي من الكتب العظيمة القدر ، وقد تلقاه العلماء بثناء عاطر ، وقابلوه بتقدير عظيم ، قال الشيخ إبراهيم الباجوري : إن كتاب الشمائل للإمام الترمذي كتاب وحيد في بابه ، فريد في ترتيبه واستيعابه حتى عدَّ ذلك من المواهب وسار في المشارق والمغارب .

(٣)

والترمذي من أجلِّ المحدثين في القرن الثالث الهجري . وكان كما يقول ابن كثير عنه في كتابه " البداية والنهاية " : كان أحد أئمة الحديث في زمانه ، وله المصنفات المشهورة ، منها الجامع ، والشمائل ، وأسماء الصحابة ، وغير ذلك .

وقال عنه ابن الأثير في تاريخه : كان الترمذي إماماً حافظاً له تصانيف حسنة ، منها الشمائل والجامع الكبير وهو أحسن الكتب .

وقال عنه ابن العماد الحنبلي في " شذرات الذهب " : كان مبرزاً على الأقران ، آية في الحفظ والإتقان .

وقال عنه ابن خلكان في كتابه " وفيات الأعيان " هو أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث ، صنَّف كتاب الشمائل وكتاب الجامع تصنيف رجل متقن ، وبه كان يضرب المثل .

ويذكر ابن كثير عن الترمذي أنه قال : صنَّفتُ الجامع الصحيح وعرضته على علماء الحجاز فرضوا به ، وعرضته على علماء العراق فرضوا به ، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به ، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي ينطق ، وفي رواية : يتكلم . وقال ابن عطية عن " الجامع " : سمعت محمد بن طاهر المقدسي يقول رواية عن أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري : "كتاب الترمذي ـ الجامع ـ أنور ـ أي أوضح ـ من غيره لأنه قد شرح أحاديثه وبيَّنَها فيصل إليها كل أحد من الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهم " (البداية والنهاية : ٦٧/١١) .

وقد ولد الترمذي في إحدى قرى " ترمذ " وهي مدينة على الضفة الشمالية لنهر جيحون وهي بيئة حافلة بالعلم والعلماء آنذاك ، وقد أنجبت الكثير من العلماء، ومن أشهرهم الترمذي صاحب كتاب الشمائل وكتاب الجامع .

وتتلمذ على علماء " ترمذ " ، وعُنِيَ عناية كبيرة بالحديث ، وكان في خراسان

علماء مشهورون في الحديث ، ومن أساتذته فيه الإمام البخاري (٢٥٦هـ) . وقد تخرج على يديه وتأثر به في الحديث وروايته ، ولا سيَّما في فقه الحديث ، وروى عنه البخاري حديثاً ، وهو كما ورد في " البداية والنهاية ٦٧/ ١١ : قال الترمذي : كتب عني البخاري حديث عطية عن أبي سعيد أنَّ رسول الله ﷺ قال لعلي : (**لا يحلُّ لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك**) . وهذا مما يدلّ على منزلة الترمذي ومكانته في نظر أئمة الحديث .

وأخذ الترمذي كذلك عن مسلم ، وفي عصر الترمذي ظهرت مدرسة كبيرة في الحديث ، من أبنائها : زياد بن يحيى الحساني (٢٥٢ هـ) ، وعباس بن عبد العظيم العنبري (٢٤٦ هـ) ، والأشج عبد الله بن سعيد الكندي (٢٥٧هـ) ، ومحمد ابن المثنى (١٦٧-٢٥٢هـ) ، ومحمد بن بشار (١٦٧-٢٥٢هـ)، والفلاس عمرو بن علي (٢٤٩ هـ) ، والدروقي (٢٥٢هـ) ، والبحراني محمد بن معمر (٢٥٦هـ) ، والجهضمي نصر بن علي (٢٥٠هـ) .

وقد أخذ الترمذي هو وجميع الأئمة أصحاب كتب السنة عنهم وعن روايتهم، كما أخذ عن الجمحي عبد الله بن معاوية (- ٢٤٣هـ) ، والمروزي علي بن حجر (-٢٤٤هـ) ، وسويد بن نصر (-٢٤٠هـ) ، وقتيبة بن سعيد الثقفي (-٢٤٥هـ) وأحمد بن أبي بكر الزهري (-٢٤٢هـ) ، والسندي محمد بن أبي معشر (-٢٤٧هـ) ، وغيرهم .

(٤)

وكتاب الشمائل يشتمل على ستة وخمسين باباً ، وضع لكل باب العنوان الملائم له ، مع ترتيب الأبواب ، مندرجاً من باب إلى آخر ، وقد ابتدأه بما جاء في خلق رسول الله ﷺ متناولاً بيان صفاته البدنية الشريفة ، ثم هيئته العامة ، ثم الملبس ، ثم ما يتعلق بحياته اليومية ، وعاداته الشخصية ، ثمّ ما كان ـ ﷺ ـ من

الخلق العظيم ، وهكذا سارت طريقة الكتاب في هذا التسلل المنطقي السليم ، حتى جاء إلى باب : ما جاء في وفاته ﷺ ، ثم ميراثه ، ثم رؤيته ﷺ في المنام ، وكان يروي الأحاديث الخاصة بكل موضوع في الباب المناسب الذي أعدّه لها " مجلة منبر الإسلام ـ عدد أكتوبر ـ رجب ١٤١٦هـ " الدكتور عمر هاشم .

وجملة الأحاديث التي وردت في كتاب " الشمائل " ٣٢٨ حديثاً .

في الباب الأول : وهو باب ما جاء في خلق رسول الله (، يذكر الترمذي الحديث النبوي الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، ولا بالأبيض الأمهق ـ الشديد البياض ـ ولا بالآدم ـ أي شديد السمرة ـ ولا بالجعد القطط ـ الشديد الجعودة ـ ولا بالسبِط ـ أي المسترسل ـ بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين ، وتوفاه الله على رأس ثلاث وستين سنة ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) [1] .

وهكذا تتوالى الأحاديث والأبواب .

وفي الحديث الأخير في كتاب " الشمائل " ، وهو الحديث الثامن والعشرون بعد الثلاثمائة ، وهو آخر حديث رواه الترمذي في " الشمائل " ، يروي الترمذي عن ابن سيرين ، قال : هذا الحديث دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم .

والدين : أي المتدين به لأنه جاء به النبي ﷺ لتعليم أمته .

ونقرأ في الحديث الخامس والخمسين بعد المائتين : يروي الترمذي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال :

(شهدنا ابنة لرسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر ، فرأيت عينيه تدمعان ، فقال ﷺ : " أفيكم رجل لم يقارف الليلة ـ أي لم يجامع زوجته ـ؟ " قال أبو طلحة : أنا ، قال : انزل ، فنزل في قبرها) .

وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وأحمد في " المسند " والبيهقي في السنن .

وابنة رسول الله ﷺ التي توفيت عام تسعة للهجرة وشهد دفنها رسول الله ﷺ وجلس على قبرها أثناء دفنها هي أم كلثوم ، وكانت زوجة لعثمان بن عفان بعد رقية التي ماتت ودفنت والنبي ﷺ في غزوة بدر ، ونزل أبو طلحة القبر ليدفن ويلحد أم كلثوم - رضي الله عنها - بأمر رسول الله ﷺ ، وكان عثمان حاضراً ولم ينزل القبر ، إما لأنه كان مرهقاً وحزيناً ، وإما لأنه قارف حيث نام ليلته مع أمة جارية له ، وإما لأن منْعَ رسول الله ﷺ له من النزول إلى قبرها كان معاتبة له ، لاشتغاله عن زوجته أم كلثوم المحتضرة ، وذلك مما أدب به رسول الله ﷺ أصحابه .(1)

وبعد ، فهذا هو كتاب الشمائل ، صورة ناطقة لصفات رسول الله ﷺ في هيئته وفي خلقته ، وفي حياته ، وفي لباسه وطعامه وشرابه ومنامه ، وفي جميع أحواله وأموره ومعاملته لأصحابه وللمسلمين عامة .

إن هذا الكتاب يجعلك تقف مباشرة أمام هذه الشخصية العظمى الطاهرة المطهرة ، وجهاً لوجه ، كأنك تراها على الحقيقة ، لا على التوهم أو الخيال .

في الحديث الرابع والأربعين بعد المائتين من كتاب " الشمائل " يروي الترمذي عن أم سلمة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وقد سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ ، قالت : كان يقطع قراءته ، يقول : الحمد لله رب العالمين ، ثم يقف ثم يقول : الرحمن الرحيم ، ثم يقف ، وكان يقرأ : ملك يوم الدين ، بدون ألف ، كما أورده الترمذي في كتابه " الجامع الصحيح " .

إن الشمائل لم يغادر شيئاً من صفات الرسول ﷺ بل ذكر كل شيء يوضح لنا أوصاف رسول الله ﷺ تامة كاملة غير منقوصة .

تلك مأثرة جليلة للترمذي تركها للمسلمين عامة أن يقرأوا شمائل الرسول

ﷺ الأعظم والأكرم ، وكأنهم يرونه ـ ﷺ ـ رأي العين ، وأعظم بذلك مأثرة ، وأكرم به من فضل كبير ، وعمل جليل .

---

(١) هذه التواريخ التي ذكرها الترمذي هي إحدى الروايات .

(٢) راجع عن أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ كتب السيرة والطبقات الكبرى لابن سعد (٨ـ٣٧) ، وأسد الغابة لابن الأثير (٧/ ٣٨٤) ، والإصابة لابن حجر ٨/ ٢٧٢و١٤٦٢، وتاريخ الطبري ١/ ٥٢١ و٢/ ٤٢ ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ١/ ٤٠١ .

مـن وثـائـق

العصر النبوي *

(١)

وقَّع رسول الله ـ ﷺ ـ معاهدة صلح الحديبية بينه وبين قريش في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة (٦٢٨م) ، واستراح من عبء القتال بينه وبين قادة مكة ، قليلاً قليلاً ، وبدأ منذ ذي الحجة من العام نفسه ، وبعد شهر واحد من صلح الحديبية ، في تبليغ دعوة الإسلام إلى شعوب وملوك العالم وإلى أمراء الجزيرة العربية وما حولها ، فبعث رسله يحملون رسائله إليهم ، يدعوهم ـ ﷺ ـ فيها إلى الإسلام ، ويروي ثقات المؤرخين أن بعثة رسول الله ﷺ إليهم ظلت مستمرة ، منذ الحديبية إلى وفاته ، صلوات الله وسلامه عليه . (١)

فبعث ﷺ حاطب بن أبي بلتعة في وفد إلى المقوقس الحاكم الروماني لمصر في عاصمتها الإسكندرية ، وبعث دحية الكلبي إلى قيصر الروم هرقل ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغسَّاني ملك دمشق ، وقيل : إلى جبلة بن الأيهم الغسَّاني ، وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة الحنفي صاحب اليمامة ، وإلى ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو صاحب جانب من اليمامة أيضاً ، وبعث (العلاء بن الحضرمي (ت: ٢ هـ) إلى المنذر بن ساوي أخي بن عبد القيس وصاحب البحرين ، وبعث عمرو بن العاص إلى صاحبي عمان ، و هما ابنا الجلندي وكانا أزديين ، وبعث الحارث بن عمير إلى عامل هرقل على بصرى بالشام شرحبيل بن عمرو الذي قتل رسولَ رسول الله ﷺ، مما كان سبباً في غزوة مؤتة ، وبعث ﷺ عياش بن أبي ربيعة المخزوميَ إلى الحارث ومسروج ونعيم بني عبد كلال الحميري ملك اليمن ،

(١) مقالة بقلم الأستاذ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي .

كما بعث رسول الله ﷺ مسعود بن سعد إلى فروة الجذامى عامل قيصر على معان ، فأسلم وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، وقيل إن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسليمة الكذاب .

وهذه الرسائل النبوية لم يذكر أحد أين هي ، إلا أن السهيلي الأندلسي (من القرن السادس الهجري) ذكر أن رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل في يد بعض ملوك إسبانيا النصارى .

ويذكر د . محمد فريد محمود عزت [٢] أنه قد اكتُشف حتى الآن خمس رسائل منها ، وهي :

١- الرسالة النبوية إلى المقوقس (عام ١٨٥٠م) .

٢- الرسالة النبوية إلى هرقل الروم (عام ١٩٧٣م) .

٣- الرسالة النبوية إلى كسرى (عام ١٩٦٣م) .

٤- الرسالة النبوية إلى النجاشي (عام ١٩٧٣م) .

٥- الرسالة النبوية إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين (عام ١٨٦٣م) .

وسوف نتحدث هنا عن الرسالة النبوية إلى هرقل (هيراكلس - هيركيوليس) إمبراطور الروم - وكيف عثر عليها .

(٢)

شهد هرقل قيصر الروم الإمبراطور البيزنطي (٦١٠ - ٦٤١م) أكبر تحول في تاريخ البشرية منذ أقدم عصورها ، حتى اليوم ، ففي عام (٦١٠م) كانت البعثة النبوية الشريفة وبَدْءُ نزول القرآن الكريم . وكانت الإمبراطورية البيزنطية (٣٩٥- ١٤٥٣م) تقاسم الإمبراطورية الفارسية - السيادة على العالم القديم ، وكانت عاصمتها هي القسطنطينية ، ومنذ بداية حكم هرقل أخذت فارس تغزو بلاد

القيصر . فنهض هرقل بالعبء ، وأخذ ينتصر على فارس انتصاراً ساحقاً يستردّ به البلاد التي أخذتها فارس ، ويسير هرقل بعد الفتح في طريقه إلى بيت المقدس عام (٧ هـ / ٦٢٩م) حتى بلغ حمص ، وفي هذه الأيام الحافلة بعث رسول الله ﷺ برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الدخول في دين الله ، وكان دحية بن خليفة الكلبي هو الذي حمل رسالة النبي الكريم ﷺ إلى إمبراطور الروم هرقل ، وسلّم دحية الرسالة إلى عامل الإمبراطور على الشام في بصرى (٣) في رواية ، فبعث بها العامل إلى هرقل في حمص ، وفي رواية أخرى أن دحية قدم إليه الكتاب بنفسه ، وفي رواية ثالثة أن الرسالة قدمت إليه في بيت المقدس ، الذي توجه هرقل إليه ليعيد إلى مكانه الصليب المقدس الذي كان الفرس قد أخذوه ، واستعاده منهم الإمبراطور الروماني .

وقرئت الرسالة على هرقل مترجمة ، ونصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ـ سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(٤) ـ أي عامة طبقات الشعب ـ (قُلْ يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) "

[الطبري : ٢/ ٢١٩ ـ صحيح البخاري باب الوحي ، صحيح مسلم : ٥/ ١٦٥]

رسالة جليلة ـ حمَّل فيها رسول الله ﷺ هذا الإنسان الكبير مسؤوليته ، تجاه نفسه وشعبه والإنسانية عامة ، ولم يسجل المؤرخون الرومان ردّ فعل الإمبراطور على الرسالة الكريمة ، والمصادر العربية تذكر أنه ردّ عليها ردّاً حسناً .

وكانت تلك الرسالة أول لقاء سياسي بين الإسلام وإمبراطورية الروم الواسعة الأرجاء آنذاك .

(٣)

وأخبر المقربون من الإمبراطور هرقل بأنَّ في غزة جماعة من عرب مكة ومن أشراف قريش ، قدموا إليها للتجارة ، فطلب هرقل استدعاءهم إليه ، وكان على رأسهم أبو سفيان بن حرب (ت : ٣١هـ) .

قال أبو سفيان : كنا قوماً تجاراً ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله ﷺ ، خَرَجْتُ في نفر من قريش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة ، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس ، فأخرجهم منها ، وانتزع منهم صليبه الأعظم ، وكانوا قد استلبوه إياه ، وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشي على قدميه شكراً لله حين رد عليه ما رد ، ليصلي في بيت المقدس ، تُبسط له البسط ، وتُلقى عليه الرياحين ، فلما انتهى إلى إيليا - بيت المقدس - فقضى فيها صلاته ، وكان معه بطارقته وأشراف الروم ، أصبح ذات غدوة مهموماً يقلب طرفه إلى السماء ، فقال بطارقته والله لكأنك أصبحت الغداة مهموماً ، فقال : أجل ، رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر ، فقالوا : أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود ، فوا الله إنهم لفي ذلك إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده ، وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ، فقال : أيها الملك ، هذا رجل من العرب يحدث عن أمر حدث ، فاسأله ، قال هرقل لمن جاء به : سله عن هذا الحدث الذي كان ببلده ، فسأله ، فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي ، وقد اتبعه ناس فصدقوه ، وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك ، قال هرقل : جردوه ، فإذا هو مختون ، ثم دعا صاحب شرطته فقال له : اقلب الشام ظهراً لبطن ، حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل . قال أبو سفيان : فإنَّا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته ، فقال : " أنتم من الحجاز ؟ " قلنا : نعم ، قال : انطلقوا إلى الملك ، فانطلقوا بنا ، فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز ، قلنا : نعم ، قال : فأيُّكم أحسُّ به رحماً ؟

قلت : أنا ، قال : ادن ، ثم أقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ، وقال لهم : إني سأسأله ، فإن كذب فردوا عليه ، قال هرقل : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم ما يدعي ، فجعلت أزهو له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له أيها الملك ما يهمك من شأنه ، إن أمره دون ما بلغك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني ، ثم قال أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه ، قلت : سل عما بدا لك ، قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض ، هو أوسطنا نسباً ، قال : أخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول ، فهو يتشبه به ؟! قلت : لا ، قال : هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا ، قال : أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد ، قال : أخبرني عمن يتبعه : أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟ قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه ، قال : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قلت : سجال ، يدال علينا ويدال عليه ، قلت : فأخبرني هل يغدر ؟ فلم أجد شيئاً أغتمز فيه غيرها وقلت : لا ، ونحن في مدة ولا نأمن من غدره ، قال أبو سفيان : فوا الله ما التفت إليها مني .

ويسأل هرقل أبا سفيان : فما يأمركم به ؟ قال أبو سفيان : قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانات . ويسترسل أبو سفيان في الحديث فيقول : فقال هرقل : سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً فكذلك يأخذ الله النبي ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً ، وسألتك : هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه : أيحبه ويلزمه

أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه ، وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال ، وكذلك حرب الأنبياء ، ولهم تكون العاقبة ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أن لا ، وسألتك ماذا يأمركم به ، فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، فوا الله إن كنت صدقتني عنه فليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أنِّي عنده فأغسل قدميه ، قال أبو سفيان : ثم دعا هرقل بكتاب النبي فقرئ عليه .

قال أبو سفيان : فقمت من عنده ، وأنا أضرب بإحدى يديّ على الأخرى ، وأقول : يا لعباد الله لقد أمر[٥] أمر ابن أبي كبشة[٦] ، أصبحت ملوك بني الأصفر[٧] يهابونه في ملكهم وسلطانهم .[٨]

وهذا الحوار بين هرقل وأبي سفيان إن دلَّ فإنما يدلّ على عظمة رسول الله ﷺ وجلاله ، وعلى صدق فراسة هرقل وصدق أحكامه على طبيعة الرسالة والرسول.

لقد صدقت فراسة هرقل ، فلم يلبث نور الإسلام إلا قليلاً حتى عمَّ آفاق الدنيا ، وملأ شعاب الأرض[٩] .

(٤)

إن الرسالة النبوية الشريفة إلى هرقل قد وصلنا منها ثلاث نسخ :

الأولى : وثيقة محفوظة في صندوق ذهبي في متحف طوب كابي سراي باستنابول .

الثانية : وثيقة دخلت في ملك وزير خارجية لبنان الأسبق الهاوي للآثار النادرة هنري فرعون حيث اشتراها من هاوٍ لبناني بأكثر من مليون دولار .

ولم يؤكد الفحص العلمي صحة نسبة هاتين الوثيقتين إلى عصر الرسالة المحمدية .

الثالثة : محفوظة اليوم في قصر رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (١٠) ، ثم انتقلت إلى القصر الملكي الأردني الهاشمي ، وهي الوثيقة الحقيقية التي أكَّد البحث العلمي صحتها وأنها هي التي تسلمها هرقل من مبعوث الرسول الأكرم دحية الكلبي ، حيث ظلت متوارثة في أسرة هرقل ، وكان منهم حكام في الأندلس ، وكان آخر العهد بها وبوجودها في ملك أمير طليطلة (العاصمة الأندلسية القديمة) (الأذفونش) . ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، إلى أن ظهرت عام ١٩٧٣م ، في حوزة الأمير (الملك) عبد الله ملك الأردن ، وأوصى بها زوجته الملكة " نهجة " بعد وفاته . ولما توفي الملك عبد الله حفظتها زوجته في إحدى الخزائن في بنوك سويسرا ، وحين احتاجت إلى المال سحبتها من الخزينة بنفسها ، وعرضتها للبيع في لندن[١٠] .

وأخذ الخبراء في فحصها فحصاً علمياً دقيقاً ، حتى لا يكون هناك شبهة من أيِّ نوع في أنها الوثيقة التاريخية الصحيحة ، التي لم يشبها أيّ تزوير بأي لون من الألوان ، واستغرقت عملية الفحص هذه عاماً كاملاً بمعرفة خبراء من العلماء الإسلاميين والأوروبيين ، منهم :

- العالم الهندي محمد حميد الله الأستاذ بالسوربون .
- والدكتور هنري فرعون .
- والمؤرخ د. عز الدين إبراهيم .
- وخبراء متحف " طوب كابي سراي "

وجرى الفحص الميكروسكوبي بالأشعة فوق البنفسجية وبواسطة الإمكانات المتاحة لدى المتحف البريطاني بلندن ، ومختبرات جامعة ليدز البريطانية .

وكانت النتيجة ترجيح صحة هذه الوثيقة ونسبتها إلى الرسول الأعظم ﷺ ، باعتبارها الرسالة الحقيقية التي سلمت إلى هرقل من مبعوث الرسول الكريم ، وخلصت أعمال الفحص إلى النتائج التالية :

١ - الرسالة صحيحة ، أو هي على الأقل نسخة صحيحة من الأصل ، حيث كانت الرسائل النبوية يحتفظ بنسخ منها في ديوان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٢ - عمر الرسالة يزيد على ألف عام ، وهو أقصى مدى يمكن للمعامل الحديثة الوصول لمعرفته .

(٥)

وأخيراً وفي عام ١٩٧٥م اشترى هذه الوثيقة المكتوبة على جلد غزال والمؤلفة من ثمانية سطور الشيخ زايد بن سلطان أمير دولة الإمارات وحاكم أبو ظبي بمبلغ اثنين ونصف مليون دولار لتستقرَّ في المركز الثقافي الجديد ، الذي أقامه في قصره .

ولم يلبث الشيخ زايد بدافع إنسانيته ومروءته أن بعث بالرسالة النبوية إلى الملك حسين ملك الأردن باعتبار أنها من ممتلكات جده الملك عبد الله .(١١)

---

(١) عماد الدين خليل : دراسة في السيرة - بيروت - ص (٢٨٦) نقلاً عن ابن إسحاق .
(٢) مجلة التربية القطرية ، عدد ديسمبر ١٩٩٩م في مقال له عن الرسائل النبوية - ص ٣٠٨ .
(٣) وهو الحارث الغساني ملك غسان .
(٤) ظهرت كلمة الأريسين في مؤلف تراثي للراهب اثناسيوس عضو مجمع نيقية (٣٢٥م) ، وعنوانه " الرد على الأريوسيين " . وهذا المؤلف هو الركيزة لكل ما كتبه جميع اللاهوتين ، ومعنى الأريسين أبناء الشعب من فلاحين وعمال وغيرهم .
(٥) أي عظم.
(٦) هذه كنية الحارث بن عبد العزى أبي الرسول رضاعاً كانوا ينسبونه إليه استهزاء بالرسول .
(٧) بنو الأصفر لقب ملوك الروم .

وهكذا شـاءت رعـاية الله عـز وجـل أن تكون هذه الرسـالـة النبـوية الكريمة الخالدة قـد سلمت من أحـداث الزمـان ، وأيدي الإهمـال والنسيـان ، وأن تكون اليوم محفوظة في القصر الملكي الأردني الهاشمي .

إنها وثيقة من أعظم وثائق التاريخ البشري ، وتراث عظيم من تراث عصر النبوة المحمدية الإسلامية ، والله الحافظ والحامي والراعي الكريم .

---

(٨) وكان أبو سفيان يقول : أفوا الله لولا الحياء يومئذ من أن يردُّوا عليّ كذباً لكذبت . ولكني استحييت فصدقت وأنا كاره ، وفي رواية : لولا مخالفة أن يؤثر حمنّي الكذب لكذبت ، ولولا خفت أن ينقل عني الكذب إلى قومي ، ويتحدثوا به في بلادي لكذبت عليه ، لبغضي إياه ومحبتي نقصه ، ويقول أبو سفيان : فوا الله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا عليه ، ولكني كنت أمراً سيداً أتبرأ عن الكذب ، وعرفت أن يسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوه علي ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه .

(٩) وقد كتب هرقل كتاباً أرسله مع دحية إلى رسول الله جاء فيه : " إلى أحمد رسول الله الذي بشّر به عيسى من قيصر ملك الروم ، إنه جاءني كتابك مع رسولك ، وإني أشهد أنك رسول الله بشرنا به عيسى ابن مريم ، وأرسل مع الكتاب هدية قبلها الرسول وقسمها على المسلمين .

(١٠) ولقد توفي الشيخ زايد آل نهيان رحمه الله يوم الثلاثاء ١٩ رمضان ١٤٢٥هـ الموافق ١ نوفمبر ٢٠٠٤م عن عمر يناهز ٨٦ عاماً .

(١١) رواية د. عزت : الأميرة ناهدة حجازي (ص:٣٢٣) مجلة التربية القطرية عدد ديسمبر ١٩٩٩م .

(١٢) ص : (٣٧) مجلة التربية القطرية د. عزت ـ عدد ديسمبر ١٩٩٩م .

مختـــارات من
القصـص النبـــوي

د. محمد حسن الزير

هذا الكتاب " **مـختـارات من القصص النبـوي** " بقلم د. محمد بن حسن الزير، جمعها وصنفها وعلّق عليها ، وهو أشبه ما يكون بالسيرة لما يتضمنه من أحوال تتصل بالسيرة النبوية اتصالاً وثيقاً ، من مثل :

- شق الصدر الشريف .(١)
- نزول الوحي على رسول الله ﷺ .(٢)
- معراج رسول الله ﷺ .(٣)
- في موقف يوم القيامة .(٤)
- رؤيا الرسول ﷺ لربّ العزّة والجلال .(٥)

وغير ذلك مما سنعرض له هنا في هذه المقالة .

وفي تسمية ذلك بالقصص تجوز كبير ، فالقصص فيه : الخيال ، والسبك والتصوير ، وتضمين مشاعر القاص كجزء من الحدث ، وليس في الكلام النبوي شيء من ذلك ، بل هو الحق والصدق واليقين ، والأولى ألا نعدل باسم الحديث النبوي اسماً آخر ، ولعل المؤلف قد لاحظ ذلك فقسم القصص إلى : تجارب ذاتية وإلى تجارب غيبية ، فالأولى تحققت للرسول ﷺ في حال اليقظة ، والأخرى مما وقع للرسول ﷺ في المنام ، كما جعل من أنواع القصص النبوي القصة التمثيلية والقصة التاريخية وقصص المستقبل ، وقصص البعث واليوم الآخر ، وقصص عن أمور غيبية ، وهو تقسيم موائم لمضامين الحديث النبوي الشريف المتصل بلون القصة .

(٢)

وهذا الكتاب ، وإن كان المؤلف معاصراً ، إلا أن مضمونه يجعلنا نتحدث عنه في باب التراث الإسلامي ، لصدق المضمون ، ولاتصاله بحديث رسول الله ﷺ ، ولأهمية موضوعه في الدراسات التراثية .

وحين يذكر المؤلف في صدر التجارب الذاتية أنها أشبه ما تكون بالسيرة ، يشير ضمناً إلى أن تسمية ذلك باسم " السيرة " أولى وأجدر . ويقول المؤلف إنه يهدف [٦] من رواء ذلك ما يحققه عرض هذه التجارب من تعميق الإيمان بالرسول ﷺ والرسالة والإسلام .

وفي مقدمة هذه التجارب شق الصدر الشريف ، حيث يذكر المؤلف الحديث النبوي مروياً عن عتبة بن عبد السلمي ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أنه حدثهم ، أن رسول الله ﷺ قال له رجل : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : " كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر [٧] فانطلقت أنا وابن لها [٨] في بهم الغنم الصغار وهي أولاد الضأن والمعز ، لنا ولم نأخذ معنا زاداً فقلت : يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمّنا . فانطلق أخي ومكثت عند البَهْم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال الآخر : نعم ، فأقبلا يبتدراني فأخذاني ، فبطحاني للقفا ، فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج ، فغسل به جوفي ثم قال : ائتني بماء برد ، فغسل به قلبي ، ثم قال : ائتني بالسكينة فذرّه في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : حصْه ، فحاصه ، وختم عليه بخاتم النبوة . ثم قال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة ، قال رسول الله ﷺ : فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي ، فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثمّ انطلقا وتركاني [٩]، وفي باب التجارب الذاتية يذكر الكتاب سبعة أحاديث شريفة .

(٣)

وفي التجارب الغيبية ، أيّ القصص المنامية ، يقول المؤلف : وهي تعد من أنواع الوحي ، وقد جعلت هذه القصص المنامية واقعية لوقوع أحداثها للرسول ﷺ، ذاته أو مشاركته في أحداثها ، وحواره مع شخصياتها ، ولأن منامات الرسول ﷺ جزء من الوحي .

في هذا الباب يذكر الكتاب سبعة أحاديث ، تبدأ بالحديث الثامن ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداة ، ثم جلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب . كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الآخرة ، ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبي بكر : ألا تسأل رسول الله ﷺ ما شأنه ؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط ، قال : فسأله : فقال : نعم ، عُرض عليَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد ، ففظع الناس بذلك ، حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام والعرق يكاد يلجمهم ، فقالوا يا آدم ، أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله عز وجل ، اشفع لنا إلى ربك ، قال : لقد لقيت مثل الذي لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٣] قال : فينطلقون إلى نوح عليه السلام فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك ، فيقول : ليس ذاكم عندي ، انطلقوا إلى إبراهيم عليه السلام فإن الله عز وجل اتخذه خليلاً ، فينطلقون إلى إبراهيم ، فيقول : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى موسى عليه السلام فإن الله عز وجل كلمه تكليماً ، فيقول موسى : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى عيسى عليه السلام ، فيقول عيسى عليه السلام ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، انطلقوا إلى محمد ﷺ فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل ، قال : فينطلقون فيأتي

جبريل عليه السلام ربَّه ، فيقول الله عز وجل : ائذن له وبشره بالجنَّة ، قال فينطلق به جبريل فيخرَّ ساجداً ، ويقول الله عز وجل : ارفع رأسك يا محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، إلى آخر هذا الحديث الشريف الذي رواه أحمد في المسند (١/ ٤ - ٥) .

كما يذكر الكتاب حديثاً آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثمَّ بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه . فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها)

[رواه الترمذي : ٢٨٦٠ في الأمثال : ٥/ ١٤٥]

(٤)

وفي باب القصة التمثيلية ، يذكر الدكتور أنها تهدف إلى تجلية الحقائق العقلية المجردة والقضايا الكلية ، يهدف إلى تجليتها وتوضيحها وتأكيدها وتعميقها ، وفي سبيل ذلك اتخذ الرسول ﷺ أسلوباً من أساليب التوضيح والبيان ، والقصة التمثيلية خير ما يحقق هذا الغرض ويخدم الفكرة الذهنية بتجسيدها في قالب قصصي محسوس ، يخرجها من إطار التجريد الذي لا يخلو من طابع الغموض وعدم التحديد ، ويضعها في صورة تجعل السامعين والقارئين أكثر قدرة على الفهم والاستيعاب ، وعلى تمثل الفكرة وهضم أبعادها .

وفي هذا الباب يذكر الدكتور كذلك سبعة أحاديث نبوية شريفة ، منها الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : " إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً ، فقال : من

يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود على قيراط قيراط ، فعملت النصارى على قيراط قيراط ، ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ، فغضبت اليهود والنصارى ، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ، قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ، قالوا : لا ، قال : فإنه فضلي أوتيه من أشاء " .

وهذا الحديث رواه أحمد في المسند ، ورواه الترمذي رقم (٢٨٧١) في الأمثال (٥/ ١٥٣) .

(٥)

وفي باب القصة التاريخية يذكر المؤلف أن مادة هذه القصص مأخوذة من أحداث التاريخ الواقعة ، فيما مضى ، وقد تخير الرسول ﷺ من تلك المواد التاريخية السابقة ما له أثر في التربية والتوجيه وتعليم المسلمين وتأييد أهداف الدعوة الإسلامية وتحقيق أغراضها ، دون العناية بكل تفاصيل الواقعة التاريخية ، وما صاحبها من أحداث جزئية ، وفي هذا المجال تنقل القصة المادة التاريخية نقلاً أدبياً في صياغة مؤثرة ، وفي هذا المجال ذكر الكتاب ثلاثاً وعشرين قصة ، منها حديث عن ابن عباس رضي الله عنه أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى . قال ابن عباس هو خَضر ، فمرَّ بهما أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنَا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيِّه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم ، نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل ، فقال : هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إليه ، فجعل له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان يتبعه الحوت في البحر ، فقال موسى لفتاه :

" **آتنا غداءنا** " ، قال فتاه : " فقال موسى : " ﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ** ﴾ [الكهف: ٦٣] فقال موسى ﴿ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا** ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف: ٦٤] فوجدا خضراً ، فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه . وهذا الحديث رواه البخاري رقم (٣٤٠٠) في باب]الأنبياء : ٦/ ٤٣١ [رواه الترمذي رقم (٣١٤٩) في " تفسير القرآن " ٥/ ٣٠٩- ٣١٢] .

وفي قصص غير الرسل والأنبياء يذكر الكتاب تسعة وعشرين حديثاً ، منها حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه ذكر رجلاً فيمن سلف - أو فيمن كان قبلكم - قال كلمة يعني أعطاه الله مالاً وولداً ، فلمَّا حضرته الوفاة قال لبنيه : أي أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال : فانظروا إذا مت فاحرقوني حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني ، فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها ، فقال نبيُّ الله ﷺ : " فأخذ مواثيقهم على ذلك ، ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف ، فقال الله عز وجل : كن فإذا هو رجل قائم ، قال الله : أي عبد ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك ، قال : فما تلافاه أن رحمه عندها " .

وهذا الحديث رواه البخاري في باب التوحيد (فتح الباري :١١٣/ ٤٦٦- ٤٦٧) ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه في " الأنبياء " (فتح الباري : ٦/ ٥١٤) .

وفي باب " قصص المستقبل " يذكر الكتاب أن هذا النوع من القصة النبوية يتحدث عن أحداث تقع في نهاية الزمان وبين يدي الساعة ، وهذا النوع يسمى أحاديث الفتن والملاحم ، كما جاء في البخاري ومسلم وابن ماجه ، والنهاية لابن كثير .

وفيه يذكر الكتاب عشرة أحاديث ، ومنها حديث دابة الأرض ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " **تخرج الدابة ، ومعها خاتم سليمان بن داود وعصا موسى بن عمران - عليهما السلام - فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم**) [رواه ابن ماجه : ٢/ ١٣٥١]

(٦)

وفي باب قصص البعث واليوم الآخر يذكر الكتاب أربعة وأربعين حديثاً ، هي كلها تأكيد للبعث وإنكار على منكريه ، وتوبيخ وزجر لمن ينكر قدرة الله عليه ، وهي كلها إعلان واضح لعظمة الله عز وجل ولقدرته الباهرة ، وكما بدأ الخلق يعيده مرة أخرى . ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (**إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة : يا حنَّان يا منَّان ، فيقول الله عز وجل لجبريل عليه السلام : اذهب فائتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل ، فيجد أهل النار مُكَبّين ـ مزدحمين ـ يبكون ، فيرجع إلى ربّه فيخبره ، فيقول : ائتني به ، فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : يا عبدي ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : أي ربّ شرّ مكان وشرّ مقيل ، فيقول : ردوا عبدي ، فيقول : يا ربّ ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول : دعوا عبدي**) [رواه أحمد في المسند : ٣/ ٢٣٠] .

(٧)

وفي باب " قصص عن أمور غيبية " أيّ تحدُثُ في الواقع غير المنظور للإنسان ، دون أن يحسّ بها ، أو يشعر بوجودها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق من طرق الوحي ، وفي هذا المجال يذكر الكتاب خمسة عشر حديثاً منها حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : (إنّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلمُّوا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم ، ما يقول عبادي ؟ قال : تقول : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول هل رأوني ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة ، وأشدّ لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال :

يسألونك الجنَّة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً ، وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فممَّ يتعوّذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله يا ربّ ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً ، وأشدَّ لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم .

وهذا الحديث رواه البخاري في باب فضل ذكر الله عز وجل (فتح الباري : ٢٠٨/١١ -٢٠٩) ومسلم في باب فضل مجالس الذكر (٤/ ٢٠٦٩) والترمذي (٥/ ٥٧٩) وأحمد في المسند (٢/ ٢٥١) .

(٨)

وعلى الجملة فهذا الكتاب ـ بأقسامه المختلفة وبأحاديثه الصحاح ، وبتوثيقه وتبويبه ، وتعليقاته ، وبملاحقه ، وفهارسه ، عمل فريد وجديد ، وهو يسدُّ حاجة المسلم في باب : " **القصص النبوي الشريف** " .

وعلى الجملة فإن حديث رسول الله ﷺ جدير من كلٍّ باحث بكل عناية واهتمام وتبويب وجمع وتصنيف .

إن الحديث هو المصدر الثاني ، بعد كتاب الله عز وجل ـ للشريعة ، وهو الماء الزلال يروي صدأ القلوب ، ويسكب الطمأنينة والسكينة في قلب المسلم ، وهو كذلك معدن البلاغة ، ومصدر البيان ، والمعلم للشباب في الفصاحة وحسن التنظيم ، وجمال الأسلوب ، وروعة الأداء .

ولا تسلْ عن بلاغة رسول الله ﷺ وفصاحته وجلال أسلوبه وروعة بيانه ، وعظمة نظمه ، وجمال سبكه ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) ص ١٦ من الكتاب .

(٢) ص ٢٢،٢١،٢٠،١٩،١٨،١٧ من الكتاب .

(٣) ص٢٣_٣٥ المصدر نفسه (القصص النبوي) .

(٤) ص ٣٨_٤١ المصدر نفسه .

(٥) ص ٤١_٤٣ المصدر نفسه .

(٦) ص١٥ من المصدر نفسه .

(٧) يعني الرسول ﷺ بها السيدة حليمة السعدية .

(٨) هو عبد الله بن الحارث السعدي ـ أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة وأخته هي الشيماء بنت الحارث والشيماء اسم شهرت به فلا تعرف في قومها إلا به . ولهما أخت أخرى هي أنيسة بنت الحارث .

(٩) الحديث رواه الدارمي في المقدمة رقم ١٣ ص ١٢ ج ١ ـ ورواه أحمد في المسند ٤/ ١٨٤ . هذا وشق الصدر الشريف تكرر غير مرة : فمرة في طفولته ﷺ وهي هذه ، ومرة عند المبعث ، ومرة عند الإسراء والمعراج ، وحصل شق الصدر مرة رابعة فيما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى جالسا وقال : إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها وبخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان حتى إذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما حساً فقال أحدهما لصاحبه : أفلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة .. إلخ .

السمط الثمين
في مناقب أمهات المؤمنين

للإمام محب الدين الطبري

٦١٦-٦٩٤هـ / ١٢١٩-١٢٩٥م

(١)

نحن مع كتاب رائع من كتب التراث الإسلامي الخالد ، مع كتاب " **السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين** " للإمام محب الدين الطبري شيخ الحرم المكي ، ومحدث الحجاز في عصره .

كان من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي تلقى ثقافته الإسلامية في مدينة قوص ، وهي من مراكز الثقافة الإسلامية في صعيد مصر في هذا العصر . وكان من أساتذته الأجلاء فيها الشيخ مجد الدين القشيري والد شيخ الإسلام تقي الدين القشيري ، وغيره من أعلام علماء عصره .

وله العديد من الكتب في الحديث والتاريخ وغيرهما ، ومن تأليفه كتاب في فضل مكة ، وكتاب المختصر في الحديث ، وكتاب الأحكام ، وكتابه الذي نقدمه وهو " **السمط الثمين** " .

طاف بكثير من البلاد الإسلامية ، ودعاه الملك المظفر ملك اليمن ، وهو أحد ملوك الدولة الرسولية ، ليسمع عليه الحديث النبوي ، فتوجّه إليه من مكة ، وأقام عنده مدة ، وغلبه الحنين إلى بلد الله الحرام ، فكتب في الشوق إليها قصائد بليغة ، وروى بعضها السبكي في كتابه " طبقات الشافعية " في ترجمة للإمام الطبري ، وتوفي عن ثمانية وسبعين عاماً ، فلقى ربه راضياً مرضياً .

(٢)

يقول الطبري في مقدمة كتابه :

هذا مؤلف سميته بالسمط الثمين ، جمعت فيه ما ورد في مناقب أمهات المؤمنين .

ويتحدث الطبري عن زوجات رسول الله ﷺ واحدة واحدة ، ومناقب كل واحدة منهن ، ثم يتحدث في آخر كتابه عن بنات رسول الله ﷺ .

ولقد تزوج رسول الله ﷺ إحدى عشرة امرأة ، ماتت منهن اثنتان في حياته الشريفة ، وهي خديجة أم المؤمنين وزينب الهلالية أم المساكين رضي الله عنهما . ومات ﷺ عن تسع من أمهات المؤمنين ، وهو أمر خص الله عز وجل به نبيه الكريم ﷺ .

ولقد قضى رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عاماً من حياته وليس له إلا زوجة واحدة .

وجميع زوجاته ما عدا عائشة كن كلّهن أرامل أو مطلقات : فخمس منهن أرامل ، مات عنهن أزواجهن المسلمون وثلاث منهن كن من خصومه وأعدائه من القبائل العربية أو من اليهود ، هذا بينما كان لسليمان النبي عليه السلام مئات النساء وكان لداود مائة امرأة .

وهكذا كان بعض هذا الزواج تأليفاً لبعض القبائل العربية لتدخل في دين الله ، وكان بعضه تكريماً لنساء عرفن بالبطولة وعظمة الجهاد في سبيل الدعوة والرسالة ، أو لنساء استُشهد أزواجهن في حروب الإسلام الأولى ، ولهن أبناء ، وليس لهن من يقوم بأمور معيشتهن ، وكان بعض زوجات رسول الله يعتبرْنَ هذا الزواج وسام شرف لهن ، ويهبن نصيبهن من رسول الله ﷺ لغيرهن .. وتقول عائشة : إن سودة جعلت يومها وليلتها من رسول الله ﷺ لي ، فكان رسول الله ﷺ يقسم لي يومين : يومي ويوم سودة . ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غير عائشة .

ويفيض الإمام الطبري في ذكر عدل رسول الله ﷺ بين زوجاته ، عدلاً كان المثل الرفيع في معاملة الأزواج لزوجاتهن .

ويروي الطبري عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ لم يتزوج قبل البعثة غير خديجة ، ولا تزوج عليها حتى ماتت في العام الخمسين من ميلاده ﷺ ، وكان أولاده كلهم من خديجة ، ما عدا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطية . وكان رسول الله ﷺ يقول فيها : آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء .

وأمهات المؤمنين : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة المخزومية ، وسودة ، وهن قرشيات .

ثم ميمونة الهلالية ، وجويرية الخزاعية وصفية اليهودية وهي من بني النضير .

ومن زوجاته : زينب بنت جحش الأسدية ، وزينب الهلالية أخت ميمونة رضي الله عنهنّ وأرضاهن .

(٣)

وعائشة أم المؤمنين : هي من هي ، وتقول رضي الله عنها ما تزوّجني رسول الله ﷺ حتى أتاه جبريل بصورتي ، فقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة .

وأما سودة ، فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها فلما عادا إلى مكة توفي زوجها ، فتزوجها رسول الله ﷺ .

وأم سلمة مات زوجها شهيداً في العام الرابع من الهجرة ، فتزوجها رسول الله ﷺ عوناً لها على تربية أبنائها .

أما صفية فهي بنت حُييّ بن أخطب ملك خيبر غير المتوج ، وقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد غزوة خيبر .

وزينب الهلالية ، لقبت بأم المساكين إذ كانت صاحبة اليد الطولى في البر والخير .

(٤)

وبعد فهذا الكتاب من الكتب المتصلة بالسيرة النبوية الشريفة ، والتي تصور لنا بيت رسول الله ﷺ ، وما كان عليه من شرف باذخ ، ومجد كريم وأسوة حسنة ، ودين وخلق رفيعين .

ﷺ في الأولين

وﷺ في الآخرين

معجزة الإسراء والمعراج
كما تحدث عنها الإمام السيوطي
في كتابه (الخصائص الكبرى)

(١)

بدأ الإمام السيوطي الحديث عن هذه المعجزة الخالدة بذكر الآية الكريمة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الإسراء: ١]

وحديث الإسراء والمعراج رواه جمع غفير من أعلام الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وإذا كان القرآن الكريم هو الذي نوه بهذا الشرف الكبير لمحمد الرسول الأمين ﷺ ولأمته أمة الوسط ، فإن ذلك أكبر مجد وأعظم وسام يوضع على صدر الأمة الإسلامية .

إن حديث الإسراء والمعراج ورد مطولاً ومختصراً ، عن أنس ، وأبي بن كعب ، وبريدة ، وجابر بن عبد الله ، وحذيفة بن اليمان ، وسمرة بن جندب ، وسهل بن سعد ، وشداد بن أوس ، وصهيب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، وأم هانئ ، وعبد الله بن أسعد بن زرارة ، وعبد الرحمن بن فرط، وعمر بن الخطاب ، ومالك بن صعصعة ، وأبي أمامة ، وأبي أيوب الأنصاري ، وأبي ذر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي سفيان بن حرب ، وأبي ليلى الأنصاري ، وأبي هريرة ، وعائشة وأسماء بنتي أبي بكر ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

وبهذا التوثيق يبدأ السيوطي الحديث ، وإن كان ذكر القرآن الحكيم للمعجزة يكفي ويغني عن كلّ توثيق .

(٢)

وعن أنس ـ كما جاء في البخاري ـ قال : ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، وقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عيناه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه ، فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبرائيل فشق ما بين نحره إلى لبّته ، حتى فرغ في صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده ثم أتى بطست من ذهب محْشُوٍّ إيماناً وحكمة ، فحشا به صدره ، ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها ، فقيل من هذا ؟ قال : جبرائيل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحباً به وأهلاً ، ووجد في السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلم ، ورد عليه آدم : مرحباً وأهلا يا بني ، نعم الابن أنت ، ثمّ عرج به إلى السماء الثانية ، ثم إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ذلك ، ثم إلى السماء الرابعة ، ثم إلى الخامسة ، ثم إلى السادسة ، ثم إلى السماء السابعة ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى .

أما حديث أنس ، برواية النسائي ـ ففيها : أتيت بدابة فركبت ومعي جبرائيل ، فسرت ، فقال : انزل فصلِّ ، ففعلت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطيبة ، ثم قال : انزل فصلِّ ، ففعلت : فقال : أتدري أين صلَّيت ؟ صلَّيت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم قال : انزل فصلِّ ، ففعلت ، فقال : أتدري أين صلَّيت ؟ صلَّيت ببيت لحم حيث ولد عيسى ، ثم دخلت بيت المقدس ، فجمع لي الأنبياء ، فقدمني جبريل حتى أممتهم ، ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم ، وإلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى ، ثم إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف ، ثم إلى السماء الرابعة فإذا فيها موسى ، وفي السماء السابعة رأى إبراهيم

عليه السلام ، ثم صعد بي فوق سبع سموات ، وأتيت سدرة المنتهى ، فغشيتني ضبابة وخررت ساجداً ، فقيل لي : فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت أو أمتك فرجعت إلى موسى ، فقال : ما فرض ربك عليك وعلى أمتك ؟ فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجعت ، فخفف عني عشراً ، ثم عشراً ، ثمّ عشراً ، ثم عشراً ، حتى قال : هنّ خمس بخمسين ، فعرفت أنّها من الله تبارك وتعالى حكم ، فلم أرجع .

وفي حديث أنس ـ في رواية أبي حاتم ـ أن رسول الله ﷺ لقي في السماء الرابعة إدريس ، وفي الخامسة هارون ، وفي السادسة موسى ، وأن رسول الله ﷺ لما خرّ ساجداً لله عند سدرة المنتهى ، قال الله له : " يا محمد إني فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت وأمتك " ، ثم انجلت عني السحابة ، وأخذ بيدي جبريل ، فانصرفت سريعاً ، فأتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً ، ثم أتيت على موسى ، كما مر من قبل . ثم ركبت منصرفاً ، فبينما هو في بعض طريقه مرّ بعير لقريش تحمل طعاماً ، ثم إنه مضى ، فأصبح ، فأخبر عمّا كان ، فلمّا سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر ، فقال (أبو جهل) يا أبا بكر ، هل لك في صاحبك بخبر أنه في ليلته هذه أتى مسيرة شهر ثمّ رجع في ليلته فقال أبو بكر : إن قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء ، فسمّي أبو بكر من يومئذ الصديق ، فقال المشركون لرسول الله ما قالوا .

(٣)

وحديث الإسراء والمعراج في حديث شداد بن أوس ، أن أبا بكر قال لرسول الله ﷺ في صباح ليلة الإسراء والمعراج : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مظانك ؟ فقال ﷺ : أعلمت أني أتيت بيت المقدس الليلة ؟ فقال : يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي ، قال ﷺ ففتح لي صراط كأني أنظر إليه ، لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه ، قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله .

(٤)

وفي حديث ابن عباس عن الإسراء والمعراج ، يقول ابن عباس : قال رسول الله ﷺ لما كان ليلة أسري بي ، فأصبحت بمكة ، فقمت ، وعرفت أن الناس مكذبيّ ، فقعد رسول الله ﷺ معتزلاً حزيناً ، فمر به أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له : كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ قال : نعم ، قال : وما هو ؟ قال : إني أسري بي الليلة ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ، قال : نعم ، فمن بين مصفق ، ومن واضع يده على رأسه متعجباً ، قالوا : وتستطيع أن تنعت المسجد ، وفي القوم من قد سافر إليه ، قال رسول الله ﷺ : فذهبت أنعت ، فمازلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت ، فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، فقال القوم : أمَّا النعت فو الله لقد أصاب .

(٥)

وفي حديث أبي هريرة عن الإسراء والمعراج يقول : ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل ، ثم دخل ، فصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة ، قالوا : يا جبرائيل ، من هذا معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء ، ثم لقي أرواح الأنبياء ، فأثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم : الحمد لله الذي اتخذني خليلاً ، وأعطاني ملكاً عظيماً ، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي ، وأنقذني من النار ، وجعلها عليّ برداً وسلاماً ، وأثنى موسى على ربه فقال : الحمد لله الذي كلمني تكليماً ، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون ، ثم إن داود أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي جعل لي ملكا عظيماً ، وعلمني الزبور ، وألان لي الحديد ، وسخر لي الجبال يسبحن والطير وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب ، ثمّ إن سليمان أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرياح ، وسخر لي الشياطين ، وعلمني منطق الطير ،

وسخر لي جنود الشياطين والإنس ، والجن ، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين ، وأتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ثم إن عيسى أثنى على ربه فقال : الحمد لله جعلني كلمته ، وجعل مثلي ومثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له **(كن فيكون)** ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ثم إن محمداً أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علي الفرقان فيه بيان لكل شيء ، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتي وسطاً ، وشرح لي صدري ووضع عني وزراً ، ورفع لي ذكري ، وجعلني فاتحاً وخاتماً ، فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد ، ثم صعد السماء حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فكلمه الله عند ذلك ، قال النبي ﷺ فضلني ربي وأرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً .

(٦)

وفي حديث أم هانئ قالت : ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا فلما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله ﷺ ـ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس ، فصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترين ، وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم ما رأيت ، فأخذت بثوبه ، فقلت : إني أذكرك الله إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يسطوا بك ، فضرب ثوبه من يدي ، ثم خرج إليهم ، فأتاهم وهم جلوس ، فأخبرهم فقام مطعم بن عدي فقال : يا محمد لو كنت شاباً كما كنت ما تكلمت بما تطلعت به ، وأنت بين ظهرانينا ، وصدقه أبو بكر فسمي من يومئذ الصديق ، واستمر المطعم بن عدي في كلامه يقول : كل أمرك قبل اليوم أَمَمٌ ، غير قولك اليوم ، أشهد أنك كاذب ، فقالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس ، قال: دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً ، فأتاه جبريل بصورة له في جناحه فأخذ يصفه

وأبو بكر يقول : صدقت صدقت ومشركو مكة يقولون : لم نسمع بمثل هذا قط ، وقال رسول الله ﷺ لجبريل : يا جبريل ، إن قومي لا يصدقونني ، قال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق ، واقتسم الناس يومئذ ، ومنهم من كانوا صلوا وأسلموا ، وقال رسول الله ﷺ : قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه ، وأنزل الله تعالى : ﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... ﴾ [الإسراء: ٦٠]

[١/ ٣٠٠ : الطبقات الكبرى : ٤/ ٥٥١ : الدر المنثور ، ٢/ ٢٥٨ : دلائل النبوة للبيهقي]

(٧)

ومن عجب أن يتردد بعض الناس من العقلاء في أمر معجزة الإسراء والمعراج ، ونسوا أو تناسوا جلال الله وعظمته وقدرته في هذا الكون العظيم . إن قدرة الله في الأرض والسماء والكون لا تحدها حدود ولا تسيطر عليها قوانين ، وإذا كان "زويل " العالم المصري قد وصل إلى تقسيم الثانية الواحدة إلى " ٣٢ مليون ثانية " ، من خلال " وحدة الفمتوثانية " واستطاع أن يرصد ما يمكن أن يحدث خلال الثانية الواحدة وكأنه دهر من خلال أشعة الليزر ، كما يقول الباحث عبد الهادي مصباح من مقال له في صحيفة (الأخبار : عدد ٥/ ١١/ ١٩٩٩م) ! أفلا تصنع قدرة الله معجزة كمعجزة الإسراء والمعراج ؟!

وصدق رسول الله ﷺ فيما يقول : " ولم أزل أنزل من سماء إلى سماء ، فما مررت على شيء في السموات إلا وهو يقول " **لا إله إلا الله محمد رسول الله** " ، فلما انتهينا إلى السماء الدنيا إذ الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر وأتيت مكة ونزلت عن البراق فودعني جبريل ، وقال : " يا محمد إذا أصبحت فحدث قومك بما رأيت من العجائب في هذه الليلة ، وبشرهم برحمة الله تعالى " ، فقلت : " يا أخي يا جبريل إني أخاف أن يكذبوني " ، فقال جبريل : " إن كذبوك صدقك أبو بكر فلا تبال بمن كذبوك بعده " .

إن الحكمة في الإسراء به ، كما ذكر السيوطي عن ابن المنير (ت ٦٨٣هـ) في كتابه " أسرار الإسراء " : أولاً إلى بيت المقدس ، ثم إلى السماء حصول الهجرتين ، لأن بيت المقدس كان إليه هجرة غالب الأنبياء ، فحصل للرسول ﷺ الرحيل في الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل ووجوه السبل إلى بيان صدقه بخلاف ما لو أُسْرِيَ به ابتداءً إلى السماء .

وقد كان يكفي السيوطي أن يقول : إن الحكمة في هذه المعجزة الجليلة أن يرى الرسول ﷺ قدرة الله جل وعلا في السماء والأرض ، ليعلم أن المكذبين لرسالته مآلهم الهزيمة والخسران ، وأن دين الله غالب منصور ، وأن حزب الله هم الغالبون

﴿ ... أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]

إن حكمة هذه المعجزة الجليلة كبيرة وكثيرة ، إنها تدل على ما أسبغه الله على القدس وعلى بيت المقدس من الجلال والمجد والعظمة بالإسلام وحده ، وأن مكانة القدس ومسجدها الأقصى في الإسلام مكانة جليلة ، ومنزلتهما عند الله وملائكته وعند الناس عامة والمسلمين خاصة منزلة رفيعة ، وأن الله عز وجل هو الحامي لهما من جرائم الصهيونيين ، ووحشية المحتلين المتجبرين ، وأنه عز وجل جعلهما في حمايته وأنهما لا يستطيع مجرم سفاك أن ينالهما بسوء مهما ملك من أسباب القوة والجبروت .

إن الحقّ الإلهي ليؤكِّد حقّ المسلمين في أرضهم ودارهم وقدسهم ومسجدهم الأقصى العظيم ، وأنهم لهم النصر و الغلبة والفوز في معركتهم معركة الجهاد من أجل حماية المقدسات الإسلامية ولهم النصر بإذن الله ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣]

وأقول للشاكين في الإسراء والمعراج ، ويقولون إن السرعة الفائقة في الإسراء والمعراج ليست المقصودة ، أقول لهم : إن عفريت سليمان عليه السلام نقل عرش

بلقيس من اليمن إلى الشام في ثوان معدودة ، يقول الله عز وجل في كتابه الكريم في سورة النمل :

قال الله تعالى : ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠]

فكيف يصنع عفريت من الجن مثل ذلك ، ويكون عمل العفريت مقبولاً ، وعمل الله جل جلاله المعجزة مستغرباً ، ومشكوكاً فيه ، اللهم لا . ثمَّ لا .

إن قصة الإسراء والمعراج المعجزة حقيقة واقعة ومعجزة ، وأية معجزة !

أسد الغابة في معرفة الصحابة
لعز الدين بن الأثير
(٥٥٥-٦٣٠هـ)

(١)

ثلاثة إخوة كانوا أئمة في العلم ، عاشوا في عصر الحروب الصليبية ، عصر الدولة الأيوبية التي كانت لها السيادة الكاملة على مصر والشام . وفي ظلالها عاش العلماء الثلاثة :

١ - أبو الحسن علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين ابن الأثير صاحب كتابنا الذي نتحدث عنه في هذه الصفحات . وقد نشأ في أسرة علمية لها جلالها ومجدها ، ولها الشرف الباذخ في إقليم الموصل ، الذي تنتمي هذه الأسرة إلى قرية من قراه هي جزيرة ابن عمر يوسف الثقفي أمير العراقين . وكان أحد المؤرخين المسلمين الأعلام ، فهو مؤلف كتاب " **الكامل** " في التاريخ .

٢ - مجد الدين أبو السعادات المبارك (٥٤٤-٦٠٦هـ) ، وهو مؤلف : " **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ﷺ " ، وكتاب " النهاية في غريب الحديث والأثر " . وكان محدثا كبيراً له شهرته في مجال الحديث النبوي الشريف .

٣ - ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨-٦٣٧هـ) ، وكان أديباً شاعراً وكاتباً وناقداً ، وكتابه " **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** " مشهور ، له كتب كثيرة في الأدب والنقد والبلاغة .

(٢)

ويقول ابن حجر عن صاحب كتاب " **أسد الغابة** " : " في أوائل القرن السابع جمع عز الدين ابن الأثير كتابا حافلاً سماه " **أسد الغابة** " ، جمع فيه

كثيراً من التصانيف المتقدمة . وقد ترجم في هذا الكتاب لسبعة آلاف وخمسمائة وخمسة وأربعين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ .

وقد عُنِيَ العلماء المسلمون بالتاريخ لصحابة رسول الله ﷺ عناية كبيرة . وكان من أشهر من ألف في ذلك ابن سعد ، وهو محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨-٢٣٠هـ) ، وكتابه " **الطبقات الكبرى** " مشهور ومطبوع .

وممن عُنِيَ كذلك بضبط أسماء الصحابة والتاريخ لهم :

- خليفة بن خياط " ٢٤٠هـ " .
- الإمام البخاري محمد بن إسماعيل " ١٩٤ - ٢٥٦هـ " .
- الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبي داود " ٣١٦هـ " .
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني " ٣٣٦ - ٤٣٠هـ " ، وكتابه " **حلية الأولياء** " .
- أبو عمر النمري القرطبي ابن عبد البر " ٣٦٨-٤٦٣هـ " صاحب كتاب " **الاستيعاب في أسماء الأصحاب** " ، ذكر فيه ٤٢٢٥ صحابياً .
- أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني المديني المحدث " ٥٠١-٥٨١هـ " ، وقد ألف ذيلاً على كتاب ابن مندة " -٣٠١هـ " في تاريخ الصحابة اشتمل على أسماء كثيرين منهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكثيرون آخرون من العلماء ممن عنوا بتاريخ صحابة رسول الله ﷺ والتأليف فيه ، وممن يضيق هذا المقام عن ذكرهم .

(٣)

وكتاب ابن الأثير من أجمع ما كتب في هذا الباب . وشهرته العلمية عند العلماء والمحدِّثين والمؤرخين معروفة .

ويقول ابن الأثير في صدر كتابه إن رواة سنة رسول الله ﷺ " لم يضبطوا ولا حفظوا في عصرهم ، كما فعل بالتابعين وغيرهم إلى زماننا هذا " .

ويعرف الصحابة بأنهم الذين شهدوا رسول الله ﷺ ، وسمعوا كلامه ، وشاهدوا أحواله ، ونقلوا ذلك إلى من بعدهم من الرجال والنساء .

ويشير ابن الأثير في المقدمة بصنيع : ابن مندة ، وأبي نعيم ، وابن عبد البر في هذا الباب .

ويذكر سبب تأليف الكتاب بأنه قرأ ما كتبه ابن مندة وأبو نعيم وأبو موسى الأصفهاني وابن عبد البر ، فعزم على أن يجمع بين كتبهم الأربعة ، ولكن الأيام لم تسعفه ، ثم يقول " واتفق أنْ سافرت إلى بيت المقدس ، جعله الله داراً للإسلام أبداً ، فاجتمع بي جماعة من أعيان المحدثين ، حثوا عزمي على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة ، أستقصي فيه ما وصل إليَّ من أسمائهم ، فثار العزم الأول ، وتجدّد ما كنت أحدث به نفسي ، وشرعت في جمعه والمبادرة إليه .

ويذكر ابن الأثير أنه رتب كتابه على حروف المعجم . ويُعنَى بذكر المصادر التي رجع إليها في تخريج الأحاديث التي أوردها في كتابه ، وأول ترجمة صدَّر بها ابن الأثير كتابه هي ترجمة رسول الله ﷺ .

ثم يرتب تراجمه على حروف الهجاء ، فتأتي الترجمة للصحابي الجليل ، أبي اللحم الغفاري المقتول يوم حنين ، ثم تأتي الترجمة للصحابي أبان بن سعيد بن العاص القرشي الأموي ، وهو صحابي تأخر إسلامه ، حيث أسلم في أواخر عام ستة من الهجرة . وسبب إسلامه ـ كما يذكر ابن الأثير ـ مع ما كان عليه من الشدة على رسول الله ﷺ والمسلمين أنه خرج في تجارة إلى الشام ، فلقي راهباً ، فسأله عن رسول الله ﷺ وقال له : إني رجل من قريش ، وإن رجلاً منا خرج فينا ، يزعم أنه رسول الله ﷺ ، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى ، فقال له الراهب : وما اسم صاحبكم ؟ فقال له أبان : محمد ، فرد عليه الراهب واصفاً له محمداً رسول

الله ﷺ وسنه ونسبه . فقال أبان : هو كما وصفت ، فقال الراهب : والله ليظهرن على العرب ، ثم ليظهرن ، فإذا جئت مكة فاقرأ عليه مني السلام . فعاد أبان إلى مكة فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية تبعه أبان فأسلم وحسن إسلامه وبعثه رسول الله ﷺ إلى نجد على رأس سرية من المسلمين ، ثم ولاه البحرين بعد العلاء بن الحضرمي . فلما توفي رسول الله ﷺ عاد أبان إلى المدينة فأراد أبو بكر أن يرده إلى البحرين ، فأبى أبان ، وقال : لا أعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ " . وقُتل أبان وأخوه سعيد يوم اليرموك ، في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة ، في خلافة عمر ، وقيل : بل قتل يوم أجنادين في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة من الهجرة في خلافة أبي بكر وقبل وفاته بقليل . وقيل بل توفي يوم مرج الصفر عند دمشق سنة أربع عشرة من الهجرة ، وقيل بل توفي عام تسعة وعشرين ، ويؤيد هذا القول الأخير رواية من روى أنه قد أملى مصحف عثمان على زيد بن ثابت بأمر عثمان خليفة المسلمين .

ويترجم في حرف الهمزة لإبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، وأمه مارية القبطية التي أهداها المقوقس لرسول الله ﷺ هي وأختها سيرين ، فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت ، فولدت عبد الرحمن بن حسان ، وقد ولد إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة ، في مدينة رسول الله ﷺ ، في العالية وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله ﷺ ، وبشر أبو رافع مولى رسول الله النبي ﷺ بميلاده ، فوهب له عبداً ، وسر الرسول ﷺ بمولده كثيراً . ثم دفعه إلى امرأة بالمدينة ترضعه ، اسمها أم سيف . وقال الزبير : إن الأنصار تنافسوا فيمن يرضعه ، فجاءت أم بردة من بني النجار ، فكلمت رسول الله ﷺ في أن ترضعه ، فكانت ترضعه بلبن ابنتها في بني مازن بن النجار ، وترجع به إلى أمه . وتوفي إبراهيم وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، كما قال الواقدي ، وقيل توفى عن ستة عشر شهراً وثمانية أيام ، وصلى عليه رسول الله ﷺ ، ودفن بالبقيع ، وكان إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فوضعه في حجره ، وهو يقول : " يا إبراهيم إنّا لا نغني عنك من الله شيئاً " ، ثم ذرفت عيناه بالدموع ، ثم قال ﷺ :

يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك حزناً أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكي العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرَب .

ولما توفي إبراهيم اتفق أن الشمس كسفت يومئذ ، فقال قوم : إن الشمس انكسفت لموته ، فخطبهم رسول الله ﷺ ، فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة .

(٤)

وهكذا يستمر ابن الأثير في تراجمه لصحابة رسول الله ﷺ ، عَلَماً ، عَلَماً ، مُحقِّقاً ، ومدققاً ، ومحاوراً ، ومناقشاً لمختلف الروايات ، ومُرَجِّحاً لما يرى ترجيحه ، ومخرجاً للأحاديث ، ومسنداً لها ، وضابطاً للأعلام .

ولا يذكر من الأعلام إلا من لقي رسول الله ﷺ ، وسمع كلامه ، وشاهد أحواله . ويعيب على من ترجموا للصحابة حين يعدون الأحنف بن قيس معهم ، وهو لم يلق رسول الله ﷺ ، وكان ظهوره في خلافة عمر ، وإن كان عاش في حياة النبي ﷺ ، ولكنه لم يره ، ودليل أنه شاهد عصر الرسول ﷺ وأنه لقي عمر في وفد أهل البصرة ، وهو رجل من أعيانهم . ويقول ابن الأثير في صدر كتابه عن الأحنف : ولا أعلم لم ذكروه وغيره ممن هذه حاله ، فإن كانوا ذكروهم لأنهم كانوا موجودين على عهد رسول الله ﷺ مسلمين ، فكان ينبغي أن يذكروا كل من أسلم في حياة الرسول ، ووصل إليهم اسمه . " مقدمة الكتاب " .

وأول عَلَمَ يذكره ابن الأثير في حرف الباء هو " باقوم الرومي " ، وكان نجاراً بالمدينة فأسلم ، وهو مولى سعيد بن العاص ، وهو الذي صنع لرسول الله منبره ثلاث درجات .

ويترجم لبلال بن رباح الحبشي ، فيذكر أنه شهد بدراً والمشاهد كلها ، وأنه كان من السابقين إلى الإسلام ، وممن عُذِّبَ في الله فصبر على العذاب ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في حياته سفراً وحلاً ، وهو أول من أذَّن له في الإسلام . وأقام في الشام بعد وفاة رسول الله ﷺ مجاهداً . ولم يؤذن بعد رسول الله ﷺ لأحد ، فلمّا دخل عمر الشام أذَّن له مرة واحدة ، ولم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم ، ومات بلال سنة ١٧هـ أو ١٨ هـ وقيل سنة ٢٠هـ ، بدمشق .

ويذكر ابن الأثير أن بلالاً قدم من الشام لزيارة مسجد رسول الله ﷺ ، فأقبل إلى المدينة ، فأتى قبر الرسول ﷺ ، فأقبل الحسن والحسين فأخذ يقبلهما ويضمهما إلى صدره ، فقالا له : نشتهي أن تؤذن في السحر ، فعلا سطح مسجد رسول الله ﷺ ، فارتجت المدينة حين سمعت صوت بلال مؤذن رسول الله ﷺ .

ويترجم للحسن بن علي ، ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (٣ـ٤٩هـ) وفيه وفي الحسن أخيه قال رسول الله ﷺ : " الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ! " وقال فيهما : " هما ريحانتاي من الدنيا " .

كما يترجم ابن الأثير للحسين بن علي (٤ـ٦١هـ) سيد الشهداء .

ويترجم لخالد بن الوليد القائد البطل ، وصاحب النصر في معركة اليرموك وغيرها من كبريات المعارك في الإسلام ، وتوفي خالد بحمص من الشام سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر .

ويخصص آخر الكتاب لتراجم الصحابيات من النساء ، ويرتبهن كذلك على حروف المعجم ، صحابية إثر صحابية .

(٥)

والكتاب بحق موسوعة كبرى في تاريخ الإسلام وأعلامه في عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ، وصدر من بني أمية ، ولا يستغني عنه مؤرخ يريد أن

يؤرخ لحياة المسلمين في تلك الحقبة الخالدة من تاريخ الإسلام كما لا يستغني عنه مؤرخ لسيرة رسول الله ﷺ ، ولسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

والكتاب في جودة تحقيقاته ، وفي تثبت صاحبه في الأخبار والروايات ، وفي كل ما يورده من أنباء وحقائق تاريخية وإسلامية مثل يُحْتذَى ، وعمل جليل يُنْتَفَعُ به .

وهو مطبوع عدة طبعات ، منها طبعة في إيران ، وأخرى في القاهرة في دار الشعب ، إلى طبعات كثيرة أخرى .

وهكذا كان لابن الأثير المؤرخ عمل كبير في تاريخه لصحابة رسول الله ﷺ في هذا الكتاب الخالد ، كما كان له عمل كبير في تاريخه لدول الإسلام وملوكه إلى عصر الحروب الصليبية حتى عام ٦١٦هـ . وعاش ابن الأثير المؤرخ ، وأدرك طرفا من غارات التتار على شرقي العالم الإسلامي ، ثم مات عام ٦٣٠هـ-١٢٢٣م ، ودفن بالموصل ، قبل سقوط بغداد في أيدي التتار وانتهاء الخلافة العباسية بستة وعشرين عاما ، وكان النذير للمسلمين في كتابه الكامل ، بما يهدد الإسلام والمسلمين على أيدي التتار ، من نكبات لا يتصورها عقل .

وإذا كان ابن الأثير المؤرخ قد انتقل إلى عالم الخلود منذ ٧٦٠ عاماً ميلادياً ، فإن كتابيه : " **أسد الغابة** " **والكامل** " ، لسان ذكر له في كل مكان منذ وفاته حتى عصرنا ، رحمه الله .



عمر بن الخطاب والشعر [1]

الفاروق عمر بن الخطاب كرمه الله في مثواه ، ولقَّاه الأمن والبشر والبشرى في أخراه ، بجوار رسول الله ﷺ ورفيقه أبي بكر الصديق الأوفى .

ومَنْ كالفاروق ، بطل من أبطال الإسلام ، وباني الدولة الإسلامية الكبرى ، وفاتح الشام ومصر وفارس ، وبحسبه أنه صاحب نصر اليرموك الأعظم ، ومن كالفاروق في عدله وعلمه وفقهه ، وسياسته وشخصيته ، وفي زهده وورعه وتقواه .

من أمثلته في عبادته وطاعته وخشيته من الله ورسوله وحبه لله ولرسوله الأكرم ﷺ ، يقول الجاحظ في كتابه " العثمانية " (ص : ٩٤-٩٥) : أبو بكر ردّ الإسلام في نصابه بردّ أهل الردة ، وهو الفتح الأكبر ، وقتل مسيلمة ، وأسر طلحة ، وغزا العدو وحمى الحوزة ، وعمر دوّن الدواوين ، وجنّد الأجناد ، ومصّر الأمصار ، وبلغت خيله أفريقية ، وأوطأ خيله خراسان ، وأقصى كرمان ، وأزال ملك بني ساسان ، وعثمان افتتح الثغور كلها ، افتتح أرمينية وأذربيجان ، وافتتح أفريقية ، وافتتح سجستان .

ونحن الآن مع - **ديوان عمر بن الخطاب** - في كتاب يقع فيما يقارب الخمسمائة صفحة ، في طبعة مشرقة ، يحتوي على أبواب وأقسام كبيرة تدور حول :

آداب الشعر عند الفاروق ، وأحكام الشعر ، وحول : تمثل الفاروق بالشعر ، وطلب استماع الفاروق للشعر وإنشاده بين يديه ، وعلم الفاروق بالشعر مع النقد والتذوق الأدبي ، وأثر الشعر على الفاروق وما قيل في الفاروق من الشعر ، وحول : أخبار عن الفاروق عمر جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وفي مقدمة الديوان ترجمة للفاروق عمر ، " وفي القسم الأول " يفيض المؤلف

(١) بقلم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .

في الحديث عن موقف الإسلام والرسول ﷺ من الشعر والشعراء، وفي الثاني يذكر رأي الإسلام في الشعر وإنشاده، وفي الثالث يذكر مواقف عديدة للفاروق من الهجاء متعرضاً لموقف الإسلام من هذا الفن الشعري المثير، والرابع وهو أهم الفصول عن ما نسب لعمر من الشعر، يقول المؤلف، الشعر الذي نسب إلى الفاروق قليل جداً، وذلك لا يمنع من أن يكون هو لب الموضوع وجوهر البحث، وباقي جوانب الديوان إنما هي إضاءة له، وظل من ظلاله، ومن ثم كان كلّ ما تقدمه أو تلاه في خدمته، وشرحنا لعناية عمر بن الخطاب بالشعر، وتذوقه له ولاهتمامه بأمر الشعر والشعراء كصوت إعلامي رفيع لخدمة الدعوة والعقيدة وشريعة التوحيد. ومما ينسب لعمر من الشعر قصيدة قالها حين أسلم ومطلعها:

الحمد لله ذي المنِّ الذي وجبت لـه علينا أياد كُلُّها عِبـر

وهي ثمانية أبيات لا غير، وقصيدة أخرى تنسب إليه قالها بعد وفاة المصطفى ﷺ.

وتمثل الفاروق بالشعر كثير، وهو ما يبحثه المؤلف في الفصل الخامس، كذلك طلب الفاروق سماع الشعر وإنشاده بين يديه وهو موضوع الفصل السادس، وعلم الفاروق بالشعر مع النقد والتذوق النقدي شيء لا يحتاج إلى شرح وتفصيل وهو موضوع الفصل السابع من الكتاب. فمن هو كالفاروق علماً بالشعر وتذوقاً له، يقول المؤلف هنا في كتابه الشامخ " **ديوان عمر بن الخطاب** " : "كان عمر من فصحاء العرب، وبلغائهم وخطبائهم، فقد كان سفير قريش وهو دون السابعة والعشرين " .

ويتحدث المؤلف عن عمر الناقد الأدبي ويذكر رواية لعمر، وهي أنه قال لابن عباس ذات يوم، هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

ولو أن حمداً يُخلِد الناس أُخْلِدوا ولكـن حـمد الناس ليس بمخلـد

قلت : ذاك زهير ، قال : فذاك شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب حوشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .

وفي الفصل الثامن يذكر المؤلف ، أثر الشعر على الفاروق في أحكامه ، وسياساته ، ومعاملته للرعية ، وحبه للعدالة ، وحفاظه على كرامات الناس ، وأعراضهم ، وشرفهم .

ويذكر ما قيل من الشعر في الفاروق في الفصل التاسع ، ويذكر ما قيل من الشعر في الفصل العاشر أخباراً متفرقة عن الفاروق ، وفي ختام الكتاب يجيء العديد من الفهارس الفنية المضيئة للكتاب .

الكتاب موثق في هوامشه بمختلف الروايات ومصادرها العديدة القديمة والحديثة ، مما يعد مرجعاً أميناً في الرواية ، والنقد والدقة والتوثيق ، وذلك كله عمل شاق لا يستطيعه إلا باحث متمرس ، وكاتب غواصة ، ومؤلف قدير ، وذلك جميعه مما يتوافر لهذا الكتاب الذي يعد حجة في بابه دراسة جديدة في موضوعها.



الصحابية الجليلـة
أم عمـارة (رضـي الله عنهـا)
تاليف الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

قصة البطولة الخالدة ، التي كتبتها الصحابية الجليلة الباسلة أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الأنصارية ، والتي بقيت طوال الزمان ، وسام مجد وجلال للإسلام ، وللمرأة المسلمة ، ها هي ذي بين يدي في كتاب مطبوع ، للمفكر الإسلامي الكبير ، عبد العزيز الرفاعي .

ولأول مرة يخرج كتاب عن بطولة وحياة نسيبة بنت كعب الصحابية الجليلة ، يسجل كل أحداث كفاحها ونضالها في سبيل الإسلام الكريم ورسوله ﷺ العظيم ، في دقة بالغة ، وتحليل رائع وأمانة علمية كبيرة ، وفي أسلوب رفيع جليل مؤثر ، وقد كانت كل أخبار حياة أم عمارة روايات متقطعة مبثوثة في شتى كتب السيرة والطبقات لا تروي ظمأ ، ولا تدفع غلة ، فجاء الرفاعي وقدّم لنا سيرة حياة وبطولة أم عمارة عقداً منظماً متسلسل الفكرة ، متتابع الحلقات ، موصول الدراسة ، موحد المنهج ، على أجمل نمط من كتابة سيرة حياة ، وتدوين قصة بطولة .

وصارت بذلك " أم عمارة " كتاباً جليلاً يقرأ ، بعد أن كانت قصة حياة منسية أو شبه منسية ، موزعة في مختلف المصادر الإسلامية الكبيرة ، في السيرة والطبقات والمغازي . وكان لعبد العزيز الرفاعي بذلك فضل ، وأيّ فضل ، على الدراسات الإسلامية ، حين أهدى للقارئ المسلم قصة " أم عمارة " مطبوعة في كتاب ومكتوبة بأجمل لغة ، وبأدق ما يكون التحقيق والأمانة العلمية .

وكتاب " أم عمارة " الصحابية الباسلة " هو الحلقة السادسة من سلسلة المكتبة الصغيرة ، التي يصدرها الرفاعي ، والتي خرج منها خمس حلقات من قبل عن توثيق الارتباط بالتراث ، وجبل طارق ، وخمسة أيام في ماليزيا ، وكعب بن مالك ، وأبي محمد البطال ، البطل المسلم المجاهد في سبيل الله .

وما خرج حتى اليوم من سلسلة المكتبة الصغيرة يدلنا على اتجاهها وطابعها ، فعددٌ منها كان عن توثيق ارتباطنا بتراثنا الإسلامي العربي ، وعدد عن دولة إسلامية هي ماليزيا ، وعدد عن جبل طارق الذي عاش في ظلال الفردوس المفقود الأندلس ، وفي ظلال الحكم الإسلامي فيها ، قروناً طوالاً ، والذي كان أول مكان دخل منه البطل المسلم طارق بن زياد إلى إسبانيا في صباح أول أيام الفتح الإسلامي لها ، ثمّ عدد آخر عن علم من أعلام الإسلام والصحابة هو شاعر رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، وعدد آخر عن بطل من أبطال الإسلام هو أبو محمد البطال المجاهد المسلم الخالد " المتوفى عام ١٢٢ هـ " ، والذي سجل قصة حياته لأول مرة شاب سعودي مثقف هو يحيى ساعاتي ، ثمّ كان هذا العدد الذي درس الكاتب والأديب الكبير عبد العزيز الرفاعي فيه حياة أم عمارة المسلمة الصحابية المجاهدة دراسة تحليل وكشف عن شخصيتها الجليلة الرفيعة .

ألا يدلّنا كل ذلك على الطابع المتميز لسلسلة المكتبة الصغيرة ، هذا الطابع الإسلامي العربي الجليل ، الذي نحن اليوم في حاجة ماسة إليه ، ونحن في معركتنا الكبرى مع الصهيونية العالمية بكل ما وراءها من قوى وبكل ما تحت يدها من إمكانيات وطاقات .

وسلسلة المكتبة الصغيرة هي السلسلة الوحيدة أو اليتيمة في المملكة العربية السعودية ، وهي سلسلة تقف مع السلاسل الأدبية والتاريخية والإسلامية المختلفة التي تخرج من أنحاء عدة في العالم العربي ، وتعد كذلك إحدى العلامات المميزة للكتاب العربي السعودي المعاصر . وبخاصة ونحن نحتفل بعام الكتاب دولياً وعلى أوسع نطاق في الشرق وفي أوروبا وفي كل مكان ، وفي مدينة فرانكفورت اليوم يقام المعرض الدولي السنوي للكتاب ، يقوم مكتب جامعة الدول العربية في بون بالإشراف على الجناح العربي في هذا المعرض وتشترك في المعرض مختلف دور النشر الكبرى في وطننا العربي ، كما تشترك فيه كذلك رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ومعهد الدراسات العربية بالقاهرة ، وبعض المؤسسات والهيئات الثقافية المختلفة في أنحاء العالم العربي .

وبين كل هذه التطورات تبرز سلسلة المكتبة الصغيرة ، في المملكة العربية السعودية ، لتسد ظمأ الشباب إلى المعرفة ولتوجههم إلى أصول ثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا الإسلامية العربية ، ولتكون صورة جميلة للفكر السعودي المعاصر ، ثمّ لتصبح نموذجاً طيباً كذلك للكتاب السعودي الراهن .

إنه عمل جليل ونبيل ، وهو مع ذلك شاق ومضن ، لأنه يسير في طريق طويلة ، من الكفاح والبذل والعطاء .

ويجيء لنا المثل الرفيع اليوم من تاريخنا ، ومن حياتنا ومن ماضينا العظيم ، يجيء المثل لشعوبنا الإسلامية عامّة ، وللمرأة المسلمة على وجه الخصوص ، ونحن نعيش هذه الفترة الحرجة الطويلة من حياتنا ، ونعبئ كل طاقاتنا الروحية لمعركة المسلمين في فلسطين ، ونشهد آثار هذه التعبئة المعنوية والنفسية ، بل الإسلامية ، فيما أصدره مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامية ـ الذي انعقد في جدة تحت رعاية الفيصل بن عبد العزيز ـ من قرارات ومخططات .

يجيء المثل لنا من ديننا العظيم ، ومن جهاد أسلافنا الأولين من المسلمين ، ومن صحابة رسول الله ﷺ المجاهدين ، في سبيل الله ، ومن أجل نشر الرسالة ، ولتحطيم الوثنية وإحلال شريعة التوحيد مكانها ، وللدفاع عن حقوق الإنسان التي نزلت بها الرسالة والتي أعلنها الرسول العظيم في مؤتمره الكبير الخالد ، في حجة الوداع من العام العاشر للهجرة ، هذه الحقوق التي كانت مهدرة مضيعة ، والتي لم يكن أحد في العالم يقرّ بها ، والتي كانت الدول الكبرى هي العالم قبل الإسلام وفي عصر الرسالة تُشرِّعُ للناس قوانين تناقضها ، حين عاشت تدافع عن الطغيان والعبودية والاضطهاد والجاهلية الوثنية في الأرض .

المعاهد والجامعات ، يجب عليها اليوم ، وبلادنا تدخل في معركة حاسمة من أجل المستقبل ، ومن أجل أبنائنا وديننا ، أن تعرف ماذا يعنيه اسم " أم عمارة" من أشرف المبادئ ، وأنبل الأهداف ، وأعظم التضحيات في سبيل الله من أجل العقيدة والوطن والإنسان والحضارة .

يا أحفاد وحفيدات نسيبة لقد صور لكم ولَكُنَّ كاتب سعودي معاصر قصة نسيبة أم عمارة في كتاب ، ولا أقول في كتيب ، وهي قصة ملؤها الإيمان والشرف، والحرية والدفاع عن أسمى المقدسات ، فلم تكن نسيبة أم عمارة ممن تتابع حركة الأزياء العالمية ، ولا ممن تجلس في بيتها أو خبائها للزينة والمتعة ، ولكنها عرفت مكانها في الصف الأول من المعركة ، وقدرت واجبها في الوقوف بجانب الرجال في ميدان القتال في ظروف خاصة ، من أجل الحرية وكرامة الإنسان وشرف العقيدة ، وضربت بذلك أرفع مثل للمرأة المسلمة على طول العصور والأجيال .

إنه لو لم يكن في تاريخنا كله من مواقف إلاّ موقف نسيبة المرأة المسلمة المؤمنة المجاهدة ، لكان في ذلك أكبر فخر لنا ، ولكان مصدر اعتزاز كبير لنا ، ولكان للإسلام الذي خرَّج أم عمارة ، وأعطاها الفكرة التي تدافع عنها ، والقضية التي تعيش وتجاهد من أجلها ، أعظم مجالات الفخر والحمد والإكبار ، فما بالكم ، وأم عمارة لؤلؤة من عقد ، بل من كنز مملوء بالجواهر ، كل واحدة منها في مثل عظمة وجلال أم عمارة وتضحياتها وبطولاتها .

ومن أجل ذلك كله ، كانت أهمية كتاب الرفاعي " **أم عمارة الصحابية الباسلة** " .

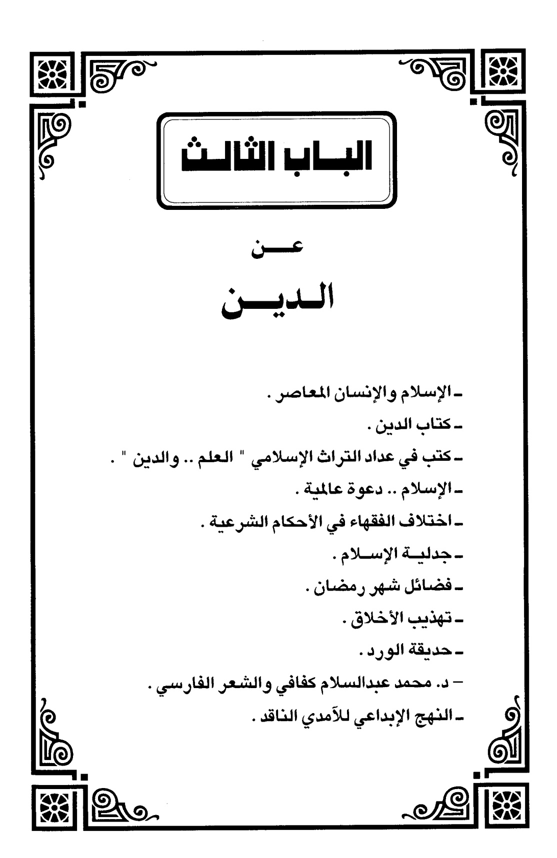
يقول الرفاعي في آخر كتابه : " كانت شخصية " أم عمارة " بكل إثارتها وحركتها وعظمتها تهيب بي أن أجعل للمرأة نصيباً في المكتبة الصغيرة ، وأن أبدأ بها كمثل نبيل للجهاد ، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه لضرب الأمثلة على الجهاد ، الجهاد الذي يشترك فيه الرجال والنساء ، لندافع جميعاً عن مقدساتنا ، ولنسترجع فيه الحقوق التي استبيحت ولن نفعل ذلك ما لم نصدر ـ رجالاً ونساء ـ في جهادنا عن إيمان عميق مثل ذلك الإيمان الذي تجلّى في " موقعة أُحد " ، إيمان بأن موقف المسلمين هو الأعلى مهما كانت الظروف ، لأن الأيام مداولة ، ويجب أن نملك الصمود والجهاد ليكون لنا النصر الأخير " .

نتابع فصول الكتاب في قسمه الأول ، الذي يحتوي على تسجيل واسع لبطولة أم عمارة في مواقفها الخالدة يوم العقبة ويوم أحد . ويوم اليمامة ، هذا القسم الذي كان له طابع القصة التاريخية المثيرة .

كما نتابع دراساته وتحقيقاته في قسمه الثاني ، الذي تناول الرفاعي فيه حياة أم عمارة ونسبها ومكانتها وسيرتها بالتفصيل .

ولست بمستطيع أن أطيل أكثر مما أطلت ، فإن كتاب " أم عمارة " قد أعز المرأة وكرمها ، لأن ديننا العظيم قد أعزها وكرمها وحررها وجعل مواقفها في سبيل الله من أجل العقيدة ، ومن أجل الحضارة الإيمانيّة .

إنها صفحات خالدات للإسلام وللمرأة المسلمة التي كرَّمها ديننا العظيم الحنيف .



الباب الثالث

عن

الدين

الإسلام والإنسان المعاصر
للأستاذ فتحي رضوان

(١)

المؤلف **فتحي رضوان** أحد الأدباء المعاصرين المشهورين أسندت إليه وزارة الإرشاد القومي التي كان مقرها قصر عابدين في عهد عبد الناصر ، وتوفي منذ ربع قرن ، وقد نشأ أديباً وثورياً وزامل في الكفاح الوطني الثائر أحمد حسين وألفا معاً حزب مصر الفتاه قبل الثورة ، واشتهر بكتاباته الوطنية والإسلامية . ومن أشهر كتبه كتابنا هذا " الإسلام والإنسان المعاصر " ، وكتابه " عصر ورجال " الذي طبع طبعتين ، عرض فيه لحياة بعض أعلام مصر قبيل الثورة ، وكتاب "الإسلام والإنسان المعاصر " جدير بالتقدير لعمق بحوثه بدراساته وثقافة المؤلف فيه ، وهو جدير بأن يكون من مكونات ثقافة جيل الشباب الجامعي لأنه يمدهم بثروة دينيّة كبيرة .

وعلى الجملة فالكتاب جليل ومفيد ، ويجب قراءته من ألفه إلى يائه .

ويا حبذا لو أن الهيئة العامة للكتاب تفضلت مشكورة بطبعه في إحدى سلسلاتها ليقرأه الشباب ، بل والشيوخ ، بل والأطفال ، إناثاً وذكوراً ، فهو مما يجعلهم أكثر صلة بدينهم .

(٢)

ويحتوي كتاب " **الإسلام والإنسان المعاصر** " على عشرة بحوث قيمة وعميقة عن الإسلام ، بخلاف المقدمة التي تحدث فيها عن الإسلام فكراً ومنهجاً ومبادئ رفيعة كانت حلم الإنسانية ، وأمل الشعوب منذ عصور طويلة .

المقدمة تتحدث عن الإسلام حديثاً طويلاً جيداً وممتعاً .

- والبحث الأول عن الإيمان ومضمونه الروحي والفكري .

- والثاني عن الجهاد ومعناه في الإسلام .
- والثالث عن المعجزات التي أيد الله بها رسله الأصفياء الكرام .
- والرابع عن شرح مدلول قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) من سورة الفاتحة .
- والخامس عن الإسراء المعجزة الكبيرة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه .
- والسادس عن فرعون مصر ، أو قل : فرعون موسى .
- والسابع عن الإسرائيليات التي أدخلها اليهود في الفكر الإسلامي .
- والثامن في مضمون قوله تعالى (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**) الآية الأولى من سورة الفتح المضمون التاريخي والإسلامي .
- والتاسع عن خلافة الإنسان لله في الأرض .
- والعاشر عن الإعجاز القرآني العظيم .

وهي بحوث تثري العقل ، وتقرب مبادئ الإسلام إلى الإنسان المعاصر المادي ، وتدعو إلى الإيمان بعظمة الإسلام وجلاله .. رسالة إلهية نزلت على محمد بن عبد الله ، رسول الإسلام ، وخاتم الأنبياء والرسل ، صلوات الله عليهم أجمعين ، الذين اصطفاهم الله ليبلغوا رسالاته إلى الناس على اختلاف العصور والأجيال ، التي مر بها الإنسان منذ خلق الله آدم واصطفاه لخلافته في الأرض .

(٣)

عن الإسلام تحدث المؤلف في مقدمة كتابه عنه ديناً إنسانياً وشريعة إلهية ، الإنسان فيها مناط رعايته واهتمامه ، كرَّمه واحتفى به ، واحتفل بشئونه ، ورعى كل ما يتصل به ، مبدأً ونفساً وروحاً وفكراً وعقلاً وعقيدة ، وعملاً ، ونهاية ، وثواباً وعقاباً ، وشرع له كل ما يتصل بالجماعات الإنسانية : أسرة ومجتمعاً ،

وعالماً كبيراً . كرم الإنسان طفلاً وصبياً وشاباً ، وشيخاً وهرماً ، ذكراً أو أنثى ، حياً أو ميتاً . ومن حق الإسلام أن يباهي المؤمنون به وبصفته الإنسانية الرفيعة ، وبمحافظته التامة على إنسانية الإنسان : نفسه وروحه وعرضه وماله ، فجوهر التشريع الإسلامي هو رعاية الإنسان وكرامته والإكبار من قدره ، وعدم الإساءة إليه ، غايته تفجير الطاقات الروحية والوجدانية في الإنسان ، وفق منهج أخلاقي رفيع المبادئ والغايات ، لأن الإنسان وكرامته مناط كل تشريع إلهي أمر به الإسلام . ولم تعرف الإنسانية في جميع عصورها تشريعاً عالمياً غير الإسلام وحده ، لم تعرفه في الماضي ، ولا حتى اليوم ، فالإسلام عالمي الطبيعة والنزعة والهدف ، الخطاب في كتابه الحكيم موجه " إِلَى النَّاسِ أَجمَعِينَ " وقد بلغ عدد قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ " في كتاب الله نحو ثمان وعشرين مرة ، كما ورد فيه لفظ " النَّاسُ " مائتين وتسعاً وأربعين مرة ، ولفظ " الإِنْسَانُ " إحدى وستين مرة ، والرب المعبود هو رب العالمين ، ورب المشارق والمغارب ، ورب السموات والأرض . والإنسان ، لا يعير الإسلام اهتماماً به من حيث جنسه أو لونه ، بل من حيث فكره وروحه وخلقه وعمله ونزعته في الحياة .

(٤)

وفي مبحث الإيمان يذكر المؤلف أن لفظ " الإِيمَانُ " ورد في كتاب الله بلفظه أو مشتقاته وصفاته في أكثر من أربعمائة موضع ، ولم يرد لفظ آخر بهذا العدد أو بأكثر منه سوى لفظ الجلالة الذي جاء في الذكر الحكيم في قرابة ألفين وخمسمائة موضع .

الإيمان هو التصديق الكامل ، والإذعان النفسي ، والتسليم الروحي بكل ما جاء به الكتاب الحكيم وفي كلام رسول الله ﷺ من شرائع وعبادات طاعات وأخلاق وآداب . وفي الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢] يختلف المفسرون : يقول القرطبي : إن المفسرين يختلفون في معناها ، فظاهرها كما يقول القشيري يدل على أن الرسول ﷺ ما كان متصفاً قبل الوحي بالإيمان ، وأكثر العلماء على الرأي القائل بأنه عز وجل ما بعث البعثة من الجهل بالله وبصفاته ، فهم ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ، وفي قوله تعالى عن يحيى "عليه السلام" :﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم: ١٢] إشارة إلى أن الله عز وجل أعطاه العلم بكتاب الله في صباه .

ويقول القرطبي في الآية : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢] إن الثعالبي فسر الإيمان هنا بشرائع الإيمان ومعالمه ، وقال القشيري : المراد تفاصيل هذا الشرع ، وقال أبو العالية : ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ، وقال أبو بكر القاضي : الإيمان هنا هو الفرائض والأحكام ، وقال خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة لقوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة . وقال علي بن عيسى : إن الرسول ﷺ لم يكن يعلم شيئاً عن الإيمان قبل البلوغ . والقرآن في عمومه يدعو إلى إقامة العدل وتحريم الظلم وإلى إكرام الإنسان كإنسان ، وذلك فوق دعوته إلى التوحيد وعبادة الله وحده والإيمان بالغيب . والعمل السوي يدخل في مفهوم الإيمان ، وللشيخ رشيد رضا وغيره كلام طويل في أن الإيمان هل يزيد أو ينقص ، ويقول المؤلف : إن الإيمان أشبه شيء بالكهرباء ، فالمصباح لا يضيء بفعلها إلا بواسطة الأسلاك .

وعن مضمون الآية الكريمة ، في قول الله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥] يقول : إن العبادة هي لله وحده لا شريك له ، وأن الله عز وجل هو الحي المعبود وحده دون سواه ، وآثار قدرة الله في السماء والأرض في

الحياة والكون ، وفي كل شيء ، دليل قدرة الخالق الأعظم ، والإله الذي لا إله سواه .

وفي حديث المؤلف عن المعجزات ، ودورها في رسالات الرسل ودعوات الأنبياء ، يقول إن المعجزة تصديق من السماء بصدق الرسول فيما يبلغه للناس عن الله عز وجل . والمعجزات الحسية عديدة وتختلف باختلاف طبائع الأمم وثقافاتها ، وأعلى هذه المعجزات وأخلدها هو القرآن الكريم الذي أعجز البشر عامة ، وأعجز الإنس والجن ، وأعجز الخلق في كل العصور والأجيال .

ومبحث الإعجاز القرآني في الكتاب مهم للغاية . ويذكر فيه المؤلف اختلاف العلماء فيه وأنه إعجاز بالنظم أو أنه إعجاز بالمعنى ، وهل هو إعجاز علمي أم إعجاز إخبار بالمغيبات من الماضي ومن الحاضر ، بل ومن المستقبل ، أيضاً في رأيي ، ويستقصي المؤلف حديث المؤلفين في القديم والحديث عن الإعجاز ، وهذه الإفاضة الجميلة لا يغني فيها تلخيص ولا اقتباس .

(٥)

وحديث المؤلف عن الإسراء والمعراج حديث طويل يؤكد في حقيقة الإسراء ، وعروجه صلوات الله وسلامه عليه إلى قمة سدرة المنتهى ، حتى صار قاب قوسين أو أدنى . والكلام عن فرعون مصر ، دون أن يفيض في الكلام عن فرعون موسى من هو ، لأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر في حقيقة الأمر ، ولا في دعوة موسى له إلى الإيمان بالإله الواحد الأحد ، ولا في بطش فرعون ببني إسرائيل وتعذيبه لهم ، ولا في نجاته من يد فرعون بمعجزة كبيرة من معجزات الله العظيم .

(٦)

وحديث المؤلف عن صلح الحديبية وعن الفتح الجليل المراد في قول رب العزة

في مطلع سورة الفتح : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] ، هو حديث تاريخي طويل نجد تفاصيله في كتب السيرة والتاريخ . والمؤلف يستمد مادته فيه عن كتب السيرة النبوية المطهرة ، مما لا داعي للحديث عنه .

ويسترسل المؤلف في دراسته للإسلام فيتناول الجهاد . وأنه ضرورة لقيام الدعوة ونشرها بين الناس والإعلام بها . والجهاد إما دعوة مطلقة عامة إليه ، وإما دعوة الرسول ليجاهد في سبيل الله من أجل الدين ، وإما دعوة إلى المؤمنين عامة ، ومنزلة المجاهد عند الله منزلة رفيعة . ويفيض المؤلف في حديثه عن الجهاد ، ويراه فريضة مفروضة على كل مسلم أمام تحديات العصر ومناورات الاستعمار بكل ألوانه وصوره .

(٧)

وفي مبحث خلافة الإنسان لله في الأرض يذكر المؤلف معجزة خلق الله آدم وحواء وتمرد إبليس على أمر الله جل جلاله بالسجود لآدم ، هذا المخلوق الجليل .

ويؤكد أن خلافة الإنسان لله عز وجل في هذه الأرض هي ركن الزاوية في العقيدة الإسلامية ، وأن تحمل الإنسان للأمانة وللمسؤولية هي من الطاعة لله تبارك وتعالى ، وأن هذه الخلافة مما ينفرد بها ديننا الحنيف ، دين الإسلام العظيم إذ لم تدعُ إليها عقيدة أو شريعة سواه .

وهذه الخلافة ، من جانب آخر ، هي التي أثمرت الحضارات العالمية على مر العصور وهي التي قادت الإنسان من حياة الغابة والبداوة إلى حياة المدن والحضارات .

(٨)

وفي حديث " إسرائيليات " يقول المؤلف : " إن هذه الكلمة تطلق على

تفسير بعض ما جاء في القرآن الكريم بأقوال عدد من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام في عهده الأول كوهب بن منبه وكعب الأحبار ، تميم الداري ، وعبد الله ابن سلام ، ويروي عنهم بعض الصحابة ، فتختلط هذه الآراء بآراء أصحاب رسول الله ﷺ في شرح آيات الكتاب الحكيم ، ونحن نقول إن الإسرائيليات لم تدخل في التفسير لكتاب الله فحسب وإنما دخلت في شرح جَملة من الأحاديث النبوية الشريفة بل وفي تحليل بعض أحداث التاريخ الإسلامي ، بل بعض الألوان الأخرى من الثقافة الإسلامية ، مما يوجب الحذر مما يرد من ذلك .

(٩)

وفي نهاية المطاف أقول إن بحوث الكتاب وعمق الدراسة وسعة الثقافة الإسلامية فيه ومنهج التناول للموضوعات المختلفة في هذا الكتاب ، وكل ذلك مما يؤكد أهمية الكتاب وضرورة طبعه ، ليكون في متناول الشباب الجامعي في مصر وشتى أنحاء العالم الإسلامي والعربي .

وبالله التوفيق



كتـاب الـديـن

للدكتور محمد عبد الله دراز

الدكتور دراز خريج الأزهر وجامعات باريس من أنبه علمائنا وأوطدهم قدماً في البحوث العلمية ، وخاصة ما يتصل منها بتاريخ الأديان ، الذي قام بتدريسه لطلبة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

وهذه الدراسة الجديدة تدور حول ماهية الدين ونشأته ووظيفته في الحياة إلخ .. هي إحدى ثمار هذه الدراسة الجامعية التي يقوم بها أستاذ جليل .

قسم الدكتور كتابه إلى أربعة بحوث ، فالبحث الأول عن تحديد معنى الدين ، والثاني في علاقة الدين بأنواع الثقافة ، والثالث في نزعة التدين ، ومدى أصالتها في الفطرة ووظيفتها في المجتمع ، والرابع في نشأة العقيدة الإلهية .

وأهمية هذه البحوث أنها تسير على أحدث مناهج البحث العلمي ، وأنها تجمع شتى الآراء والنظريات القديمة والحديثة الشرقية والغربية وتعرضها في أسلوب واضح قوي مركز يدل على شخصية المؤلف الفكرية . فحين يتحدث عن الوضع التعليلي لنشأة العقيدة الإلهية مثلاً يلم بالمذاهب الكونية (أو الطبيعية) ، ويذكر ما وجه إليها من اعتراضات ، ويجيب عليها ، ويشرح المذاهب الروحية المشهورة باسم الحيوية ، ويتكلم عن المذاهب النفسية في المسألة : كنظرية " ساباتيه " ، ونظرية " برجسون " ، ونظرية " ديكارت " ، ثم يبين المذهب الأخلاقي وينقده ، ويناقش المذهب الاجتماعي ، ويعرض المذهب التعليمي أو مذهب الوحي ، ويبين ما به .

والدكتور في بحثه العلمي مؤمن قوي العقيدة ، جليل الدفاع عن الدين في غمار مادية القرن العشرين الإلحادية ، ولا شك أنه توفيق كبير ، فالمؤلف جدير بالتقدير والإعجاب والتهنئة عليه .

والكتاب بعد ذلك كله دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه جمع بين مزايا عديدة جعلته من أقدر الباحثين المعاصرين على معالجة قضايا الأديان ضمن عقلية علمية دقيقة وإيمان قوى .

كتب في عداد التراث الإسلامي
العلــم .. والديــن

(١)

قضيـة خطيرة ، كهذه القضيـة ، لابد أن تثيـر اهتمام العلماء والـباحثين على طول العصور ، وإذا كانت إثارتها في القديم أمراً واجباً ، خدمة للدين ، فإن إثارتها اليـوم فرض لازم ، وبحث الصلـة بين العلم والدين في عصرنا الراهن أمر أوجب .

ما موقف العلم من الدين ؟

وما موقف الدين من العلم ؟

وإلى أي مدى نؤمن برأي العلم ؟

وإلى أي مدى يجب أن نرمي برأي العلم أمام رأي الدين ؟

كتب الفيلسوف البريطاني " راسل " كتاباً بعنوان " الدين والعلم " ، كما ظهر في لندن منذ عقود طويلة كتـاب آخر بـعنوان " مناظرة بين العلم والدين " .

وفي اللغة العربية نقرأ العديد الكثير من المؤلفات التي تدور حول هذه القضية الكبيرة من قريب ومن بعيد ، وللأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي والرافعي والعقاد في هذا المجال الكثير من الدراسات والبحوث ، وحين كتب الشيخ الطنطاوي جوهري تفسيره " الجواهر الحسان " جعل محوره الأساسي الخوض في مسائل ما بين الدين والعلم من صلات .

وللدكتـور جـمـال الفندي (-١٩٩٨) كتـاب بعنوان " القـرآن والعلم " ، وللدكتور محمد أحمد الغمراوي كتاب " الإسلام في عصر العلم " ، قدم له د. أحمد عبد السلام الكرداني .

وللدكتور الجامعي أحمد زكي كتب تدور حول ذلك أيضاً . وقد خاض الدكتور العلامة " زغلول النجار " في هذه القضايا في كتب وبحوث ومحاضرات بعقل العالم ووجدان المؤمن وروعة الباحث ، مما شد إليه الأنظار في مصر والعالم الإسلامي .

وكتب الدكتور محمد عبد العظيم سعود الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس - كتاباً صدر منذ فترة طويلة عنوانه " العلم والدين " ، هو موضوع هذه الصفحات ، لأن الكتاب حريٌ بالاهتمام لما أثاره من أفكار ، وما عرض له من مسائل وإن كان لا يعد كتابا تراثياً قديماً .

وبادئ ذي بدء نؤكد أنه ليس هناك دين سماوي صحب العلم وصادقه ، وحث عليه ، وألزم به ، ودعا إليه ، إلا الإسلام ، الذي عظَّم مكانة العلماء في الأمم وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال تعالى ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩].

وقد قامت الحضارة الإسلامية على العلم وجهود العلماء ، وعلى ثمرات البحث العلمي الذي أضاء الحياة ، وجدد المعرفة ، وحاول الكشف عن أسرار الكون والحياة ، بهمة لا تعرف الكلال وعزيمة لا يعتورها ضعف أو فتور .

والعلم وما اشتق منه مفردات تتكرر في كتاب الله مئات المرات ، ومكانة العلم ومكانة العالم في الإسلام مما لا يمكن الريب فيها ، وقيام الجامعات والمعاهد والمدارس ومختلف دور العلم في شتى عصور التاريخ الإسلامي دليل واضح على عظمة العلم في رأي الدين ، وفي كتاب الله الحكيم ، وكان المسجد النبوي الشريف أول جامعة إسلامية كبرى قامت في الإسلام في عصر صاحب الرسالة وفيما تلاه من عصور . وصاحب إنشاء دور العلم في الإسلام إنشاء المكتبات العامة ودور الحكمة والعناية التامة بالكتاب .

(٢)

وإذا ما سألنا أنفسنا : أهناك عداء بين الإسلام والعلم ، وبعبارة أخرى : أو هناك تناقض بين رأي الدين ورأي العلم . فإننا لا نجد إلا جواباً واحداً أمامنا وهو أن الدين وحده هو الحقيقة الأزلية الخالدة ، وإننا يجب أن نقف من رأي العلم موقف الممتحن المتحقق في الأمر . وفي أحسن الفروض لا نستطيع إلا أن نقول عن الدين والعلم هما وجهان للحقيقة في أغلب الأمر .

أما في الغرب وأمام سلطان الكنيسة فالرأي مختلف ، ففريق يذهبون إلى أن العلم وحده قبل كل شيء ، هو حقيقة الحقيقة ، ويقولون : إن الدين نقل محض ، ويرد مؤلف كتاب " العلم والدين " د. سعود على هؤلاء رداً قويا مُقْنعاً ، مؤكداً أن العلم أيضا فيه الكثير من النقل ونحن نستخدم في بحوثنا نتائج الآخَرين . وقد لا يمكننا في أحيان كثيرة التثبت من صحتها ، والكثير من العلم مبني على الفروض كما نرى في العلوم الفيزيائية النظرية ، والعلم أيضاً يحتوي على جانب كبير من الذاتية ، وليس موضوعياً بحتاً ، وحقيقة أن العلم أداة قوية لمعرفة الحقيقة ، ولكنّه ليس هو الأداة القوية الوحيدة .

ويعود هؤلاء إلى الحديث عن " جاليليو " العالم الإيطالي (١٥٦٤-١٦٤٢) وموقف الكنيسة منه ، وكان بعض رجال الكنيسة يذهبون إلى أن الهندسة رجس من عمل الشيطان ، وأنه ينبغي استبعاد علماء الرياضيات ، فهم مؤلفو كل الهرطقات . ومن ثم أولت محاكم التفتيش في أوروبا الفلك اهتمامها ، وانتهت إلى الحقيقتين الآتيتين ، كما يقول مؤلف كتاب " العلم والدين " د. سعود وهاتان الحقيقتان هما :

١ - إن من الهرطقة القول بأن الشمس هي مركز الكون وأنها لا تدور حول الأرض ، لأن ذلك يناقض تماماً ما جاء به الكتاب المقدس .

٢ - إن القول بأن الأرض ليست هي المركز ، وإنما هي التي تدور حول الشمس يتعارض مع الإيمان الحقيقي على أحسن الفروض .

٣ - ومن ثم تولت محاكم التفتيش محاكمة "جاليليو" ، وأخذت عليه قراراً بالامتناع عن تدريس أراء "كوبرنيكوس" سفاهة أو تحريراً ، وصادرت الكنيسة جميع الكتب التي تذهب إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس .

(٣)

والعلم في الغرب يقف في أحيان كثيرة مواقف العداء من الدين ، فنرى بعض العلماء في الغرب يذهبون إلى أن المادة وجدت من آزال الآزال ، ثم بزغ منها العقل الإلهي كما يقول "صمويل اسكندر" وأضرابه .

ويقول د. سعود إن المسألة هنا مسألة رمي بالظنون والأوهام ، فلماذا يسهل الافتراض بأن الله عز وجل مخلوق من المادة ، ولا يسهل الافتراض بأن المادة مخلوقة بقدرة الله تعالى ، وإلى عهد قريب كان علم الفيزياء يؤكد أن المادة خالدة ، أما الفيزياء الحديثة فقد عدلت عن فرض هذا الخلود .

ونرى الفلسفة المادية تشتط في فكرها المادي الإلحادي ، فلا تؤمن بوجود الروح ، بل تنكر هذا الوجود إنكاراً شديداً .

ويقول د. سعود في مؤلفه "العلم والدين" ص ١٥ : إن المسألة أمام العقل رمي بالظن ، فالعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية هي علوم نظرية تجريبية ، وليست هي كل أدواتنا التي نستدل بها على وجود الله . ويشتد (كانت) في الرد على مثل هؤلاء الأفاكين المنكرين لوجود الله ، فيؤكد أن وجود الله حقيقة تؤكدها النفس الإنسانية ، إذ لا يتأتى وجود الضمير الإنساني فيها بغير وجود إله ، وتلك هي علامة الوازع الأخلاقي وعلامة الضمير ، ولم يكن (كانت) هو أول من قال بهذا الرأي ، بل سبقه إليه القديس "توماس الأكويني" (١٢٢٥-١٢٧٤م) الذي يستدل على وجود الإله من آيات الخير ومحاسن الجمال في نفس الإنسان وفي مشاهد الطبيعة .

وفي ذلك رد قوي على آراء مثل "دولا بلاس" الفرنسي (-١٨٢٧م) المعن في الإلحاد. وآراء غيره من العلماء الرياضيين الملحدين الرافضين لوجود الله عز وجل، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً. وفي الإسلام نستدل بمظاهر القدرة في الكون العظيم على وجود الخالق العظيم، مما يرد على سفاهة وجهل "دولا بلاس" وأضرابه من الذين يحاولون تأييد أوهامهم الإلحادية بحجج واهية يشرحها "دولا بلاس" في كتابه "شرح نظام العالم"، حيث يذهب إلى أن المجموعة الشمسية ونظام الكواكب كانا في الأصل عبارة عن سديم، ثم انكمش هذا السديم تدريجيا مما زاد من سرعة دورانه، وبسبب هذه السرعة قذف بعض الكتل التي تحولت إلى كواكب. وعندما لاحظ نابليون (١٧٦٩-١٨٢١م) أن كتاب "دولا بلاس" لا يحتوي على أية إشارة إلى وجود الله لفت نظره إلى ذلك، فرد عليه "دولا بلاس" بوقاحة شديدة تدل على جهل مطلق بقوله: ليست لنا حاجة إلى افتراض وجوده يا مولاي.

وكذب هذا الملحد الأفاك فيما يقول كذبا أثيما.

(٤)

إن كتاب "العلم والدين" للدكتور عبد العظيم سعود يرد بقوة على مثل هذه الهرطقات الإلحادية الممعنة في التطاول على مقدسات الدين، وفي الكتاب قضايا كثيرة أثارها الباحث في كتابه، مثل:

- النظام الكوني.
- نظرية التطور والرد عليها.
- الروح والجسد.
- القضاء والقدر.

- المذهب الروحي أو التصوف .

- التفسير العلمي للقرآن .

ومن البديهي أنه لا يمكن تلخيص هذه الآراء في كلمات موجزة .

ونحن أولاً وقبل كل شيء نؤكد أن فلسفة الغرب المادية الإلحادية لا تقوم على أي أساس علمي وأن هذه الفلسفة هي التي قادت أوروبا إلى قبول أفكار مثل " كارل ماركس " وغيره من الماديين الجدليين ، وأن الذي ينكر حقائق الدين لا يستحق شرف العلم ولا شرف صفة العالم .

إننا نؤمن بالدين - إيماناً جازماً ، وبأنه رسالة من السماء إلى الأرض ، بلغها رسل الله الكرام ، وبأن الدين يجب أن نضعه في قلوبنا وأرواحنا وأعماق مشاعرنا ، مهما حاول أنصار العلم - الجاهلون بالعلم - بأن يحيطوا علمهم الكاذب بهالة من التمجيد . إن الدين من السماء ,أمّا العلم البشريّ فهو من نظريات يقول بها العقل ، والعقل البشري يحوطه النقص والقصور والريب من كل مكان .

(٥)

وعن التفسير العلمي للقرآن الكريم فهو قضية يؤيدها الكثير من العلماء . وفي مقدمتهم الدكتور زغلول النجار والدكتور جمال الدين الفندي وسواهما . وإن كان هناك من العلماء من يرفض هذا التفسير العلمي لكتاب الله الحكيم المعجز للبشر كافة ، ومن بين هؤلاء في القديم الإمام الشاطبي وغيره من ثقات العلماء ، وفي عصرنا نجد من الرافضين للتفسير العلمي لكتاب الله أمثال الشيخ محمود شلتوت ، والشيخ الذهبي ، وسيد قطب والعقاد ، وغيرهم .

ويقف فريق من المعتدلين حول هذه القضية موقفاً وسطاً ، حيث يذهبون إلى أنه لا بأس من أن نأخذ بالتفسير العلمي للقرآن الكريم في حذر شديد ، كما يقول

ثقات العلماء ويؤيده أمثال د. السيد الجميلي في كتابه " التفسير العلمي للقرآن " ويذكر أن الكثير من التفسيرات العلمية للكتاب العظيم التي وردت في تفسير ، الشيخ طنطاوي جوهري " الجواهر الحسان " قد تغيرت تماماً وتحولت من النقيض إلى النقيض .

ويؤكد هؤلاء المعتدلون أن التفسير العلمي لكتاب الله لا يجوز أن يكون إلا باليقين الثابت من العلم وحده ، لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع بحث وتمحيص . وهذا هو رأي د. سعود في كتابه " العلم والدين " ص٣٦ .

والله الموفق إلى الصواب



الإســلام دعــوة عــالميــة

تاليف عباس محمود العقاد

١٨٨٩ـ١٩٦٣م

العـقـاد هو من هو رائد في الـفكر الإسـلامي الـحديـث ، ورائد في الأدب وفي الشعر .. مفكر كبير ، له مكانته في الثقافة الإسلامية المعاصرة .

وكتابه " الإسلام دعوة عالمية " صدر في كتاب الهلال الشهري في نوفمبر ١٩٧٠م العدد ٢٣٧ في ٢٥ صفحة لأول مرة ، ويضم مجموعة من مقالات عدة في العقيدة والدين ، يصح أن تجعلنا نوقن بأن كاتبها رائد في تجديد الفكر الديني المعاصر ،وقد جمع الهلال هذه المقالات من بين مقالات العقاد ودراساته التي لم يُتَحْ له أن يجمعها في حياته ، والتي كان يملأ بها الصحف والمجلات .. والكتاب مقسم إلى عدة أقسام :

القسم الأول : مقالات عن رمضان والصيام .

والثاني : عن الأعياد الدينية وحكمتها الخالدة .

والثالث : مباحث في القرآن الكريم .

والرابع : بعنوان " نبي الإسلام " .

والخامس : بعنوان " الإسلام والمسلمون " .

والذي يعنينا من الكتاب بصفة خاصة الأقسام الثلاثة الأخيرة .

عن القرآن الكريم تحدث الكاتب الكبير عن قصص القرآن وعن القصص الديني بين العلم والتاريخ . وعن إعجاز القرآن وأوهام المستشرقين ، وعن معنى كلمة الأمين ، وعن الطير الأبابيل في تفسير الإمام محمد عبده[1] (١٨٤٩ـ١٩٠٥م) ، وعن مسألة القضاء والقدر .

يقول العقاد في مقدمة بحث الإعجاز (ص:٢٢٦) : الإسلام كانت له الغلبة ، وكان بحق قوة غالبة بفضل العقيدة الإسلامية التي وصفت بالشمول ، لأنها تشمل الإنسانية جمعاء . فليس الإسلام دين أمة واحدة بعينها ، ولا هو دين طبقة خاصة بذاتها . ولكنه دين الإنسانية جمعاء ، ودين بني البشر جميعها من كل جنس .

ويرد العقاد في هذا المقال على المستشرقين في بعض أوهامهم كتفسير لمعنى " القصيد " من أنه " المقصود " ، وتفسيرهم للفظة ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٧٥]، بأن معناها أي بدون أحذية . وتلفيقاتهم المكذوبة في قصة زينب بنت جحش وزواج النبي منها بعد تطليقها من زوجها . وغير ذلك .

ويقول في مقدمة الكتاب (ص٨) عن " محمد العربي الإنسان " : هو رسول رب العالمين ، إلى جميع خلقه من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين ، إنه رسول رب العالمين إلى جميع بني الإنسان .

وعن معنى كلمة " الأميين " في القرآن يقول العقاد : إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يقسمون العالم إلى قسمين : بني إسرائيل ، والأمم التي ليست منهم ، ويزعم اليهود خاصة أن بني إسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة والكتب المنزلة والأنبياء المرسلين ، وأن ما عداهم من الأمم لا نبوة فيهم ولا كتاب لهم .

ويرد العقاد عليهم مزاعمهم الباطلة ، ويقول : لنقل عن يقين إن " كلمة الأمي " أطلقت على كل من يجهل القراءة والكتابة .

قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال تعالى :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٥] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨] وعن " نبي الإسلام " كتب العقاد عن

" محمد العربي الإنسان " وعن " رأي في نبيٍّ الإسلام بين الأنبياء ، وعن حكومة النبيِّ وخلفائه ، وعن الرسول في كتب الغرب الحديثة ، وعن " لو عاد محمد ﷺ " لم تعز عليه هداية الضالين ، وهي مقالات رائدة تتسم بالحجة والإقناع .

وعن الإسلام والمسلمين كتب العقاد :

- الإسلام والعرب .
- فهم الإسلام .
- الإسلام بين أديان الأمم .
- الإسلام دعوة عالمية .
- الإسلام في تاريخ العالم .
- مراجعات إسلامية .
- دراسة للإسلام المعاصر .
- الإسلام والنظام العالمي الجديد .
- عقيدة الذات الإلهية في الإسلام .

(٢)

ويهمنا هنا مقال " الإسلام دعوة عالمية " الذي سُمِّي الكتاب به ، فماذا قال العقاد في هذا المقال ؟

رد العقاد في صدر المقال على " سوندريس " المحاضر الأول بقسم التاريخ في جامعة " نيوزيلانده " الذي ذهب إلى أن انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية إنما كان من عمل عمر بن الخطاب ولم يكن عملاً داخلاً في برنامج الدعوة المحمدية ، يقول العقاد في الرد : إن أتباع موسى إنما دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته ،

وأتباع عيسى هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة إلى العالم بعد حصرها في بني إسرائيل ، على أن القرآن الكريم في أكثر من أربعين آية يذكر أن رسول الإسلام قد أرسل إلى الناس كافة ، لقوله تعالى في مفتتح سورة الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]

كتاب العقاد " الإسلام دعوة عالمية " لا يفيد فيه قراءة مقال أو مقالتين عنه . إن الكتاب كله في جميع بحوثه تأكيد لرسالة الإسلام وأنه دعوة عالمية ، ورسالة إلى الناس كافة ، وإلى العالم جميعه ، وإلى البشرية قاطبة ، وإلى الإنسانية جمعاء .

(٣)

ولقد كتب المرحوم الأستاذ أنور الجندي المتوفى في ٢٨/ يناير ٢٠٠٢م كتاباً في الموضوع نفسه عنوانه " عالمية الإسلام " نشر في سلسلة " اقرأ " الشهرية العدد ٤٢٦ ـ عام ١٩٧٧م تضمن خمسة أبواب :

فالباب الأول : بعنوان ذاتية الإسلام ، في أنه الدين الحق وأن له ذاتية وطابعاً خاصاً .

والثاني في خصائص الإسلام : التوحيد التوازن ـ الوسطية ـ الجهاد ـ قانون النصر .

والثالث : عن معطيات الإسلام : التربية الإسلامية ـ تأمين المجتمعات من الانحراف ـ سكينة النفس ـ الرؤية المؤمنة ـ الأسلوب الرباني .

والرابع : عن حضارة الإسلام ، والعربية لغة القرآن والإسلام وتحديات العصر .

والخامس : عن عالمية الإسلام من جوانب عدة .

ويقول في مطلع كتابه ٩، ١٠ : ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخاص وأنه

مجرّد طقوس ، بل هو بالغ الكمال يقوم على أساس ديني ، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية .

(٤)

وكتب المرحوم الأستاذ الدكتور رؤوف شلبي (المتوفى في ١٠/ ٩/ ١٩٩٤م) وكيل الأزهر ملحقاً لمجلة الأزهر عن " عالمية الإسلام " باعتبار أنها حقيقة أولية دليلها النص القرآني والممارسات الواقعية أثبت فيه كذب الادعاءات الباطلة بأن الإسلام دين عربي لا عالمي ، بنصوص من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وبالممارسة الواقعية التي أعلنت عالمية الإسلام في مواجهة النجاشي ، وهرقل ، والمقوقس ، ونسطورا ، عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم .. وحسبنا الآية الكريمة : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وشهادات المنصفين من مفكري الغرب كثيرة في عالمية الإسلام وعموم دعوته .

(٥)

وصدر للأستاذ الدكتور شوقي ضيف المتوفى في عام ٢٠٠٥م عن دار المعارف ـ كتاب بعنوان : " عالمية الإسلام " ,تضمن تأكيد هذه العالمية بنصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وأن الله عز وجل جعل هذا الدين ديناً عالمياً للبشرية كافة ودعوة عالميّة ، وأنه دين حمى الحرية الدينية وأكد ضرورة التعارف بين الشعوب على أساس دعوته العالميّة ، ومعانقة الإسلام للعقل ، وفرصة للمساواة والعدل والتسامح في حدود تشريعه الربّاني ، ومشرعاً لكل روابط الأسرة ، وداعياً إلى السلوك القويم ، من أمر بالفضائل ، ونهيٍ عن الرذائل والموبقات .

ويقول الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في مفتتح كتابه : هذه كلمات موجزة عن عالمية الإسلام ، الدين العظيم ، الذي اختاره الله ـ كما جاء في القرآن الكريم

والسنة النبوية ـ ليكون خاتمة رسالاته السماوية ، لتسعد به البشرية عن طريق تعاليمه الربانية سعادة كبرى في الدنيا والآخرة .

(٦)

ومن قبل كتب الأستاذ محمد فريد وجدي (١٨٧٨ ـ فبراير ١٩٥٤م) ، في مجلة الأزهر سلسلة مقالات عن " مهمة الدين الإسلامي في العالم " ، ونشر هذه السلسلة مستقلة في كتاب مرتين : مرة بتوجيه من المرحوم الدكتور رؤوف شلبي وكيل الأزهر الأسبق ، ومرة أخرى بإشراف الدكتور محمد رجب البيومي ـ رئيس تحرير مجلة الأزهر الشريف ـ .

وفي مطالع هذه السلسلة يقول محمد فريد وجدي : أعلن الإسلام أنه آخر الأديان السماوية ، وأنه الدين العام لمجموع البشرية ، وسيصبح دين الكافة بغير منازع ، بعد أن تتجلى للناس آياته في الآفاق والأنفس الإنسانية .

ويذكر الأستاذ محمد فريد وجدي خصائص الإسلام الكبرى وهي التي أهلته للعالمية ، ومنها :

١) إعلان التعارف العام بين الشعوب من خلال دعوته ورسالته العالميّة .

٢) دعوته إلى الإسلام رسالة إلهية نزلت على جميع الأنبياء ، وبذلك قرر وحدة العقيدة الدينية ، إذ أن أصل الرسالات واحد .

٣) النهي عن التقليد الأعمى والدعوة إلى النظر والتفكير .

٤) الدعوة إلى العلم وإلى قرن العلم بالعمل .

٥) تأكيد المبادئ الإنسانية .

٦) تجريد العمل لله وحده .

٧) تأسيس دولة الحق في الأرض .

٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الصراط المستقيم .

٩) التوفيق بين مطالب الروح ومطالب العقل .

١٠) توجيه قوى الاجتماع إلى الإصلاح لا الفساد .

١١) مراعاة الحقوق الطبيعية في الاشتراع ومعاملة الناس .

١٢) الدعوة إلى العمل على إقامة العمران في الأرض وخلافة الله فيها .

١٣) الدعوة إلى العمل إلى تأسيس مدنية عالمية فاضلة على أساس شرعه لتكون كلمة الله هي العليا .

(٧)

وتتضمن رسالة التوحيد للإمام محمد عبده العديد من مبادئ الإسلام التي تكفلت له بالعالمية وبقيادة العالم والشعوب .

وفي " الوحي المحمدي " للشيخ رشيد رضا ودعوته للبشرية كافة إلى التعاون والتعارف والعمل جميعا من أجل تقدم الإنسانية ورخائها ومن أجل الحق والعدل والسلام من خلال تشريع ربّانيٍّ محدد ودعوة عالميّة .

وبحسب الإسلام تأكيده أهمية الدعوة إلى الله ورسوله وتبليغها للناس كافة ، لتكون هي أساس التعارف بين الشعوب والقبائل ، ولتكون هي ميزان التفاضل بالتقوى . وعلى أساس هذا الحق الربانيّ تقوم العدالة في الأرض ، وتقوم الأخوّة الصادقة بين المؤمنين في سلام عادل حقٍّ ، لا يعتدي ، وإنما يجاهد لردّ العدوان وصدّ الفتنة والفساد في الأرض ، وردّ كيد الماكرين والظالمين والمجرمين .

ومع التحديات التي جوبه بها الإسلام على طول التاريخ ، فإنه غالب بأمر الله والنصر الدائم له في سباق الحياة ، والله غالب على أمره ، وصدق الله العظيم فيما يقول في كتابه الحكيم :

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]

(١) فسرها الإمام بأنها جراثيم الأمراض " الميكروبات " .

اختـــلاف الفقهـــاء
في الأحكام الشرعية
للإمام محمد عبدالحميد الأُسْمَنْدي

(١)

الفقهاء يختلفون أحياناً كثيرة في الحكم الشرعي ، لأن لكل فقيه مصادره ، ولكل فقيه اجتهاداته . وما أكثر ما اختلف الفقهاء في الأحكام الشرعية ، وهو اختلاف ينم عن سعة أفق . وغزارة مادة وتعدد مصادر ومحاولة جادة للوصول إلى هدف الشارع الحكيم . ونحن أمام كتاب قيم **للإمام الشيخ محمد عبدالحميد الأُسْمَنْدي** (المتوفى في عام ٥٥٢هـ ـ ١١٥٧م) وهو صادر عن مكتبة دار التراث في القاهرة في ٥٣٤ صفحة بتحقيق وتعليق العلامة الأستاذ الدكتور المرحوم : محمد زكي عبد البر رحمه الله على عمله الجليل النافع وعنوان الكتاب (**طريقة الخلاف في الفقه بين الأئمة الأسلاف**) .

أما المؤلف فهو الإمام الأُسْمَنْدي (٤٨٨ـ٥٥٢هـ) الحنفي ، وقد ولد بسمرقند وتوفي ببخارى عن أربعة وستين عاماً ، ويعرف بالعلاء وكان عالم علماء الشرق ، وله كتاب آخر عنوانه (أصول الفقه) . وهو منسوب إلى قرية من قرى سمرقند اسمها أُسمند . وهو من فحول الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ، وكان إماماً بارعاً من فرسان الكلام وقدم بغداد وجالس فقهاءها وناظر علماءها . وكان بارعاً في العلوم كلها أصولها وفروعها مفرط الذكاء قليل النظير .

أما المحقق فقد كان علماً من أعلام القانون والفقه وأصوله ، وقد شغل مناصب قضائية عديدة كنائب رئيس محكمة النقض سابقاً وأستاذ للشريعة الإسلامية والقانون المدني في كليات الشريعة والقانون بالأزهر والجامعات العربية ، وتوفي في ٢٥/ ١/ ١٩٩٨م .

ومن مؤلفاته :

١) نظرية تحمل التبعة في الفقه الإسلامي ـ القاهرة ١٩٥٠م .

٢) الحكم الشرعي والقاعدة القانونية ـ الكويت ١٩٨٢م .

٣) التصرفات والوقائع الشرعية ـ الكويت ١٩٨٢م .

٤) الربا وأكل المال بالباطل ـ الكويت ١٩٨٢م .

٥) تقنين الفقه الإسلامي ـ قطر ١٩٨٢م .

٦) أحكام العقود الناقلة للملك ـ قطر ١٩٨٥م .

٧) أحكام المعاملات المالية في الفقه الحنفي ـ قطر ١٩٨٦م .

٨) تحفة الفقهاء للسمرقندي (٥٣٩هـ) وطبع دمشق ١٩٥٩م .

٩) ميزان الأصول في نتائج العقول ـ قطر ١٩٨٤م .

وغيرها العديد من البحوث والدراسات العلمية الجادة .

(٢)

والكتاب (طريقة الخلاف) محقق عن مخطوطة في مكتبة " قوله " بدار الكتب المصرية ، نسخت عام ٦٧٢هـ . ومؤلفه يعرض فيه العديد من المسائل في الفقه كانت محل خلاف بين الفقهاء في مختلف أبواب الفقه الإسلامي ، وفي كل مسألة يعرض المسألة كما هو رأي الأحناف ,ثم يذكر رأي الشافعية فيها ، وقد يعرض للخلاف بين الحنفية أنفسهم معللاً ومرجحاً مع بيان أدلة كل رأي وما يوجه إليه من اعتراض ، والمحقق يجتهد في تحقيق النص مشيراً إلى المصادر ومخرِّجاً للأحاديث ومترجماً للأعلام . ولقد بذل غاية الجهد في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً رفيعاً في صبر وأناة ، وصدر الكتاب بكلمة للمرحوم الشيخ : علي الخفيف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة كتبها مقدمة لكتاب (تحفة الفقهاء) بتحقيق الدكتور الأستاذ محمد زكي عبد البر . والمقدمات التي مهَّد بها المحقق للكتاب دسمة ومفيدة ، وتقع في نحو ستين صفحة .

والكتاب في مجمله مقارنة بين فقه أبي حنيفة وفقه الشافعي ، وقد تكون المقارنة بين أبي حنيفة وصاحبيه ، كما ذكرنا ، رحمهم الله جميعاً وأجزل لهم حسن الجزاء والثواب .

واختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية اجتهاد منهم في الحكم الشرعي وفي تفسير الدليل الشرعي من الكتاب والسنة ومراعاة المصالح ورفع الضرر ، وعمل بالاستحسان عند من يجيزه ، وكل ذلك حرصٌ على إيضاح الحكم الشرعي وتحليلٌ له وتدليلٌ عليه .

(٣)

ونعرض هنا بعض صور من الكتاب لتدل على منهج المؤلف فيه وطريقة المحقق في تحقيقه :

١) الزكاة واجبة في الحلي عند أبي حنيفة ولا تجب فيها عند الشافعي . ويقول المحقق هنا إن عدم وجوب الزكاة فيها عند الشافعي إذا كانت حلياً يحل لبسها كحلي النساء وخواتم الفضة للرجال ونحوها فلا زكاة فيها في أحد القولين ، وقال الشيرازي في (المهذب) : فيه قولان أحدهما لا تجب فيه الزكاة والثاني تجب ، واستخار الله فيه الشافعي واختاره . وفي " رؤوس المسائل للزمخشري " الزكاة تجب في الحلي عندنا " أي عند الحنفية " سواء كانت للرجال أو للنساء . وعند الشافعي لا تجب إذا كانت للنساء ، والمؤلف الاسمندي يعلل لوجوب الزكاة في الحلي بإفاضة ، ويذكر أن وجوب الزكاة فيها معارض بقوله عليه السلام : لا زكاة في الحلي ، وبقول ابن عمر زكاة الحلي إعارتها ، وعن الحديث يقول المؤلف إنه غير ثابت ولئن ثبت فيحمل على اللآلئ والجواهر . والمحقق لا يترك كلمة دون تعليق وفائدة وإشارة إلى المصادر (راجع ١٢-١٤ من الكتاب) .

٢) النيـة في الصوم عند الأحناف إذا صام رمضان بمطلق النية أو بنية النفل أجزأه . وعند الشـافعيـة لا يجـزئه لأن صـوم الفرض والـواجب لا يصح بدون نيـة الفـرض والواجب وأمـا التطوع فيـصح بمطلق النيـة والمؤلف يعـرض لأدلة الأحناف في هذه المسألة ، ويقـول حكم الأحناف فيها معارض بقوله ﷺ : " **الأعمـال بـالنيـات ولكل امـرئ مـا نوى** " . والمحقق يجلى الموضوع في تعليقه مشيراً إلى المصادر المختلفة .

٣) الأب لا يملك إجبار البكر البالغة على الزواج ، ويملك إجبار الصغيرة ، سواء أكانت بكراً أم ثيباً . وغير الأب الجد مثل الأخ والعم يملك تزويج الصغيرة والصغير ولهما الخيار إذا بلغا ، فيرفعان الأمر إلى القاضي حتى يفسخ القاضي عقد الزواج . وعند أبي يوسف يقع العقد لازماً ، والمؤلف يفيض في شرح المسألة إفاضة بالغة ويتابعه المحقق في الشرح والتدليل وذكر المصادر ، ويستوفي المؤلف في هذا الموضوع كل الآراء والأدلة باستيعاب .

٤) قضاء القـاضي في العقود بشهادة الزور ينفذ ظاهراً وباطناً عند الأحناف ، وعند غيرهم ينفذ ظاهراً لا باطناً ، والوجه فيه عند الحنفية أن القاضي قضى بأمر الشرع فينفذ قضاؤه ظاهراً وباطناً قياساً على الشهود الصادقين . ويقول المؤلف لا نُسَلِّم بأن القاضي قضى بأمر الشرع فإن ذلك إذا كانت الشهادة صدقاً ، أما إذا كانت الشهادة صدقاً عند القاضي وهي كذب في نفسها فهو غير مأمور بالقضاء ، بل منهي عنه ، لما فيه من تحليل الحرام وتحريم الحلال وإلحاق الضرر بالمسلمين ، وقد يقول معترض إن صدق الشهود أمر باطن لا يمكن القاضي الوقوف عليه ، فلو علقنا الأمر بالقضاء به لا يمكنه ، فيؤدي إلى تعطيل المصالح . والجواب عن ذلك بأمرين : الأول إنه إنما يؤدي إلى تعطيل القضاء إن لم يكن القاضي بنى قضاءه على العلم ، وإنه يمكنه أن يقول إذا كان الشهود صادقين قضيت بكذا .

والثاني إن لم يمكنه العلم بصدق الشهود يمكنه تحصيل الظن به .... إلخ .

(٤)

الكتاب رائع حقاً ، والحجاج حول الأحكام مفيد كل الفائدة . وهذا لون طريف من ألوان الحجاج الفقهي حول الأحكام الشرعية ، ويدل على عقل فقهي واسع الأفق عميق المادة عزيز العلم .

وبعد فإني لا أملك إلا أن أشيد بالكتاب وبمؤلفه إشادتي بالمحقق الجليل الذي أثرى الكتاب بما أضاف إليه من تعليقات ذات مادة غزيرة وعلم واسع وعقل قانوني بعيد الغور ، رحمه الله .

جـدليــة الإســلام
للدكتور محمد شوقي الفنجري

(١)

الجدلية مصدر صناعي نسبة إلى الجدل وهو أسلوب الحوار ويعني بها فنّ أو أسلوب التعامل مع مختلف متناقضات الحياة ، وما يترتب عليه أو ينشأ عنه من أطروحات أو مستجدات أو معطيات جديدة ، تتطلب بدورها تعديلات أو اختبارات أو مواقف جديدة ، وهكذا تستمر المتغيرات بهدف تحقيق التوازن كلما حدث فيه اختلاف ، مما يتطلب وعياً في التعامل مع سنة المتناقضات وأن نستعد بالتخطيط لها بحيث يكون التغيير إيجابياً في صالحنا .

وجدلية الإسلام تستهدف استيعاب متناقضات الحياة والتحكم في متغيراتها بالدفع بالتي هي أحسن ، تحقيقاً للتوازن المتحرك المحسوب ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى :﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ [الأعراف: ٨]

وهكذا يحدثنا الدكتور الأستاذ المستشار محمد شوقي الفنجري المفكر الإسلامي المشهور ، وأستاذ الاقتصاد الإسلامي في الجامعات العربية في مقدمة كتابه " **جدلية الإسلام** " .

(٢)

ويقول الدكتور : إن كل ما في الوجود يقوم على ثنائية التركيب الذي يبدو فيه التناقض ، وهذه المتناقضات في مختلف صورها هي حقيقة الكون والحياة ، وأسلوبنا في مواجهة هذه التناقضات وما نطرحه من مستجدات هو الذي يحدد سلوكنا ، أي نجاحنا أو إخفاقنا .

وإذا كان منطق أرسطو يقوم على أساس أن كل ما في الوجود مادة أو فكر فإن

ثابت المنطق الجدلي منطق الفيلسوف الألماني هيجل يقوم على أساس أن كل ما في الوجود في تغير مستمر ، وأخذ ماركس عن هيجل فلسفته الجدلية ولكنه قلبها من جدلية مثالية إلى جدلية مادية ، فالمادة عند ماركس هي الأصل في الوجود والأفكار ليست إلاّ انعكاساً للمادة ، على عكس ما يراه هيجل ، ومن هنا سميت نظرية ماركس بالمادية الجدلية ، وقوانين الجدل عنده هي التي تحكم حركة المادة أي حركة العالم ، فالمنهج العلمي في رأيه هو المادة الجدلية .

وإذن فما هو المنطق الإسلامي الذي يقف شامخاً أمام منطق أرسطو ، ومنطق هيجل وماركس ؟

يقول الدكتور : إن المنطق الإسلامي يجمع بين الثبات والتطور ، فكل ما يتعلق بالعقيدة والأخلاق هو أمر ثابت لا يقبل تغييراً ، أما ما يتعلق بالمعاملات فهو لا يتضمن إلا أحكاماً عامة صالحة لكل زمان ومكان وقابلة للاجتهاد ، فالعقيدة هي الأصول الثابتة واجتهادات الفقهاء ليست إلا تطبيقات تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وهي قابلة للتغيير الذي يسير دائماً في إطار وحدود الأحكام العامة للمعاملات حسبما وردت في القرآن والسنة .

والإسلام بهذا يقرر ابتداءً ما لم يتوصّل إليه الفكر البشري عبر تاريخه الطويل وحتى اليوم من منطق سليم هو المنطق الإسلامي الذي يقوم على أساس الجمع بين الثبات والتطور ، ومن هنا يرفض الإسلام الفكر الوضعي الحديث الذي يقوم على التطور حتى في مجال العقائد والأخلاق ، كما يرفض فلسفة " البراجماتية " التي سادت في مجتمعات أوروبا وأمريكا والتي تجعل المنفعة هدفها الأساسي بصرف النظر عن المثل والقيم ، والإسلام إذ يرفض المنهج " الأرسطي " والمنهج " الهيجلي " و" الماركسي " يدعو البشرية إلى المنهج التجريبي بالنظر في الكون ، والتأمل في الوجود ، داعياً إلى تحكيم العقل ، والتزام البرهان والدليل ، مع الإيمان بالغيب الذي يتمثل في عالم الغيب غير عالم الشهادة من حيث تنادي العلمانية بالماديات وتحصر فكرها في هذه الماديات وتفصل بين العلم والدين ، ففي

نظر الإسلام لكل من الإيمان بالغيب والعلم التجريبي مجاله وكل منهما يكمل الآخر ولا يغني عنه .

إن كل المذاهب الوضعية تتصور أن تناقضات الحياة تعمل للتصارع والاقتتال ، أما الإسلام فيراها تعمل من أجل التكامل والتعاون ، فهي كالسالب والموجب ، والإسلام حريص على الإبقاء عليها والتوفيق بينها لا على إفناء إحداها لحساب الأخرى ومن هنا قامت الشريعة الإسلامية على قواعد ثابتة ، ولكنها متطورة في تطبيقاتها حسب ظروف المكان والزمان .

(٣)

وبهذا التصور يسير المفكر الكبير د. محمد شوقي الفنجري في كتابه " جدلية الإسلام " ، ويؤكد الحقيقة الواضحة وهي أن الإسلام يرفض المنهج الفكري الغربي القائم على إسقاط كل ما لا يدركه الحس ، ويرفض مفاهيمه في فصل الدين عن الدولة ، كما يرفض تصوراته في الاكتفاء بالتقدم المادي والحضارة المادية وفي أن يكون الضرر نتيجة منفعلة وليست فاعلة للبيئة والأحداث ، وفي أن يكون عبداً لشهواته ، ومن ثم يرفض الإسلام الليبرالية الفوضوية ، والشيوعية الملحدة والبراجماتية الضالة ، والوجودية الزائغة ، أي أن الإسلام يرفض سائر حضارات وفلسفات البعد الواحد التي تغفل حقيقة الحياة ، وأنها كالعملة الواحدة ذات وجهين : أحدهما مادي ، والآخر روحي ، يكمل كل منهما الآخر .

كما يرفض الإسلام المنهج المعرفي الغربي القائم على النسبية والمتغيرات في مجال العقيدة أو الأخلاق أو القيم ولا يقبل الإسلام التغيير إلا في المعاملات بحسب ظروف الزمان والمكان . وكذلك يرفض الإسلام منطق صراع الأشياء أو تنازع البقاء ، أو عداء الطبقات ، أو إسقاط أحد طرفي المتناقضات لحساب الطرف الآخر .

إن جدلية الإسلام هي جدلية التكامل لا جدلية الصراع ، وبهذا يعالج إشكالية ثنائية التركيب أو زوجية الأشياء .

ويقف بذلك كله كتاب " جدلية الإسلام " شاهداً شامخاً بين الكتب التي تتحدث عن المنهج الفكري في الإسلام .

والدكتور محمد شوقي الفنجري مؤلف هذا الكتاب جدير بكل تقدير باعتباره مفكراً إسلامياً جليلاً . وباعتباره مؤلفاً لكتاب " جدلية الإسلام " .

بل إنه بمواقفه الكريمة في مجتمع الإسلام اليوم ، وبأعماله الخالدة في خدمة الحياة والناس ، وفي خدمة الإسلام والمسلمين لحري بكل تكريم .

فضائل
شهر رمضان
لنافع الجوهري بن سليمان الخفاجي

وجاء رمضان ..

جاء بذكريات المجد الخالد ، المجد الإسلامي التليد ، وبنصر بدر وفتح مكة المخلدين .

وجاء بالنور والهدى والخير .

الشهر الذي كرمه الله ، فأنزل فيه رسالته الإلهية إلى العالم كافة ، وإلى الإنسانية قاطبة ، كتابه الحكيم ، القرآن الكريم ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

والذي كرمه الله فجعل فيه ليلة القدر [١] ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ [القدر: ١ - ٥]

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الدخان: ٣ - ٨]

رمضان الذي كرمه الله بالأمر بصيامه ، وسن فيه القيام والعبادة والتهجد وفعل الطاعات ، وبذل القربات والصدقات . ولو لم يكن لشهر رمضان فضل إلا نزول القرآن فيه لكفاه ذلك فخراً وتكريماً على مدى الأحقاب والعصور .

ويكرم المسلمون في جميع أنحاء الدنيا ، منذ فرض الصيام العام الثاني

للهجرة النبوية حتى اليوم ، هذا الشهر الكريم تكريماً ما بعده تكريم : يصومون نهاره ، ويحيون ليله ، ويعكفون فيه على العبادة والطاعة والقيام ,وبذل المال ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

وقد عُني العلماء المسلمون عناية بالغة بكتابة الكتب ، وتأليف المؤلفات ، عن شهر رمضان المبارك ، كتبوا عن الصيام ونزول القرآن وليلة القدر ، وعن كل ما يتصل بهذا الشهر العظيم .

وامتلأ التراث الإسلامي بهذا الفيض الغزير من المدونات ، التي لا يمكن حصرها أو استيعابها ، والتي هي زاد المسلم في سلمه وحربه ، وفي ليله ونهاره ، وفي صبحه ومسائه .

وإني لسوف أعرض هنا عدة كتب من التراث الإسلامي ، عن رمضان وشريعة الصيام فيه ليعرف المسلم كل ما يتصل بهذا الشهر العظيم من طاعات وعبادات .

(٢)

أمامي الآن كتاب مخطوط هو النسخة الوحيدة له في جميع أنحاء العالم وهو فضائل شهر رمضان تأليف العالم نافع الجوهري بن سليمان (١٢٣٧ـ١٣٣٠هـ) من علماء الأزهر الشريف في القرن الثالث عشر الهجري الذي نال شهادة العالمية عام ١٢٨٣هـ على يد أستاذه الباجوري .

تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن فريضة الصيام وأحكامه وآدابه وألوان الطاعات والعبادات فيه ، ويذكر أن الرسول ﷺ كان يصوم يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ، وكذلك يتبعه المسلمون الأولون ، وبعد سبعة عشر شهراً من قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة نُسخ ذلك بصوم شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة قبل معركة بدر بشهر وأيام ، وذلك بعد مضي ليلتين خلتا من شهر شعبان في السنة الثانية للهجرة .

ويتحدث المؤلف عن مطلع رمضان ,وعن نزول القرآن فيه جملة واحدة من اللوح المحفوظ الذي نزل به جبريل ,وأملاه على السفرة في بيت العزة في سماء الدنيا ، لينزل منه على الرسول ﷺ منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة . وفي رمضان أنزلت صحف إبراهيم ، والتوراة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى ، وأُنزل القرآن على محمد ﷺ في الرابع والعشرين من شهر رمضان في رواية .

ويعقد المؤلف في كتابه فصلا عما يختص به شهر رمضان من الفضائل ، ويقول : كان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان ويقول : " قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك ، شهر فرض الله عليكم صيامه وسن لكم قيامه ، وفيه ليلة هي خير من ألف شهر ، تفتح فيه أبواب الجنان ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين " .

وفي فصل آخر يتحدث عن صلاة التراويح وفضلها ، وهي عشرون ركعة بعشر تسليمات في كل ليلة من رمضان ، وأما قول عائشة : كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة فمحمول على الوتر (٢) .

واختار مالك أنها تُصَلّى ستا وثلاثين ركعة غير الوتر ، وهو فعل عمر بن عبد العزيز ، وفي رواية أن رسول الله ﷺ خرج في أول جوف الليل في رمضان وصلى في المسجد وصلى الناس بصلاته ، وكذلك في الليلة الثانية والثالثة فلما كان في الليلة الرابعة كثر الناس حتى عجز المسجد عن أهله ، فلم يخرج إليهم حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما صلى الفجر أقبل على الناس فقال : " أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة ، وقد رأيت الذي صنعتم - أي من حرصكم على صلاة التراويح - وإنني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها " ، وانتقل رسول الله ﷺ والأمر على ذلك ، وكان كل واحد يصلي التراويح في رمضان في بيته ، وبقى الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر ثم جمعهم عمر فصلى بهم جماعة في المسجد قبل أن يناموا عشرين ركعة وهو ما عليه المسلمون .

وقد قال رسول الله ﷺ : " **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين** " ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والطبراني في المعجم الكبير . وفي فصل آخر يتحدث عن ليلة القدر ، وفي فصول أخرى يتحدث عن زكاة الفطر ، وعن الصدقة ، وعن زكاة المال ، وعن صلاة العيدين ، وعن صيام ست من شوال ، ويفيض في الحديث عن فضل قراءة القرآن في رمضان .

الكتاب يعد موسوعة كبيرة عن رمضان وفضائله وعن الصيام وأحكامه ، وعن المأثور من أعمال رسول الله ﷺ وأصحابه في رمضان .

(٣)

وفي كتاب (لطائف المعارف) لابن رجب الحنبلي ، خصص المؤلف في هذا الكتاب فصلاً مطولاً جداً عن وظائف شهر رمضان المعظم ، وقسم هذا الفصل إلى مجالس :

- **فالمجلس الأول** : عن الصيام وفضله .
- **والثاني** : في فضل الجود وتلاوة القرآن في رمضان .
- **والثالث** : في العشر الأوسط من رمضان ونصف الشهر الأخير وليلة القدر ويوم بدر .
- **والرابع** : في العشر الأواخر من رمضان .
- **والخامس** : في ذكر السبع الأواخر من رمضان وليلة القدر .
- **والسادس** : في وداع رمضان .

وحديث ابن رجب عن ذلك كله حديث العالم الموسوعي العميق في عرضه وبحثه . ولو حاولنا تفصيل ذلك لأخذ الحديث منا فيه العديد من الإحصاء والإطناب .

(٤)

وللعالم الجليل الشيخ الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم الذي توفاه الله إلى رحمته في يوم ١٩/ ٩/ ١٩٨٦م ,كتاب عن أحاديث الصيام كما روتها كتب الصحاح وأمهات المسانيد والمعاجم للسنة النبوية الشريفة ، والكتاب نشره مجمع البحوث الإسلامية وصدر عام ١٩٨٤م ، ويقول المؤلف في صدر كتابه : هذا الكتاب (أحاديث الصيام) يشتمل على ما جاء في الصحاح من أحاديث الجامع الصحيح للإمام البخاري ، والجامع الصحيح للإمام مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبي داود ، والموطأ للإمام مالك ، كما جمعها ابن الأثير ، وزوائد الإمام أحمد ، والبزار ، والموصلي ، ومعجم الطبراني الكبير والصغير والأوسط ، كما جمعها الهيثمي ، فكانت مجموعة وافية بما جاء في الصيام وما يتعلق به .

والكتاب عدة مباحث ويتناول كل مبحث عدة أبواب :

فالمبحث الأول :

في وجوب الصيام وأبوابه هي : فرض الصيام ـ وجوبه بالرؤية ـ وجوبه بالشهادة ـ اختلاف البلاد في الرؤية ـ صوم رمضان بمكة وصومه بالمدينة .

والمبحث الثاني :

في واجبات الصوم ، وأبوابه هي : النية ـ الإمساك عن المفطرات ـ الإفطار والجماع عمداً وغيرها .

والمبحث الثالث :

في زمان الصيام ، ومن أبوابه : قيام شهر رمضان وهو التراويح ـ الاعتكاف ـ الصيام في الأشهر الحرم ـ فضل الصوم ـ صوم رجب ـ صوم شعبان ـ صيام ست من شوال ـ صيام عشر من ذي الحجة ـ يوم عاشوراء ـ صيام ثلاثة أيام من كل شهر ـ ليلة القدر ـ فضل شهر رمضان ـ أفضل الصوم ـ الأيام التي يحرم صومها .

والمبحث الرابع :

في سنن الصوم وجائزاته ومكروهاته وفيه أبواب عديدة .

المبحث الخامس :

في مبيح الإفطار وموجبه وفيه أبواب عدَّة كذلك .

والكتـاب شـامل لكل مـا ورد في الصـيام من أحـاديث ، ولأحكام الصيـام جميعها .

(٥)

وللشيخ عبد المعز عبد الحميد الجزار ـ رئيس تحرير مجلة الأزهر السابق ـ المتوفى في يناير من عام ٢٠٠١م رحمه الله تعالى كتاب بعنوان : " **مع الصائمين في شهر المغفرة والغفران** " ، ذكر فيه بعض الجوانب المتعلقة بصوم هذا الشهر المبارك وفضائل الشهر وأحكام الصوم ، وتحدث فيه عن فضائل الصوم ، وأنواع الصيام وأركانه ، وفضائل رمضان ، وصلاة التراويح ثمانية عن رسول الله ﷺ ، وعشرين باجتهاد عمر بن الخطاب ، وست وثلاثين في عمل أهل المدينة وعمر بن عبد العزيز ، ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وعليه مذهب مالك .

كما تحدث في الكتاب عن الأعذار المبيحة للإفطار ، وتحدث عن حكم مريض الربو ومريض القرحة المعوية ، كما تحدث عن الاعتكاف وليلة القدر وزكاة الفطر وصلاة العيدين .

والكتاب في غاية الأهمية ويجب أن يكون في أيدي الشباب حيث يمتاز بسهولة أسلوبه ، وبوضوح معانيه ، وبجمعه لأحكام وفتاوى كثيرة .

(٦)

وللشيخ عبد العزيز المحمد السلمان كتاب كبير بعنوان " **المناهل الحسان في**

دروس رمضان " والشيخ عبد العزيز مولود في مدينة عنيزة بالسعودية في ٢٥ رمضان ١٣٣٧ أو ١٣٣٩هـ وتوفى عام ١٤٢٢هـ . ويقول في مفتتح الكتاب : " أرى الناس في حاجة إلى تبيين أحكام الصيام والزكاة وصدقة الفطر وصدقة التطوع ، وقيام رمضان وآداب تلاوة القرآن ودروسه وأحكام المساجد والاعتكاف ، فقد جمعت من كتب الحديث والفقه ما يناسب عموم الناس ، الكبير والصغير " ، تحدث عن رمضان وفضله وعن الصيام وأحكامه ، وعن صلاة التراويح ومقدارها [٣] .

وعن ليلة القدر ، وعن زكاة الفطر وعن فضل القرآن الكريم ، والدعاء ، وأحكام الاعتكاف ـ وعن زكاة المال ، ومصارف الزكاة ، وعن صدقة التطوع ، ودعاء ختم القرآن ، وغير ذلك من أحكام الصيام وفضائل رمضان ، والكتاب واضح المعالم ، سهل الأسلوب ، فيه استقصاء للأحكام ، وذكر لآداب الصيام وللعبادة وقراءة القرآن ، وكل ما يتعلق بذلك ، وهو مطبوع طبعة ممتازة ، وقد جهد المؤلف نفسه في العناية بالدروس الرمضانية ، وما ينبغي أن نتناوله من مواعظ وعبر وتذكير بفضل الله على المسلمين وقاهم الله من شرور الدنيا والآخرة .

(٧)

ولحسن عبد الوهاب كبير مفتشي الآثار الإسلامية سابقاً ـ الذي توفاه الله إلى رحمته في ١٣/ ١٩٦٧م ، كتاب بعنوان " رمضان " ، صدر في المكتبة الثقافية (العدد الثامن) .

تحدث فيه عن شهر رمضان ، وعن عناية المسلمين به ، وعن رمضان في مصر ، وعناية حكامها بأمر هذا الشهر العظيم على مر العصور ، وتعاقب الدول والحكام .

كما تحدث عن فرح المصريين بمقدم رمضان وعن مقدمات الشهر وتوفير مطالب الناس فيه ، وعن رمضان شهر الخيرات ، وتحدث عن ليلة القدر ، وعن

التسحير وفانوس السحور ، والمسحراتي ، وعن موائد رمضان ، وعن مشاهد مستشرق إنجليزي هو (لين) الذي أقام بمصر في القرن التاسع عشر (١٨٢٥م ـ١٢٣٣هـ) ، وشاهد عادات المصريين في رمضان وتقاليدهم ووصف كل ذلك وصفاً شائقاً .

وعرض لرمضان في الأدب العربي ، لختام رمضان ، وصلاة العيد ، وكعك رمضان ، أو كعك العيد . والكتاب شيق ، ومادته التاريخية غزيرة ، وفيه الكثير من المعلومات ، وإن كان ينقصه الحديث عن نصر بدر وعن فتح مكة ، وعن معارك كثيرة خاضها الإسلام منتصراً في هذا الشهر الكريم .

وقد توفي حسن عبد الوهاب قبل أن يرى ويشهد نصر معركة العاشر من رمضان المجيد .

وقد صدر منذ شهور في الرياض كتاب بعنوان " مكتبة رمضان " جمع عبد الله العوشن فيه ثلاثين مؤلفاً عن رمضان وليس فيها إلا مؤلف واحد مما ذكرنا في هذا المقال .. والثلاثون هي :

١ - كيف نستقبل شهر رمضان	تأليف عبد الله بن جار الله
٢ - بين يدي رمضان	تأليف محمد المقدم
٣ - نداء رمضان	تأليف أحمد الخليف
٤ - الصيام	تأليف محمد عقلة ـ الأردن
٥ - أحاديث الصيام	تأليف د. عبد الله الفوزان
٦- مجالس رمضان	تأليف محمد بن صالح بن عيثمين
٧ - رسالة رمضان	تأليف أبي بكر الجزائري
٨ - توجيهات للصائمين	تأليف عمر بن سعود
٩- الصوم مدرسة تربي الروح	تأليف الدوسري

١٠- صوموا تصحوا	تأليف سعيد الأحمري
١١ - أخطاء شائعة تتعلق بشهر رمضان	تأليف أحمد السلمي
١٢ - المناهل الحسان في دروس رمضان	تأليف عبد العزيز السلمان- المتوفى ١٤٢٢هـ
١٣ - الصيام أحكام وآداب	تأليف عبد الله الطيار
١٤ - الصوم علاج	تأليف أمية لحود
١٥ - الصوم بين الطب والفقه	تأليف حسان شمس باشا ومحمد علي البار
١٦ - مخالفات رمضان	تأليف السدحان
١٧- إتحاف أهل الإيمان بدروس رمضان	تأليف الشيخ صالح الفوزان
١٨ - رسائل للصائمين	جمع رياض بن عبد الرحمن
١٩ - من الأسرار الطبية للصيام	تأليف أحمد هاشم
٢٠- رياض الجنان في رمضان	إعداد عبد المحسن بن علي
٢١ - نفحات رمضانية	إعداد فهد بن عبد العزيز
٢٢- من فتاوى العلماء في الصيام	جمع بعض طلبة العلم
٢٣- فضائل رمضان	تأليف محمد الحوامدى
٢٤ - المختار للحديث في رمضان	إعداد بعض طلبة العلم
٢٥ - الدروس الرمضانية	جمع لجنة مؤسسة الحرمين الخيرية
٢٦- الصيام	إعداد علي أبو لوز
٢٧ - فضائل ليلة القدر	إبراهيم الحازمي
٢٨ - وقفات رمضانية	إعداد د. أحمد العليان

٢٩ - مجموعة رسائل رمضانية — عبد الله بن جار الله

٣٠ - الصيام أحكام ومنافع — مجموعة من طلبة العلم

---

(١) للشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر الأسبق المتوفى في ١٢/ ٤/ ١٩٧٥م كتيب مطبوع عن ليلة القدر .

(٢) هي ثماني ركعات وبعدها ثلاث للوتر .

(٣) يقول ابن تيمية : يجوز أن تصلى عشرين ركعة كما هو المشهور في مذهب أحمد والشافعي ، وأن تصلى ستاً وثلاثين كما هو مذهب مالك ، أو أن تصلى ثماني ركعات أو عشر ركعات .. وكله حسن .

تهـذيـب الأخـلاق
لابن مسكويـه

(١)

نحن مع حضارة العقل الإسلامي المبدع في القرن الرابع والخامس وهما قمة عصور الابتكار والتجديد في التراث الإسلامي .

مع عالم كبير هو الإمام / ابن مسكويه أحمد بن محمد (٣٣٠ ـ ٤٢١هـ : ٩٤٢ ـ ١٠٣٠م) الفارسي الأصل ، العربي النشأة والثقافة واللغة ، ومن أئمة الإسلام وأعلامه الخالدين ، حيث عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري ، وكان ميلاده بالري ، ووفاته في بغداد دار السلام ، وعاصمة الإسلام الكبرى .

وقد درس على المنهج الدراسي القديم المألوف في عصره في المدارس العربية ، فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والأخبار والفلسفة والطب وعلم العدد ـ الحساب ـ وشارك في علوم كثيرة ، حتى ذاع فضله ، وانتشر صيته في كل مكان ، وقربه إليه عضد الدولة البويهي ، فعينه خازنا لدار الحكمة ، فصار أثيراً عنده ، مقربا لديه ، ونشر علمه وفضله في آفاق ملكه .

عاش ابن مسكويه في العصر البويهي ، الذي ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الإغريق ، وألموا إلماماً واسعا بطرف من حكمة اليونان والروم والهند والفرس ، إلى حكمة العرب وتجاربهم ، وكان اتصاله بالوزير المهلبي المتوفى عام (٣٥٢هـ ـ٩٦٣م) ، ثم بابن العميد الوزير المتوفى عام (٣٦٠هـ ـ ٩٧١م) ، ثم بابنه أبي الفتح المتوفى عام (٣٦٦هـ ـ ٩٧٧م) ، ثم بعضد الدولة ابن بويه (٣٧٢هـ ـ٩٨٢م) ، من الأسباب التي أنمت تجاربه وحكمته ، وساعدته على الاتصال بكل جوانب الثقافة الإسلامية والمترجمة ، وخاصة أنه عاش في عصر انقسام الخلافة العباسية إلى دويلات ، وظهور

القوميات المستقلة ، وقد عمر طويلا حتى اتسعت خبرته بالحياة ، وزادت معارفه في شتى جوانب الثقافة ,وبخاصة الفلسفة . وكانت الفلسفة الإسلامية قد نمت وتعددت مذاهبها وازدهرت حلقاتها العلمية وتوالى جيل الفلاسفة المسلمين جيلا إثر جيل .

وإذا كان من أئمتها أبو إسحاق الكندي(٢٥٢هـ ـ ٨٦٦م) في القرن الثالث ، فقد نبغ فيها في القرن الرابع ، المعلم الثاني الفارابي (٣٣٩هـ) ، وابن سينا (٤٢٨هـ ـ١٠٤٧م) ، وابن مسكويه ، وجماعة إخوان الصفا ، وسواهم من أعلام الفكر الإسلامي ، وقرأ ابن مسكويه للسالفين والأقدمين ، واطلع على أصول الفلسفة الإغريقية ، إلى ثقافته الإسلامية الرفيعة ، حتى صار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء .

ومن مؤلفاته الفلسفية كتابه المشهور " تهذيب الأخلاق " ، وكتبه : " ترتيب السعادات ، والفوز الأكبر ، والفوز الأصغر " ، وألف في الطب ، وله في التاريخ كتاب قيم هو " تجارب الأمم " .

وهكذا كان موسوعة في كل فن ، ومرجعاً في كل علم ، وأستاذاً كبيراً ، تتلمذ عليه ، وتخرج به أعلام الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري وما بعده من قرون وأجيال .

وكتاب " **تهذيب الأخلاق** " يعد أصلاً فريداً من أصول الثقافة الإسلامية ، وقد كتبه للعلماء ومحبي الفلسفة ، ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك ، وليصل ـ كما كان يحلم ـ بالمطَّلع عليه إلى السعادة المنشودة ، وقد تأثر في منهجه فيه بالمعلم الأول أرسطو في كتابه " الأخلاق " .

وكان لابن مسكويه من التجارب الكثيرة في الحياة ما يدفعه إلى الكتابة في الأخلاق ، ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التي تؤدي إليهما .

ويتضح هذا من عهده الذي كتبه لنفسه وهو سطور في كتاب " المقابسات " للتوحيدي (٤١٣هـ ـ ١٠٢٢م) .

وقبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه يصح لنا أن نتساءل : ما هي الفلسفة ؟ وما هي الأخلاق ؟ وما هي الصلة بينهما ؟ .

الفلسفة هذه الكلمة المعربة عن اليونانية مأخوذة من كلمتي " فيلوس " بمعنى محبة ، و" سوفيا " بمعنى الحكمة ، فمعنى الكلمة إذن محبة الحكمة ، ومعنى الفيلسوف هو محب الحكمة ، وكان فيثاغورث (٥٨٢-٤٩٧ق . م) أول من سمى حب الحكمة باسم الفلسفة (١) .

ويقول " بارتلمي سانتهليز " في مقدمة كتاب " الكون والفساد " لأرسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد : إن فيثاغورث لما سأله " ليون " طاغية " سيفونيا " عن عمله ، أجاب بأنه فيلسوف ، وهو اسم لم يُسْمَعْ من قبل في اللغة اليونانية ومعنى الفلسفة عامة قديما تأمل أسرار الكون الإلهية الأبدية الخالدة ونواميسه الثابتة التي لا تتغير ، وكان الفلاسفة الإغريق " أطاليس ، وانكسمندر ، وانكسمنيس " يسمون أنفسهم حكماء ، فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق اسم فلاسفة عليهم وعلى نظرائهم ، وعلى الأرجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه لا يصح أن تنسب الحكمة إلى غير الخالق الأبدي ، فالحكيم وحده عنده هو الله ، ومن ثم استبدل بكلمة حكيم كلمةَ فيلسوف ، أي محب للحكمة ، وقد تطور معنى الكلمة تطوراً كبيرا على مختلف العصور .

أما الأخلاق فهي كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل ، التي يعتنقها ويؤمن بها صفوة الناس وأخيارهم ، التي دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم وحضت عليها الكتب السماوية المقدسة ، واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وفلسفة الأخلاق هي الأصول الأخلاقية التي يشرعها الفكر للسلوك الإنساني ، مما يرجع الأمر فيه إلى فكر المفكرين والفلاسفة والحكماء ، وذلك مما دعا إليه ابن مسكويه هذا الإمام الكبير ، والمربي الروحي العظيم والأستاذ الرفيع المنزلة عند علماء عصره ، من مثل آرائه في الفضيلة ، وفي نواميس الاجتماع وفي أسس السعادة .

(٣)

ومع أن شخصية ابن مسكويه شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة في كتاباته ، إلا أنه اجتماعي يرى لعوامل كثيرة أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده ، وعملي كذلك لا يكتب في الأخلاق ليسجل آراءه فحسب ، بل يكتب وهدفه الوصول عمليا لتعود الأخلاق الفاضلة ، والتخلق بها .

وإذا كان " سبينوزا " (١٦٢٢ـ ١٦٧٧م) في كتابه " علم الأخلاق " قد عد الفكر والإرادة صفتين جوهريتين لذات الله ، ونظر كذلك إلى الحرية على أنها عين ذات الله أو عين فعاليته اللامتناهية في نفوذها إلى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهي وفقاً لقوانين ضرورية ، وجعل النفس الإنسانية هيئة لصفة الفكر الإلهي ، فإنه نظر إلى المعرفة الناتجة عن طريق الحواس على أنها معرفة ظنية ، أما المعرفة المحصلة بالعقل فهي عنده معرفة يقينية ، فقد سبقه إلى ذلك ابن مسكويه في كتابه ، وينتهي " سبينوزا " بمذهبه الأخلاقي إلى نهاية مشرقة أخص خصائصها هذه الصبغة الروحية التي تألقت بها جوانب عقله وروحه . وذلك هو ما سجله ابن مسكويه في كتابه .

وإذا عدنا إلى كتاب " مبادئ الأخلاق " ، " لجورج مور " (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م) وجدنا عنده ومضات كثيرة من فيلسوفنا ابن مسكويه . ويعد كتاب " مبادئ الأخلاق " أول تطبيق عملي للمنهج التحليلي على مشكلات الأخلاق في الفلسفة المعاصرة ، وبحوثه عن الخير والسعادة وغيرهما تجد جذورهما عند ابن مسكويه في كتابه الذي جعله ست مقالات متميزة .

(٤)

ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى ، كل واحدة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباينة ، فقد تجنح نحو الإفراط ، أو تهبط نحو التفريط ،

فيكون ذلك شراً ورذيلة ، وقد تكون وسطاً معتدلة ، لا إلى هذا ولا إلى ذلك ، فيكون هذا خيراً وفضيلة .

وإذن فالنفس عنده لها ثلاث فضائل رئيسة بعدد هذه القوى ، وتنظيم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها ، وبانسجام هذه الفضائل فيما بينها تكون فضيلة أخرى ، وهي كمال الفضائل الثلاث السابقة ، لذلك أجمع الحكماء على أن أصول الفضائل هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة . كما قرر ذلك ابن مسكويه في " تهذيب الأخلاق " .

على أن عالمنا الكبير قد تأثر في هذه النظرية بنظرية الأوساط المعروفة التي شرحها أرسطو ثم الفارابي من بعده شرحاً طويلاً .

ورأى أبو علي ابن مسكويه أن للنفس فضيلة أخرى هي أشبه بها ، وهي التشوف للعلم والمعرفة . والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب إليه سقراط ، والرذيلة هي الجهل ، وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك .

ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول : " إن من الناس من لا يدري كيف يحسن إلى نفسه ، التي هي محبوسة ، فيقع في ضروب من الخطأ ، لجهله بالخير الحقيقي . أما من عرف لنفسه كرامتها ، واختار لها الخير الحقيقي الذي هو الأعلى . فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات " .

والسعادة عند مسكويه هي الخير التام في نفسه ، وهو متأثر في نظريته هذه بآراء فلاسفة الإغريق ، على أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية ، التي لا يطلبها إلا الرعاع والعامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات .

بل إن السعادة عنده هي في أمر واحد هو الحكمة التي يستحق من يحوزها أن يسمى حكيما وفيلسوفا ، وأن ينال بذلك السعادة الكاملة المنشودة (٢) .

(٥)

ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعياً ، عرف لجسمه حقه ، ولنفسه حقها ، ولمجتمعه حقه .

فدعا الإنسان إلى أن ينيل جسمه ما به حياته ، وما يتفق مع المروءة ، وأن يكمل نفسه العاقلة بالفضائل الخلقية ، وبالفضيلة الفلسفية .

والإنسان عنده مدني بالطبع ، وقد نظر أبو علي إلى الذين يعيشون عالة على الناس نظرة سخرية واستخفاف .

وهكذا كان ابن مسكويه عمليا في فلسفته الأخلاقية ، في كتابه المأثور " **تهذيب الأخلاق** " يبحث في الفضيلة ويبينها ، وفي السعادة ويحددها ثم يتبع هذا وذاك برسم المنهج الذي يؤدي إلى الظفر بهما .

ولم يكن هذا الإمام الكبير متعصباً لرأي ، ولا منحازاً مع عصبية ، فقد أخذ أصول مذهبه الخلقي من الإسلام الكريم ,ومع ذلك استفاد الكثير من الثقافتين الفارسية والإغريقية .

لقد مضى على وفاة ابن مسكويه عشرة قرون هجرية ، ومع ذلك فلا تزال آراؤه في الفضيلة والخير والسعادة وحرية الإرادة وفي المسؤولية الإرادية وغيرها ، جديدة .

ويا ليت تراث هذا الإمام الكبير يجد من يعنى به تحقيقاً ودراسةً وبحثاً ويجد من ينشره في طبعات جميلة تقربه إلى أذهان شباب هذا الجيل .

وكتاب ابن مسكويه " تجارب الأمم " من أمتع الكتب التاريخية ، التي تجعل من فيلسوفنا مؤرخاً كبيراً في عصر جيل الأئمة الكبار من أعلام القرنين الرابع والخامس الهجري .

رحم الله مؤلفه ونفع بتراثه الأجيال .

---

(١) الفلسفة كما هي في المفهوم اليوناني القديم والغربي الحديث هي التأمل في الكون والحياة لوضع تفسير لهما من خلال العقل البشري غير معتمد على الفطرة التي فطر الله الناس عليها بعد أن انحرفت ، ومنكراً للغيب الذي لا يعلمه إلا الله ومنكراً لكتاب الله الكريم ، فما يصل إليه هذا العقل البشري يسمونه حكمة أو فلسفة . وأما الحكمة في الإسلام فهي شيء آخر ، يؤتيها الله من يشاء من عباده : " **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد** " (لقمان : ١٢) (الناشر) .

(٢) ونقول : إن السعادة الحقيقيّة هي في صفاء الإيمان والتوحيد ، وتدبّر منهاج الله وممارستها في الحياة . (الناشر) .

حديقة الورد
للسعدي الشيرازي
٥٩٥-٦٩٠هـ / ١١٩٩-١٢٩١م

أكتب هنا عن " كلستان " ، أي حديقة الورد للسعدي الشيرازي ، لأن ندوة أدبية عقدت في إيران ضمت أدباء عرباً وأدباء إيرانيين ، عن السعدي ومكانته في الفكر الإسلامي والعالمي .

وكلستان ، أو حديقة الورد ، أو جنة الورد ، أشهر كتب التراث الفارسي ، وأكثرها تداولا حتى اليوم ، وقد طبع عشرات الطبعات ، وترجم إلى سائر اللغات الحية في الشرق والغرب ، حيث ظهرت أول ترجمة له في أوروبا بالفرنسية عام ١٦٣٤م ، ثم ظهرت ترجمة لاتينية له عام ١٦٥١م ، وترجمة هولندية في نفس العام ، وترجمة إنجليزية عام ١٧٧٤م ، وأخرى روسية عام ١٨٨٢م .

وأول ترجمة عربية للكتاب كانت ترجمة سقيمة صدرت عام ١٩٢١م للخواجا جبرائيل بن يوسف ، وترجمة د. محمد هنداوي ، كما ترجمه الدكتور أمين عبد المجيد بدوي أستاذ الأدب الفارسي في جامعة القاهرة سابقاً ، ونشر في طبعة جيدة بعنوان " جنة الورد " . وهو من منشورات المركز العربي للصحافة في القاهرة .

وشهرة الكتاب ترفعه إلى مصاف التراث العالمي ، والأدب الإنساني الرفيع ، وهو مثل آثار " شكسبير " في عالميتها . وأدباء الفرس يعدونه آية في البلاغة والفصاحة ، ويتخذونه مصدراً أدبياً وأخلاقياً وهو في لغتهم الأصلية حكايات وقصص منثورة ، وبعضها منظوم ، وفي ثناياها شعر عربي وفارسي ، وقد قصد السعدي منه غرضين : الأول أدبي تعليمي ، والثاني أخلاقي عملي ، في أسلوب قصصي بليغ ، وكما يقول السعدي في أسلوبه : إنه ينفع المتكلمين ، ويزيد بلاغة

المترسلين . ويراه الإيرانيون النموذج الرفيع للأسلوب الأدبي . ويعتمدون عليه في التربية والتعليم لما حواه من حكم ومثل أخلاقية عالية ، وهو عندهم أقوم كتب التربية بالقصص .

ألف السعدي ـ ابن شيراز ـ الكتاب عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م عام سقوط بغداد في قبضة التتار ، بعد أن طوّف في بلاد الدنيا ، وخالط الناس من شتى الطبقات ، وذاق من الأيام حلوها ومرها ، والسعدي فيه داعية إصلاح ، ويتجاوز في بعض المواقف أفق الوطنية والقومية إلى آفاق إنسانية فسيحة .

والسعدي من أشهر الأدباء والشعراء الفرس ، وقد عاش ما يقرب من مائة عام ، مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره ، وتلقى ثقافته في الدين والتصوف والأدب والشعر في شيراز ، وجاب البلاد ، وكانت بغداد أولى مقاصده ـ حيث أتم في المدرسة النظامية دراسته ، والتقى فيها قبل نكبتها بعلماء بغداد وأدبائها وشعرائها ، وتأثر بأستاذين جليلين له ، هما : شهاب الدين السهروردي الصوفي ، وأبو الفرج الجوزي .

وبعد نكبة دار السلام طاف بالعالم الإسلامي عن طريق بلخ وغزنة والبنجاب ، فزار كجرات ودهلي ، حيث التقى فيها بالأمير خسرو الشاعر ، وهناك تعلم الهندوستانية والأوردية ، ثم رحل إلى اليمن والحبشة والحجاز ، حيث أدى فريضة الحج ، وذهب إلى الشام ، واستمع إليه الناس في المسجد الأموي بدمشق ، ونقل الماء في القدس ، وساق المطايا في أستانبول ، وعلمته الأيام وتجاربها أن الإنسان الكامل هو الذي يهتم بآلام الناس أكثر مما يهتم بآلام نفسه ، ولذلك كان ينتقد بعض الصوفية الذين يتخذون التصوف وسيلة للكسب والمعاش ، فالمؤمن في رأيه يجب أن يوطن نفسه على أن ينفع الناس ، لا أن ينتفع منهم .

وفي أثناء إقامة السعدي في الشام أسره الصليبيون في طرابلس ، وبعد أن فُكّ أسره ذهب إلى حلب ، فمصر وشمال أفريقيا وبلاد المغرب ، كما طوف في بلاد

آسيا الصغرى ، والتقى في " قونية " ، بجلال الدين الرومي (٦٠٤ـ ٦٧٣هـ / ١٢٠٨ـ١٢٧٣م) ، ثم رجع إلى شيراز حيث عكف في موطنه على التأليف ونظم الشعر وكتابة الرسائل والتأملات الصوفية .

(٢)

وللسعدي ديوانان ترجما إلى العديد من اللغات ، وهما : الجولتان ، والبستان ، الذي ترجمه د. هنداوي ، والديوان الآخر ترجمه د. الشواربي بعنوان " أغاني شيراز " .

وشعر السعدي من الشعر التهذيبي الأخلاقي ، ويذكر فيه أفكار عصره الفلسفية والدينية ، وفيه من الحكم والأمثال السائدة في أيامه الكثير .

وعن السعدي ظهرت دراسات عديدة : للدكتور عبد الوهاب عزام ، وللشاعر السوري محمد الفراتي ، ومحمد موسى هنداوي الذي أطلق على السعدي لقب " شاعر الإنسانية " ، وللدكتور إبراهيم الشواربي ، وللدكتور إحسان عباس .

وتحتوي مكتبات استانبول والهند نسخا خطية من كلستان السعدي نسخت في زمن يعاصر حياة السعدي نفسه .

(٣)

وكتاب " كلستان " حكايات أخلاقية صوفية صيغت في أسلوب نثري مسجوع ، تتخلله أبيات وقطع شعرية وبعض أبيات عربية ، والكتاب بعد المقدمة في ثمانية أبواب :

الأول : في سير الملوك .

الثاني : في أخلاق الدراويش .

الثالث : في فضيلة القناعة .

الرابع : في فوائد الصمت .

الخامس : في العشق والشباب .

السادس : في الضعف والشيخوخة .

السابع : في تأثير التربية .

الثامن : في آداب الصحبة .

ويقول السعدي في سبب تأليفه الكتاب : " ذات ليلة كنت أتأمل الأيام الخالية ، وآسف على العمر التالف ، وأثقب حجر درة القلب بماس الدمع " .

وبعد تأملي هذا المعنى رأيت المصلحة أن أجلس في مجلس العزلة ، وألم ذيلي من الصحبة ، وأغسل الدفتر من لغو الأحاديث ، حتى دخل صديق كان في الهودج أنيسي ، وبالحجرة جليسي ، ومهما أبدى السرور والمؤانسة لم أجبه ، ولم أرفع رأسي عن ركبتي في جلسة تعبدي ، فتألم ، فأطلعه أحد أتباعي على جلية الأمر ، قائلا : إن فلانا قد عزم على أن يعتكف بقية العمر ، ويؤثر الصمت ، وأنت أيضا إن استطعت فامض لطيِّتك ، فقال : بالعزة العظيمة ، والصحبة القديمة ، لا أصعد نفساً ، ولا ارفع قدماً ، ما لم يتكلم على عادته المألوفة ، وطريقته المعروفة . واتفق لي مبيت الليل في البستان مع أحد الأخلاء ، فقال : ما الطريق والرأي ؟ قلت لأجل نزهة الناظرين ، وفسحة الحاضرين أستطيع أن أصنِّف كتاب " جنة الورد " كلستان . واتفق لي في تلك الأيام القليلة تبييض بعض فصول في حسن المعاشرة ، في عبارة تنفع المتكلمين ، وتزيد بلاغة المترسلين ، وفي الجملة كانت لا تزال هناك بقية بقيت من ورد البستان ، عندما تم كتاب " كلستان " . ويكون التمام حقاً إذا يلقى الرضا من حضرة الملك سعد بن أتابك الأعظم .

وفي الكتاب أثر مصر واضح في بعض فصول الكتاب ، من مثل حكاية هارون الرشيد وولاية مصر ، والوزير ، وذي النون المصري ، وعام القحط في الإسكندرية .

وهذه إحدى قطع الكتاب القصصية الجميلة .

يقول السعدي :

كان بأحد الملوك مرض عضال ، واتفقت جماعة من الأطباء اليونانيين على أنه ليس لهذا الداء دواء إلا مرارة آدمي يتصف بعدة صفات ، فأمر الملك أن يطلبوه ، فوجدوا ابن قروي بتلك الصفة التي ذكرها الأطباء ، فاستدعوا أبويه وأرضوهما بنعم لا حدَّ لها ، ورأى بعض أتباعه أنه يجوز إراقة دم واحد من آحاد الرعايا من أجل سلامة الملك ، فقصد الجلاد قتله ، فوجه الفتى وجهه نحو السماء مبتسما ، وتمتم بشيء فسأله الملك : ما موضع الضحك في هذه الحالة ؟ فقال الفتى : لأن دلال الولد على الوالدين ، والدعوة ترفع أمام القاضي ، والعدل يطلب من الملك ، والآن قد أسلمني أبواي للقتل بسبب حطام الدنيا ، وأفتى المفتي بقتلي ، ويرى السلطان مصالحه في هلاكي ، لا وزر لي الآن غير الله - عز وجل - عند من أستغيث من حولك وقوتك . عندك أنت أيضاً أطلب الإنصاف من قدرتك .

فانقبض قلب السلطان من كلامه وجال الدمع في عينيه ، وقال : إن هلاكي أولى من إراقة دم بريء كهذا ، وقبل رأسه وعينيه واحتضنه ، وأنعم عليه بنعم لا حد لها وأطلقه ، ورُوِيَ أنّ الملك شفي في نفس الأسبوع ، وما زلت أفكر في ذلك البيت الذي قاله فيَّال " سائس الفيل " على شاطئ النيل : آه ، إن حال النملة تحت قدمك - لو تعلم - مثل حالك تحت قدم الفيل .



د. محمد عبد السلام كفافي

(٧/٥/١٩٢١ـ٢٨/٦/١٩٧٢م)

والشعـر الفـارسي

(١)

رائد كبير من عصر كبير في تاريخ مصر المعاصر ، عصر الفكر والعلم والثقافة والأدب ، عصر النهضة الحقيقية في حياتنا الحضارية في القرن العشرين .

وكان الدكتور كفافي أحد الأعلام الرواد ، في عصر شوقي وحافظ وطه حسين والعقاد وشكري والمازني وأبو شادى ، وسواهم من الرواد .

أدى رسالته ، ثم رحل عنا ، وهو في الحادية والخمسين من عمره ، عمر المتنبي وأبي تمام وابن المعتز وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وأضرابهم من المجددين والمبدعين ، الذين لقوا ربهم وهم في الحادية والخمسين . كان والده عبد السلام كفافي (١٨٩٠ـ١٩٣٧م) أستاذاً وأديباً ، وله مؤلفات عديدة منها : كتابه " **عمرو بن العاص** " ، وكتابه " **إعراب اللغة العربية** " ، وفي مكتبته الزاخرة نما عقل طفله الصغير ، كما كان جده لوالدته الشيخ عبد السلام الدواخلي من العلماء المشهورين .

ولد الابن محمد عبد السلام كفافي في ٧ مايو ١٩٢١م على شواطئ بحيرة المنزلة التي كانت تتبع مديرية أو محافظة الدقهلية آنذاك قبل أن تلحق بدمياط ، فهو ابن الدقهلية الخالد .

وما لبث أن أتم تعليمه الابتدائي في وطنه ، وفي دمياط القريبة منه ، ثم يمم وجهه شطر المنصورة فدخل مدرستها الثانوية الأميرية ، وزامل طلاباً ما لبثوا أن صاروا أعلاماً مشهورين ، من مثل : الشاعر الهمشري ، ومختار الوكيل ، ومحمد عبد الغنى حسين ، وصالح جودت ، وغيرهم ، ونال البكالوريا عام ١٩٣٩م ،

وهو في الثامنة عشرة من عمره ، والتحق بجامعة القاهـرة طالباً في معـهد اللغات الشرقية بكلية الآداب ، حيث نال منه الليسانس في الآداب عام ١٩٤٣م ، وحصل بعد ذلك على دبلوم الدراسات العليا في اللغات الشرقية عـام ١٩٤٥م ،ثم على الدبلوم العالي للمكتبات والوثائق عام ١٩٤٦م ، وفي العام نفسه ابتعثته الجامعة إلى جامعة لندن ليقضي فيها أربع سنوات حصل في نهايتها على الدكتوراه في الفلسفة في تحقيق وشرح ودراسة لكتاب (بيان الأديان) لأبي المعالي محمد .

وعاد إلى وطنه ليدخل في سلك هيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة أو جامعة فؤاد الأول ، كما كانت تسمى من قبل ، وذلك عام ١٩٥٠م .

وسافر إلى أمريكا محاضراً في إحدى جامعاتها بين عامي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ ثم ندبته الجامعة إلى جامعة بيروت العربية . وما لبث أن أسندت إليه عمادة الكلية في عام ١٩٦٤م فقضى فيها عامين . ومن بيروت صدرت له كتب عديدة ، من بينها : دراسة في علوم القرآن ، ومختارات من كتاب " **النصيحة** " لفريد الدين العطار الشاعر الفارسي الصوفي المشهور المتوفى عام ٦٢٧هـ وهو صاحب " منطق الطير " المشهور .

وكتاب " **النصيحة** " منظومة شعرية ، كما صدر له كتاب " **شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومي** " ، وكتاب "**الرومي في حياته وشعره**" (٦٠٤ـ٦٧٢هـ) ، وكذلك صدر له كتاب في الأدب المقارن وآخر عن الحضارة الإسلامية .

وكان أستاذه عبد الوهاب عزام حبَّبه في كتاب " **المثنوي** " لجلال الدين الرومي ، فعكف على ترجمته من الفارسية وأتمه قبل أن يرحل عن عالمنا إلى عالم الخلود بقليل ، وقد طبع منه الجزء الأول والثاني في بيروت عام ٦٦و١٩٦٧م ، ثم طبع طبعة جديدة كاملة بعد ذلك في أربعة أجزاء صدرت عن دار الشروق لحساب جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا بإشراف شقيقته المرحومة الأستاذة الدكتورة سعاد كفافي .

وكم سهر د. كفافي الليالي من أجل إنجاز هذا العمل الكبير ترجمة وشرحاً ودراسة، مما أرهق صحته ففاضت روحه إلى بارئها في الثامن والعشرين من يونيو ١٩٧٢م رحمه الله .

(٢)

وديوان " المثنوي " لجلال الدين الرومي يحمل فكر الدكتور كفافي مترجمة، وفلسفته الروحية وأدبه وعلمه الغزير، وهو شاهد صدق على عبقرية هذا الجامعي الرائد في مجالات هذه الدراسات .

إن قصة رحلة د. كفافي مع " المثنوي " وصاحبه جلال الدين، بدأت منذ كان طالباً في معهد اللغات الشرقية يستمع إلى فصول ومختارات من " المثنوي " يلقيها أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام (ت ١٧/ ١/ ١٩٥٩م) في محاضرته على طلابه، وينصت إلى إشادة أستاذه بجلال الدين وإبداعه وعبقريته وبديوانه " المثنوي " .

ولكن الرحلة العملية للدكتور كفافي مع " المثنوي " بدأت منذ عام ١٩٦٠م حيث أخذ يعمل فعلاً في ترجمة هذا الأثر الأدبي العالمي الخالد، وظهر الجزء ١، ٢ في حياته عام ٦٦ و ١٩٦٧م .

وأكمل في حياته مشواره مع " المثنوي " شرحاً وكتابةً " دراسات علمية جامعية " عنه .

(٣)

و" المثنوي " ، كما يقول الدكتور كفافي، يتناول الحياة بكل جوانبها وفي شتى أحوالها وصورها . ولم يكن سبيله في معالجاته سبيل واعظ فقط بل سبيل الشاعر الفنان كذلك .

والمعروف أن شاعر " المثنوي " جلال الدين بدأ في نظمه عام(٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) فأتم نظم الجزء الأول منه بين عامي (٦٥٧،٦٦٠هـ) ثم استأنف النظم بعد عامين، أي عام ٦٦٠هـ حتى أتمه وهو في صورته الحالية قبل وفاته عام (٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) .

ويقول د. كفافي : " إن الجزء السادس والأخير من " المثنوي " ينتهي بقصة لم تصل إلى نهايتها، كأنه كان يعتزم المضي في النظم، لكنه قد نص في بداية الجزء السادس على أنه آخر أجزاء " المثنوي " .

ويشيد الدكتور كفافي " بالمثنوي " ، ويراه ملحمة شعرية إنسانية، فقد تناول جلال الدين فيه الكثير من المعارف والعلوم، واشتمل على بضع مئات من القصص .

وبحسب " المثنوي " دعوته للإخاء والحب بين بني البشر، وتحذيره من الحروب، وحضه على العدالة والمساواة بين الناس مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم .

وهو أثر من الآثار الأدبية الإنسانية الخالدة . وقد شرحه كمال الدين الخوارزمي (ت ٨٤٠هـ) شرحاً واسعاً بكتابه " كنوز الحقائق ورموز الدقائق " .

و" المثنوي " بحق هو في عداد الآثار الأدبية العالمية، وينوه به كل الباحثين المتخصصين وفلاسفة الفكر في الشرق والغرب .

كان الذي أغرى جلال الدين بنظم " المثنوي " هو تلميذه حسام الدين (٦٢٢-٦٨٣هـ) حيث ألح عليه في ذلك طالباً منه أن ينظم عملاً شعرياً على غرار " حديقة الحقيقة " للشاعر الفارسي سنائي و" منطق الطير " لفريد العطار (الذي يحتوي على ٤٦٠٠ بيت من الشعر) .

ولذلك يقول جلال الدين في " المثنوي " :

" يا حياة القلب

يا حسام الدين

هذا أنا ذا أحمل إليك الجزء السادس الذي يتم به المثنوي " .

وقد أدت ترجمة الدكتور كفافي له هدفها في توضيح أفكاره وشرح فلسفته ، وتقريب مضامينه إلى أذهان الناس وعقولهم وأذواقهم ، ومن أجل ذلك أضحت هذه الترجمة أهم إصدار أدبي عالمي في بدايات القرن الحادي والعشرين .

(٤)

هذا هو قليل من كثير : عن إيداع الدكتور كفافي في ترجمة المثنوي ، وإبداع شاعر " المثنوي " في نظم فلسفته وأفكاره في الحياة .

فمن هو إذن شاعر المثنوي ؟

جلال الدين الرومي (٦٠٤ـ٦٧٢هـ) شاعر الصوفية الأكبر كما يلقبه د. كفافي .

(٥)

والدارسون وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور كفافي يرون أن شاعر " المثنوي " أكبر شعراء الصوفية في كل زمان ومكان ، وأنه واحد من شعراء الإنسانية الأفذاذ .

ولد جلال الدين في بلخ وهي إحدى مدن أفغانستان الكبيرة ، وكان الميلاد في السادس من ربيع الأول من عام (٦٠٤هـ ١٢٠٨م) .

وخوفاً من الغزو المغولي تنقل والد جلال الدين بابنه وبجميع أفراد أسرته من مكان إلى مكان : نيسابور ـ وبغداد ـ ودمشق ، وأخيراً وفي عام ٦٢٤هـ استقر به المقام في قونيه ، ومن ثم قيل لجلال الدين : البلخي والقونوي ، كما قيل له الرومي ، لأن قونيه من بلاد الأناضول ، وهي من أرض الروم ، وكانت قونيه آنذاك عاصمة للحاكم السلجوقي علاء الدين .

وكان والد جلال الدين يلقب بسلطان العلماء لعلمه وفضله وتقواه .

وقد توفي عام ٦٣٨ـ في قونيه .

وعاش جلال الدين في هذه المدينة ثمانية وأربعين عاماً . يعمل واعظاً ومرشداً ومعلماً وشاعراً صوفياً . سيطر على قلوب تلاميذه ومريديه بشخصيته القوية .

وكان موضع تقدير الناس كافة وإجلالهم وحبهم الكبير .

وفي عام ٦٤٢هـ كان شاعرنا العبقري جلال الدين يجلس على حافة غدير ماء إذ مر به شيخ كبير مهيب ، فرحب به الشاعر ، وبدأ الشيخ معه الحديث قائلاً : ماذا تفعل هنا يا بني ؟ ورد عليه جلال الدين : أبحث في عالم الشعر والخيال ، وأستلهم الوحي والجمال ، وأتأمل في هذه الموجودات التي أوجدها موجدها .

هذا الشيخ هو شمس تبريز الذي قضى جلال الدين في صحبته عامين ذهب بعدهما الشيخ إلى حيث لا يدري أحد له مثوى ، وكان ذلك أوائل عام ٦٤٥هـ ، ويقول جلال الدين في رثائه :

من ذا الذي قال إن شمس الروح قد ماتت ؟

من ذا الذي يتجرأ على القول بأن سحب الأمل قد تولت ؟

ونظم جلال الدين في رثاء شيخه ديواناً كاملاً سماه (ديوان شمس تبريز) .

وعاش جلال الدين في قونيه بين مريديه ثمانية وأربعين عاماً ينشد الناس شعره وينظم الحكمة ، ويتأمل الحياة والكون ، ونظم " المثنوي " وأتمه إلى أن توفاه الله عام (٦٧٢هـ ١٢٧٤م) ، وذلك في الخامس من جمادى الآخرة وترك من المؤلفات :

١ - كتاب " فيه ما فيه " وهو مجموعة من مواعظه .

٢ - الرسائل " وهو مجموعة من رسائله إلى أقاربه وأصدقائه .

٣ - المجالس السبعة " وهو مواعظ وخطب .

وترك من الشعر :

٤ - ديوان " شمس تبريز " ، وهو ٣٥٠٠ قصيدة وأبياته ٤٣ ألف بيت من الشعر .

٥ - الرباعيات " وهي منظومات عددها ١٦٥٩ رباعية تشتمل على ٣٠٣١٨ بيت شعر .

٦ - " المثنوي " ، وشعر المثنوي شكل من أشكال الشعر الفارسي ، ومعناه النظم المزدوج الذي يتحد فيه شطرا البيت الواحد في القافية ، ويكون لكل بيت قافيته .

ويتميز شعر " المثنوي " بكثرة الحكم والأمثال ، وباستخدام القصة ، وبعذوبة الموسيقى وحلاوتها وبجدة الموضوعات ، وبروعة الحوار ، وجمال الصور الشعرية وبعمق المعاني ودقتها وباتخاذ الموضوعات البسيطة موضوعاً للقصيدة .

وإذا كان الفردوسي إماماً في الشعر الملحمي ، والخيام رائداً في الرباعيات الفلسفية ، والأنوري أستاذاً في القصائد الصوفية الطويلة ، والسعدي إماماً في الغزل والحب الإلهي ، وحافظ أستاذاً في الغزل الصوفي ، فإن الرومي كان إماماً لكل الشعراء الروحيين في الأدب الإسلامي .

(٦)

وبحق لقد قدم الدكتور الخالد الرائد / محمد عبد السلام كفافي في مجلداته الأربعة الصادرة عن دار الشروق ، أجمل أثر أدبي عالمي لمحبي الشعر .

وأصبح في يَدنا " المثنوي " مترجماً عن الفارسية ومشروحاً ومدروساً بأجمل أسلوب ، وَأدق عبارة ، وتجلت في هذه الترجمة الأنيقة فلسفة المترجم والشاعر الروحية النابضة بالحياة والأمل والنور والجمال .

إنه عمل كبير لا ينساه التاريخ الأدبي ، ولا تنساه محافل الأدب ، ولا يمكن أن تنساه الأجيال المؤمنة بالروح وبالحب وبالإشراق الرفيع ، وبالحوار الإنساني بين الثقافات والحضارات .

وماذا نستطيع أن نقول في الذكرى الحادية والثلاثين لوفاة العالم الكبير الجامعي الأستاذ كفافي مترجم المثنوي ؟

بل وماذا نستطيع أن نقول في ذكرى مرور أكثر من سبعمائة وخمسين عاماً على وفاة صاحب " المثنوي " ، جلال الدين الرومي .

ومن عالمنا المادي نبعث إلى روحي الشاعر والمترجم في سماء الخلود أجل آيات التقدير والحب العظيم .

النهـج الإبداعـي للآمدي الناقـد

للدكتور عبد الحميد محمد العبيسي

(١)

الآمدي الحسن بن بشر (٣٠٠ـ ٣٧١هـ) البصري شيخ النقاد العرب في القرن الرابع الهجري، وكتابه " **الموازنة بين الطائين في شعريهما** " ، أي بين أبي تمام والبحتري الشاعرين الكبيرين، من شعراء القرن الثالث الهجري كتاب مشهور، لأنه من أجلِّ كتب النقد في القرن الرابع، هذا العصر الزاهر الحافل بالنقاد من مثل قدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) مؤلف كتاب " **نقد الشعر** " ، والقاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ) مؤلف كتاب " **الوساطة بين المتنبي وخصومه** " ، والحاتمي (٣٨٤هـ) صاحب " **الرسالة الحاتمية** " ، وغيرهم.

وقد نال كتاب " **الموازنة** " شهرة علمية لم ينلها كتاب آخر، وكتبت عنه عشرات الدراسات والبحوث والرسائل.

ومن أطرف ما ظهر عنه من دراسات في هذه الأيام كتابان جليلان :

الأول : كتاب " **عمود الشعر العربي في موازنة الآمدي** " للدكتور علي مصطفى صبح الأستاذ بجامعة الأزهر.

والثاني : كتاب " **النهج الإبداعي للآمدي الناقد** " للدكتور المرحوم عبد الحميد محمد العبيسي أستاذ النقد الأدبي في جامعتي الأزهر والإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهو موضوع حديثنا في هذه الصفحات.

وقد عرض لعمود الشعر في النقد الأدبي باحث آخر هو الدكتور محمود علي السمان الأستاذ بجامعتي الأزهر وطنطا في كتاب جديد صدر له هذه الأيام أيضا بعنوان " عمود الشعر في النقد الأدبي " .

(٢)

والدكتور العبيسي أديب متذوق ، وناقد متخصص ، وعالم متمكن .

وقد عرض في كتابه لحياة الآمدي وظهور فن الموازنات ، ولمنهج الآمدي في النقد والموازنة ولمقاييسه الإبداعية في النقد الأدبي ، ولوجوه النقد البياني في الموازنة ، ذلك كله في دقة تحليل وشرح و بحث وتفصيل .

والكتاب بيان لمعالم النقد التطبيقي التحليلي عند العرب ، وإرساء لأصول الموازنة الموضوعية ، وتأصيل للفكر النقدي والبلاغي عند العرب ، ورد علمي على الدعاة إلى مذاهب النقد الغربي ، ودراسة للمقاييس النقدية المبتكرة التي أبرزها هذا الناقد الكبير صاحب كتاب الموازنة ، وتقييم لجهود الآمدي في تناول وجوه النقد البياني .

ويشرح الدكتور العبيسي الأسباب التي حفزته إلى كتابة هذا البحث ، ومن أهمها :

١ - أن الآمدى الناقد أصدق تعبير عن الأصالة العربية في النقد .

٢ - أنه يمثل ظاهرة فريدة بين نقاد القرن الرابع الهجري ، بما ابتكره من مناهج في الموازنة .

٣ - أنه أعظم نقاد الأدب العربي .

٤ - أنه قد وعى الارتباط الوثيق بين موضوعية النقد وحتمية الذوق في العمل النقدي .

٥- أن الموازنة أول وأضخم كتاب عربي في فن الموازنة الأدبية .

٦ - أنها صورة للمعركة النقدية والأدبية بين المحافظين والمجددين في العصر العباسي الأول .

٧ - أن دعاة المذاهب الغربية يحاولون الغضّ من الآمدي وموازنته إلى غير ذلك من الأسباب التي دعته إلى كتابة هذا البحث .

وفي فصول متعاقبة يعرض المؤلف الدكتور العبيسي لمنهج الآمدي النقدي ، ولخطته في الموازنة ، ولمقاييسه الإبداعية في النقد ، ولموقفه من السَّرقات الشعرية ، ولغير ذلك من المقاييس النقدية .

(٣)

ولقد عرض الدكتور المؤلف فكر الآمدي ومنهجه النقدي في هذا الكتاب عرضاً قوياً مثيراً .

ومن أهم ما كشف عنه ، منهج النقد البياني عند الآمدي في " الموازنة " وهو المنهج الذي وضع أصوله أبو عثمان الجاحظ (١٦٠-٢٥٥هـ) مؤسس البيان العربي بكتابه " البيان والتبيين " . وانتهى الدكتور المؤلف إلى أن أصول هذا المنهج عند الآمدي تتمثل فيما يلي :

١ - الصورة الفنية عند الشاعر ممثلة في : التشبيه - الاستعارة - المجاز - الكناية .

٢ - الأصباغ البديعية : من تجنيس وطباق واستطراد .

٣ - أدوات البناء الشعري .

٤ - المعاني (المجازية الأسلوبية) .

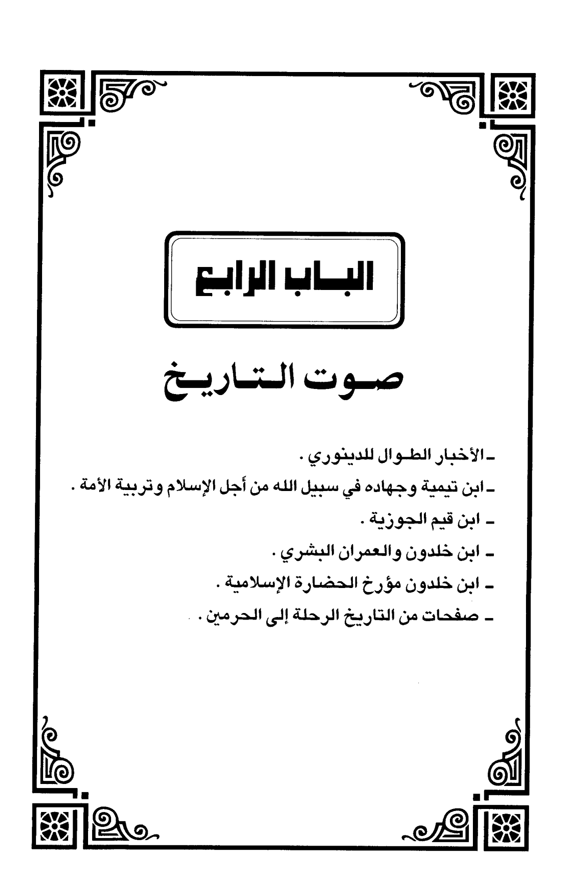
وغير ذلك .

(٤)

ويملك الدكتور العبيسي ذوقاً أدبياً رفيعاً يتجلى لنا في جميع فصول الكتاب ودراساته وينتهي إلى أن الآمدي يملك الذوق الأدبي العالي الذي نجده متفقا تماماً في كثير من مناحيه مع ما أبرزه عميد النقد الموضوعي " لانسون " الذي يقرر أنه " في الأدب لا يمكن أن يحل شيء محل التذوق " . ومن قبل أكد لنا الآمدي

العربي أن مردَّ الأمر في الأدب إلى الذوق ، فكلاهما يلح على أهمية استخدام الذوق الأدبي في الحكم النقدي ، ليبلغ بنقده غاية الأمانة والنزاهة والإنصاف .

وإني لا أملك إلا أن أهنئ الباحثين بهذا البحث العميق الرائع الذي كتبه د. العبيسي بأسلوب أديب ، وذوق ناقد ، وعقل عالم متمكن غاية التمكن من كل ما عرض له من دراسات في النقد والأدب والبيان .



الباب الرابع

صوت التاريخ

- الأخبار الطوال للدينوري .
- ابن تيمية وجهاده في سبيل الله من أجل الإسلام وتربية الأمة .
- ابن قيم الجوزية .
- ابن خلدون والعمران البشري .
- ابن خلدون مؤرخ الحضارة الإسلامية .
- صفحات من التاريخ الرحلة إلى الحرمين .



الأخبار الطوال للدينوري

(١)

القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي (١١ من أغسطس ٨١٥ ـ ١٨ من أغسطس ٩١٢م) ، شهد ميلاد نهضة حضارية جديدة في العالم العربي والإسلامي لم يشهدها " عصر " من قبل ، نهضة رفعت لواءها الخلافة العباسية في المشرق ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وكان للخلافة العباسية النفوذ الروحي والسياسي في العالم الإسلامي .

ويعد هذا القرن من أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، وصفحاته المشرقة من أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والفكري والأدبي للعرب خاصة وللمسلمين عامة .. وقد امتد فيه نفوذ العباسيين من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وارتفعت فيه راياتهم في كل الآفاق ، تأوي إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون ، وتقوم المدارس ، وتنشأ الجامعات ، وتترجم الثقافات الأجنبية ، ويؤدي أعلام الفكر والثقافة واجبهم من أجل خير الإنسانية ، وتعيش فيه شتى العناصر والأجناس والألوان في ظلال الإخاء والسلام والمحبة .

وفيه تألقت العواصم الكبرى ، في شتى أنحاء الوطن الإسلامي الكبير ، مزدهرة بنور المعرفة والثقافة والعلم ، بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط ، وفاس ، وقرطبة وما إليها .

ونوابغ الفكر الإسلامي وأعلامه وعلماؤه ، لا يحصى عددهم ، الثقافات العالمية كلها تتجمع وتتمثل في الثقافة الإسلامية ، وحركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية موصولة ، مما أثرى به الفكر الإسلامي ثراء كبيراً ، وكان المأمون في بغداد يمثل قمة ازدهار العقل الإسلامي ، كان عالما متطلعاً واسع الثقافة ، كثير الاطلاع وكان ينفق بسخاء على حركة ترجمة الثقافات إلى اللغة العربية ، حتى لقد أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة هذه

التراجم ، ويرغبهم في نقلها . كما كان يخلو إلى الحكماء ، ويأنس بمحاضراتهم ، ويأمر ولاته بأن يبعثوا له بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين بيزنطة أن يرسلوا إليه مجموعة من الكتب النادرة ، واستدعى المهندس البيزنطي " ليد " إلى بغداد ، ولكن إمبراطور بيزنطة " تيوفيل " لم يأذن له بالسفر ، فبعث المأمون إلى الإمبراطور يطلب منه السماح له بالسفر إلى بغداد ، ولكن الإمبراطور أقام العراقيل أمامه . وكان السلام بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية ضرورياً للعالم كله ، وكتب " نيقولا ميستيكوس " بطريق القسطنطينية إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يقول : " إن أعظم قوى العالم أجمع : قوة المسلمين . وقوة الروم ، فهما تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة " .

ولقد حفل هذا القرن بأعلام كبار قادوا مسيرة الحضارة الإسلامية إلى طريق القوة والازدهار ، ومن رواد هذا الطريق : الجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبو حنيفة الدينوري صاحب كتاب " الأخبار الطوال " الذي نقدمه اليوم في هذه الدراسة الموجزة .

مثَّل الجاحظ العقل الحضاري في تألقه وسطوعه وإحاطته بشتى المعارف والثقافات . من حيث مثل ابن قتيبة الفكر الإسلامي في شموخه وجلاله واتساعه وتجدده تمثيلا كاملا . وأحاط أبو حنيفة الدينوري بكثير من الثقافات الأدبية والدينية والعلمية إحاطة تامة تقصر عن مداها كل ثقافات علماء عصره . حتى لقد عده أبو حيان التوحيدي أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم ، في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ، ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم : الجاحظ ، وأبو حنيفة ، وأبو زيد البلخي . ووصفه كذلك بأنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، وله في كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم .

وكان أبو حنيفة يُقْرَنُ بالجاحظ في فصاحته ويختلف الأدباء فيهما : أيهما

أبلغ ، فينتهون إلى أبي سعيد السيرافي (٢٦٨هـ) ، فيُحَكِّمونه في تلك القضية ، فيقول : أبو عثمان " الجاحظ " أكثر حلاوة ، وأبو حنيفة أكثر نداوة ، ومعاني أبي عثمان لائطة ـ عالقة ـ بالنفس ، سهلة في السمع . ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب ، كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء .

(٢)

وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري العالم المشهور ، والأديب النحوي اللغوي الراوية والمؤرخ البارع في مجال التاريخ ، والمهندس المنجم النباتي ، حتى لقد قال عنه ياقوت في معجم الأدباء (١:١٢٤) : " كان نحوياً ، لغوياً ، مهندساً ، منجماً ، حاسباً ، راوية ، ثقةً فيما يرويه ويحكيه " ، وترجمت له دائرة المعارف الإسلامية ، وياقوت في " معجم الأدباء " ، والسيوطي في " بغية الوعاة " ، والبغدادي في خزانة الآداب " ، وأحمد أمين في " ضحى الإسلام " .

كان ميلاده في أوائل القرن الثالث الهجري ، في عصر المأمون ، في دينور ، وتلقى ثقافته الأولى في دينور ، ثم رحل إلى الكوفة ، وأخذ فيها النحو على ابن السكيت ، وتلقى ثقافاته العلمية على أيدي أعلام الأساتذة في كل مكان رحل إليه . من بعد بغداد والبصرة وأصفهان وغيرهما . وفي عام ٢٣٥هـ ـ ٨٥٠م كان في أصفهان يرصد الكواكب ، ويسجل نتائج رصده .

وكانت ثقافة أبي حنيفة واسعة في مختلف العلوم . وكان تمكنه من الثقافة اليونانية والهندية أوسع منه عند صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة .

وقد فاقت شهرته بالكتابة في النبات كل شهرة . وأخذ عنه علماء عصره ومن بعدهم ، ونقل عنه " ابن سيده " في كتابه " المخصص " ، وابن البيطار في مفرداته ، ولم يقتصر على النباتات العربية وحدها ، بل ألمّ بما رآه من نباتات في مختلف الأصقاع ، وألمّ بما كتب عنه في العربية وغيرها .

(٣)

وكتاب " الأخبار الطوال " كما يقول أبو حنيفة عنه : " فيه ذكر ملوك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز، وذكر من ملك من ملوك قحطان ، وملوك الروم ، وملوك الترك ، وذكر الأئمة والخلفاء والحروب الجمل وصفين ويوم النهروان ومقتل الحسين ، وفتنة ابن الزبير ، وذكر خلافة عبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز ، إلى انقضاء ملك بني أمية ، وخبر الدولة العباسية ، وقصة أبي مسلم ، إلى بنائه مدينة بغداد ، وأيام الخلفاء من بعده إلى انقضاء أمر محمود الأمين ، وخبر المأمون إلى آخر أيام المعتصم ، وخبر بابك وحروبه وأيامه ، مختصراً من السير ، مقتصراً على الاقتصاد .. "

وفي الكتاب الكثير من المعلومات عن علاقة العرب بالفرس مما لا يوجد في مصادر أخرى .

والقسم الفارسي في الكتاب خصب غاية الخصوبة ، وكذلك القسم الأموي ، بما نشبت فيه من وقائع ، وما قام من أحداث وما اضطرب فيه من مشكلات سياسية ومذهبية .

وبروح المؤرخ الثقة الأمين يروي أبو حنيفة الكثير من قصص التاريخ في كتابه ، موجزاً ، ومثيراً ، وممتعاً ، ومؤثراً في الوقت نفسه .

يقول أبو حنيفة في خلافة الرشيد :

" وفي ذلك العام ـ العام السبعين بعد المائة ـ استخلف هارون الرشيد ، وحج وانصرف على المدينة ، فوضع لأهلها العطاء ، وأجزل لهم ، فأقبل إلى العراق فوافى الكوفة ، وعقد لأبي العباس الطوسي على خراسان ، وفي سنة أربع وسبعين ومائة وقعت المصيبة بأرض الشام بين المُضَرِّيّة واليمانية ، فتحاربوا ، حتى قتل بين الفريقين بشر كثير . وحج الرشيد في ذلك العام بالناس ومعه ابناه محمد وعبد الله ، وكتب بينهما كتابا بولاية العهد لمحمد ، ومن بعده لعبد الله المأمون ،

وعلق الكتاب في باب الكعبة ، ثم انصرف إلى مدينة السلام " . فقال الكسائي : ولأني الرشيد تأديب محمد وعبد الله ، فكنت أشدد عليهما في الأدب ، وآخذهما به أخذاً شديداً ، وبخاصة محمداً . فأتتني ذات يوم خالصة جارية أم جعفر ، فقالت : يا كسائي إن السيدة تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد ، فانه ثمرة فؤادي ، وقرة عيني ، وأنا أرق عليه رقة شديدة ، فقلت لخالصة : إن محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التقصير في بابه ، فقالت خالصة : إن لرقة السيدة سببا أنا مخبرتك به ، إنها في الليلة التي ولدته فيها أريت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه ، فاكتنفنه عن يمينه وشماله ومن أمامه وورائه ، فقالت التي بين يديه : ملك قليل العمر ، ضيق الصدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوزر ، شديد الغدر ، وقالت التي من ورائه : ملك قصاف ، مبذر ، متلاف ، قليل الإنصاف ، كثير الإسراف ، وقالت التي عن يمينه : ملك ضخم ، قليل الحلم ، كثير الإثم ، قطوع للرحم . وقالت التي عن يساره : ملك غدار ، كثير الوزر ، سريع الدمار . ثم بكت خالصة ، وقالت يا كسائي ، وهل يغني الحذر ؟

وذكر عن الأصمعي ، قال : دخلتُ على الرشيد ، وكنت غبت عنه حولين بالبصرة فأوما إليَّ بالجلوس قريبا منه ، فجلست قليلا ، ثم نهضت ، فأوما إليَّ أن أجلس ، فجلست حتى خف الناس ، ثم قال لي : يا أصمعي ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ! قلت : بلى ، يا أمير المؤمنين ، إني لأحب ذلك ، وما أردت القيام إلا إليهما ، لأسلم عليهما . قال الرشيد : تُكْفَى ، ثم قال : عليَّ بمحمد وعبد الله ، فانطلق الرسول وقال : أجيبا أميرَ المؤمنين ، فاقبلا كأنهما قمرا أفق ، قد قاربا خطاهما ، وضربا ببصرهما الأرض ، حتى وقفا على أبيهما ، فسلما عليه بالخلافة ، وأومأ إليهما ، فدنيا منه ، فأجلس محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن شماله ، ثم أمرني بمطارحتهما ، فكنت لا ألقي عليهما شيئا من فنون الأدب إلا أجابا فيه ، وأصابا ، فقال الرشيد : كيف ترى أدبهما ؟ قلت يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثلهما

في ذكائهما وجودة ذهنهما ، فأطال الله بقاءهما ، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما ، فضمهما إلى صدره ، وسبقته عبرته ـ دمعته ـ حتى انحدرت دموعه ، ثم أذن لهما ، حتى إذا نهضا وخرجا ، قال : كيف بكم إذا ظهر تعاديهما ، وبدا تباغضهما ، ووقع بأسهما بينهما ، حتى تسفك الدماء ، ويود كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى ، قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا شيء قضى به المنجمون عند مولدهما أو شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما ، قالوا : فكان المأمون يقول في خلافته : قد كان الرشيد يسمع جميع ما جرى بيننا ، من موسى بن جعفر بن محمد ، فلذلك قال ما قال .

قال الأصمعي : وكان الرشيد يحب السمر ، ويشتهي أحاديث الناس ، فكان يرسل إليَّ إذا نشط لذلك ، وجنَّ عليه الليل ، فأسامره ، فأتيت ليلة ، ولم يكن عنده أحد ، فسامرته ساعة ، ثم أطرق وفكَّر ، ثم قال : يا غلام ، عليَّ بالعباسي ، يعني الفضل بن الربيع ، فحضر ، ودخل ، فأذن له بالجلوس ، فقال يا عباسي ، إني عنيت بتولية العهد ، ومثبت الأمر في محمد وعبد الله ، فما ترى ، قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن هذا أمرٌ خطير وعظيم ، والكلام فيه مكان غير هذا ، فعلمت أنهما يحبان الخلوة فقمت عنهما ، وجلست ناحية من صحن الدار ، فما زالا يتناظران ، إلى أن أصبحا ، واتفق رأيهما على تولية محمد العهد ، وتصيير عبد الله من بعده ، وقسمة الأموال والجنود بينهما ، وأن يقيم محمد بدار الخلافة ، ويتولى المأمون خُراسان . فلما أصبح أمر بجمع القواد ، فاجتمعوا إليه ، فدعاهم إلى بيعة محمد ، ومن بعده بيعة المأمون ، فأجابوا إلى ذلك وبايعوا .

وينتهي الكتاب بخلافة المعتصم وموته عام ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م .

وبمثل هذا الأسلوب الرفيع الدقيق البليغ الموثق بالرواية ، وبالفكر السياسي العميق ، يمضي الكتاب رائعاً ومهيباً وجليلاً إلى نهايته ؟

ويمضي أبو حنيفة الدينوري بعد تأليف الكتاب يضرب في الأرض نحو

خمسين عاماً ، حتى تستأثر به رحمة الله عام ٢٨٢هـ ، على أرجح الآراء في تاريخ وفاته .

لقد كان أبو حنيفة مثلاً رائعا للريادة العلمية في عصره ، بعد وفاة الجاحظ ، وكان في علمه الرياضي فريدا ليس له نظير من علماء عصره ، ويدل على ذلك تأليفه في الفلك والحساب ، والجبر والمقابلة ، والقبلة ، والزوال والكسوف ، والبحث في حساب الهند ، وغيرهما .

كان أبو حنيفة مثلاً رائعاً كذلك لعصر امتزاج الثقافات ، واتساع الأفق العلمي أمام الباحثين ، وعصر النهضة العلمية والأدبية ، التي شهدها القرن الثالث الهجري ، وعاش فيها أجيال العلماء والأدباء والباحثين .

ترك ثروة علمية كبيرة ، ضاعت من بين أيدينا ، وبقى منها " الأخبار الطوال " هذا الكتاب التاريخي الفريد ، الذي ينم عن ثقافة مؤرخ عظيم الفهم لأحداث التاريخ ووقائعه . ومن كتب أبي حنيفة : كتاب الأنواء ، وكتاب في الفصاحة ، وكتاب في النبات ، وكتاب في الوصايا ، وكتاب في التفسير ، وآخر بعنوان جواهر العلم ، وكتاب إصلاح المنطق ، وهو امتداد لكتاب أستاذه ابن السكيت "صلاح المنطق " أو شرحَ عليه ، وكتاب في الجبر والمقابلة ، وكتاب في لحن العامة .

وبحق كان أبو حنيفة من أفذاذ العلماء الذين جمعوا بين بلاغة العرب ، وحكم الفلاسفة ، وتركوا أثراً خالداً باقياً على وجه الزمان .



ابـن تيميـة
وجهاده في سبيل الله من أجل الإسلام وتربية الأمة

٦٦١ ـ ٧٢٨هـ

(١)

من أعلام الفكر الإسلامي ، وصاحب مدرسة إسلامية أحدثت أثرها في الثقافة الإسلامية ، وتربى عليها أجيال من الأمة على مر العصور حتى اليوم .

وقد نشأ في عصر انحسر فيه المد المغولي عن العالم الإسلامي ، وتولت أسرة المماليك في مصر حماية الحدود الشرقية لمماليك العروبة والإسلام ، ونشأ عن ذلك امتداد الثقافة العربية من مصر والشام ، وكذلك وجدت مظالم كثيرة بسبب طغيان بعض المماليك ، لذلك كان ابن تيمية لسان نصح وإرشاد وتوجيه ، ودعوة إلى الحق والعدل والشعور بالمسؤولية وتبعات الحكم . وكان هذا النصح الدائب منه إلى الحاكم يوقفه مواقف الاضطهاد من الحاكم ، حتى لقد سجن مراراً ، ولكنه لم يكفّ يوماً ما عن أداء رسالته ، والقيام بواجبه وإرضاء ضميره .

عاش ابن تيمية في عصر الجهاد الحربي في سبيل الدفاع عن الوطن الإسلامي ، وشارك بنفسه وماله وفكره وفقهه في معارك الإسلام الكبرى في حياته ، وترك تراثاً خالداً من عبقرية البطولة ، وعظمة التضحية والجهاد في سبيل الله من أجل الإسلام والمسلمين ، ولقد عاش الإمام ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله الحراني) في فترة من أشد فترات التاريخ الإسلامي حرجاً ، وأكثرها خطراً ، وأعظمها إثارة . فقبل ميلاده بخمس سنوات سقطت بغداد في أيدي التتار وصار الشرق العربي كله معرضاً لغزوهم وتدميرهم ، وكانت مصر والشام آنذاك قد انتهى حكم الأيوبيين منهما ، وتسلمت أمورها والحكم فيها دولة جديدة هي دولة المماليك التي وضع القدر بين يديها مصير الشرق العربي والعالم الإسلامي يومئذ .

وتقدم هولاكو التتري ـ من بغداد ـ بعد أن سقطت بين يديه ـ إلى الشام فاستولى عليها ، وواصل سيره إلى مصر . وفي أرض فلسطين ، وفي معركة عين جالوت ، قاتله قطز ملك المماليك وسلطانهم قتال الأبطال . وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م كان النصر حليف سلطان المماليك ، وسُحقَ الغزاة المدمرون ، وعاد قطز من المعركة والعالم الإسلامي كله يهتف باسمه وأكاليل المجد والحمد تطوق عنقه ، إلا أن بيبرس قائده اغتاله في الطريق ، وتولَّى عرش مصر بعده عام ٦٥٨هـ حتى عام ٦٧٦هـ ، وقد أحيا الخلافة العباسية من جديد ، وجعل مقرها في ديار مصر .

وفي أوائل حكم بيبرس ولد الإمام ابن تيمية عام ٦٦١هـ وعاش في ظلال دولة المماليك البحرية التي امتد سلطانها فشمل الشام واليمن والحجاز وأطراف العراق ، وعاصر ابن تيمية السلطان الأشرف خليل الذي قضى على إمارات الصليبيين في الشام عام ٦٩١هـ ومن خلفه من السلاطين ، وكان مولد الإمام ابن تيمية في حران ، ثم انتقل به و بإخوته والده إلى دمشق ، حيث أقام ، وبها نشأ وعاش ، وامتدت به الحياة سبعاً وستين سنة حافلة بالأحداث والمحن ، والخطوب .

وابن تيمية من أسرة علمية جليلة ، وكان أبوه وجده من علماء الإسلام المبرزين ، وكانا مثلين سائرين في الزهد والورع ، وكانا يقومان بالخطابة والوعظ وخدمة القرآن والقيام على السنة مع الزهد والعفة والدين ,وقد قال الذهبي في والده : كان إماماً محققاً كثير الفنون ، وإنما اختفى من ضوء الشمس ـ يريد والده ـ ونور القمر ـ يريد ابنه . كانت دمشق في هذا العهد تضج بمجالس العلم ، وحلقات العلماء ، وكان للحنابلة فيها شأن أي شأن ، ومن أجلِّ علمائها آنذاك موفق الدين بن قدامة الذي يقول فيه تلميذه ابن تيمية ، لم تر الشام بعد الأوزاعي مثل " موفق الدين " ، وقد تولى منصب قاضي القضاة في دمشق مدة طويلة ٦٤٦ـ ٦٧٦هـ ودرس ابن تيمية في المدرسة العسكرية بدمشق وتخرج فيها ، كما تخرج فيها والده من قبل . حفظ ابن تيمية القرآن واشتغل بالحديث ، ونبغ في التفسير ،

وقرأ كتب الطبقات ، وتفوق في العربية ، وقرأ كتاب سيبويه ، وكان نادرة زمانه حفظاً ورواية ,وذكاء وفقهاً في علوم الدين . وحفظ ابن تيمية العلوم ، واستوعب السنن والآثار ، وصار إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، وإن ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، وإن حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من علمه ، ولا أرفع من رايته ، برز في كل فن ، وكل علم ، ولم تر عين مثله ، آية في نقد الرجال ، عمدة في الجرح والتعديل ، وعالم بالتفريع والتأصيل ، وإمام في القراءات ، وفقيه بمختلف المذاهب والآراء والنظريات ، قام بين الخلق بنشر السنة ومذاهب السلف ، شجاعته وإقدامه وجهاده أمر تجاوز الوصف ، وفاق النعت ، واشترك في حرب التتار وجاهد في الله بلسانه وسنانه ، وشهد له علماء عصره بالتبريز ، حتى قال فيه معاصره الشيخ إبراهيم الرقي : الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه ، ويُقَلَّد في العلوم ، فإن قال ملأ الأرض علماً ، فهو على حق ، ولا بد من أن يعاديه الناس ، لأنه وارث علم النبوة . وقال فيه العمري : هو نادرة العصر ، وهو البحر من أي النواحي أتيته ، وهو البدر ـ من أي الضواحي رأيته . قطع الليل والنهار دائبين ، واتخذ العلم والعمل صاحبين ، إلى أن أسر السلف بهداه ، ونادى الخلف عن بلوغ مداه ، جاء في عصر مأهول بالعلماء ، مشحون بنجوم السماء ، إلا أن شمسه طمست تلك النجوم ، وبحره غرق تلك العلوم ، ترد إليه الفتاوى فلا يردها ، تغدو عليه من كل وجه فيجيب عنها .

ووصفه الذهبي بالعلم الغزير في الحديث وعلومه والتفسير ودقائقه ، ويقول : ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه ، بيَّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، وينصر قولاً واحداً يوافق ما دل عليه القرآن والحديث . وقال فيه الحافظ الزملكاني : له اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداود الحديد . كان الإمام ابن تيمية يترسم خطا الإمام أحمد بن حنبل ، ويجله من كل جوانبه وبخاصة في الفقه والعقائد ، ويقول

عنه صار أحمد مثلاً سائراً يضرب في المحنة والصبر على الحق ، ولم يكن يأخذه في الله لومة لائم ، صارت الإمامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد .

(٢)

نزل ابن تيمية مصر يستنهض المماليك لحرب المغول . فأقام عند شرف الدين العمري ، ولقبه أبو حيان النحوي ، فأعجب به أبو حيان ، وقال في ابن تيمية : ما رأت عيناي مثله ، وفي عظمة الإمام ابن تيمية في التفسير ، وسعة اطلاعه فيه يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم عَلِّمْني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم إبراهيم عَلِّمْني ، ولقد بلغ الإمام ابن تيمية رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين ، ومع أنه كان حنبلياً ، فقد كان له اجتهاد في مذهب أحمد وينكر التعصب له ولغيره ، ويقول : من تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء ، سواء تعصب لمالك أو لأبي حنيفة أو لأحمد أو غيرهم ، وذكر أن هذا التعصب كان من أسباب تفريق المسلمين ، وتسليط الله التتار على بلادهم ، ويعتمد مذهب أحمد على خمسة أصول : النص وفتوى الصحابة ، والتخير من أقوال الصحابة ـ عند اختلافهم ـ وما كان أقرب إلى الكتاب والسنة ، والأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ، ويرجحه على القياس ، وأخيراً القياس حيث يستعمله للضرورة . وهذا ما كان عليه رأي ابن تيمية . وقد اعتبر ابن تيمية الإجماع حجة ، والقياس الصحيح حجة ، والمصالح المرسلة حجة إذا استندت إلى شاهد من كتاب أو سنة ، ويقول بوجوب أن تكون الأمور كلها ـ مردودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يختار من الآراء الفقهية والأصولية ما يراه متفقاً مع ما صح عنده من فهم للكتاب أو للسنة ، وربما مال في بعض المسائل عن مذهبه إلى مذهب أبي حنيفة أو مالك . وقد حصل الفلسفة وكتب فلاسفة الإسلام ونقدها ، وعاب المنطق بأن بعضه حق وبعضه باطل .

(٣)

وألف ابن تيمية في كل علم ، وجال في كل فن ، حتى بلغت مؤلفاته نحو الثلاثمائة ، مع ما ابتلي به من المحن والمحبس الطويل في قلعة دمشق ، وفي سجون القاهرة والإسكندرية ، سجن في القاهرة في البرج ، ثم في الجب هو وأخواه زين الدين وشرف الدين ، ولم يزده السجن إلا إصراراً على عقيدته .. وظل كذلك حتى أخرجه حسام الدين مهنا بن عيسى شيخ عربان الشام من حيث بقي فيه ثمانية عشر شهراً ، وصبر ابن تيمية على أذى الأمراء ، وأذى العامة وعلى محن الحبس ، وعلى مكائد علماء عصره ، وزار في مصر سجن القضاة بحارة الدبلم قريباً من الأزهر ، وعاش في الإسكندرية في برج مطبق له شباكان ، أحدهما إلى جهة البحر ، ولعله قلعة فايتباي ، وكان ينتقل من سجن إلى سجن ، تنقل النجم من برج إلى برج حتى أسلم الروح إلى بارئه عام ٧٢٨هـ بعد كفاح طويل ، وحياة حافلة بالأحداث والخطوب .

ومن أجلِّ كتبه : فتاواه الشهيرة ذات الأثر الضخم في حياة المسلمين في عصره وبعد عصره حتى اليوم ، ومن كتبه : منهاج السنة ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، والفرقان ، ورسائله الحموية ، والتدمرية ، والواسطية ، والبعلبكية ، والأزهرية .

ومن المسائل التي أوذيَ الإمام ابن تيمية بسببها والتي أثارها نضاله مع الروافض ، مسألة زيارة القَبور ، فقال في كتابه ـ منهاج السنة ـ إن منهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة ، وهو يرى أن هذه المغالاة في تعظيم القبور والمشاهد وشد الرحال إليها لم يرد في الكتاب والسنة ، ولا عمل من صحابة أو تابعين .

ويقول في فتواه المشهورة في شد الرحال إلى القبور : أول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهل البدع من الروافض

الذين يعطلون المساجد ، ويعظمون المشاهد ، مع أنه لا يمنع الزيارة الخالية من شد الرحال بل يندب إليها ، وكتبه ومناسكه شاهدة بذلك ، وكانت هذه الفتوى سبباً في حبسه في قلعة دمشق .

وقد أنكر ابن تيمية التوسل والوسيلة ، ويرى أن الوسيلة هي العمل الصالح يقدمه صاحبه بين يديه أمام الله عز وجل .

وينتمي ابن تيمية إلى مذهب أهل الحديث والسنة ، ويقول بمذهب الجماعة كأحمد بن حنبل ، ويخاصم المعتزلة والأشاعرة ، وينقد الأشعري والباقلاني وإمام الحرمين والغزالي ، وكان ينكر على الغزالي تحكيمه للفلسفة وقوانين المنطق في أحكام الشريعة وأصولها ، ويبين أنه إنما عول على ابن سينا وجماعة إخوان الصفا ، واخذ عنهم من الفلسفة ، كما أخذ من مذاهب التصوف ابن أبي حيان التوحيدي ، واستمد من قوت القلوب لأبي طالب المكي ومن كتب الحارث المحاسبي ، ومن رسالة القشيري ، وقد خلط التصوف بالكلام والأصول بالفلسفة . وتأثر ابن تيمية بأسلوب الغزالي في المناقشة والجدل ، واستعمل في ذلك أساليب الفلسفة ، واصطلاحات المناطقة في شتى رسائله وكتبه . وله كتاب الرد على المنطق ، وكتاب الرد على الفلاسفة .

وناقش الشيخ ابن تيمية الخوارج والشيعة والروافض ، وكتابه " منهاج السنة النبوية " الذي كان نسيج وحده ـ يمثله لنا عالماً من الطراز الأول . ويناقش فيه رأي الشيعة والباطنية والقرامطة ، ويقول إن السواحل الشامية إنما استولت عليها النصارى من جهتهم ، وقد كفَّر الروافض ونقد المنحرفين . وفي كتابه " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " يحاج الصوفية ، ويقول : إنه لا يجوز لأي أحد أن يعتقد أن لأولياء الرحمن وأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء . ويرى أن آراء ابن عربي وابن سبعين ، وابن الفارض ، هي فلسفة يونانية خالصة .

(٤)

وقال ابن تيمية : لا يجوز للقادر على الاستدلال أن يقلد إلا عند الحاجة ، فقد فتح باب الاجتهاد لكل قادر ، وفي كتابه " السياسة الشرعية " يرسم القواعد لإصلاح حال الراعي والرعية ، ومذهب ابن حنبل يتمسك بنصوص الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والوجه ، وغير ذلك من أحاديث الصفات . ويقول ابن تيمية في عقيدته الحموية عن أحمد : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والسنة ، وذلك من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ، ويرى ما رآه أحمد في القرآن الكريم من أنه كلام الله ، وهو غير مخلوق فمنه بدا وإليه يعود كما ذكر في العقيدة الواسطية .

هذه الآراء الدينية الخطيرة هي التي ألَّبت عليه الحكام والعامة ، وعلماء عصره وقادته إلى المحن ـ والخطوب ، وإلى السجن مرات ومرات ، وعاش مولِّياً وجهه إلى السماء ، وكان في الغاية التي انتهى إليها من الورع ، حتى استأثرت به رحمة الله .

وكان من أجل تلاميذه ابن القيم [١] رحمه الله (٦٩١ـ٧٥١هـ) (١٢٩٢ـ١٣٥٠م) .

وترك الإمام ابن تيمية ذكراً خالصاً وعلماً نادراً وكتباً سائرة ، ودعوات إصلاحية تقوم على مذهبه تأخذ منه وترجع إليه وتعتبره عمدتها في الأصول والفروع ، ومنها الدعوة الإصلاحية الكبرى دعوة الإمام المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وغيرها من الدعوات السلفية . جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

*** مصادر البحث :**

- مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي .
- حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لبهجة البيطار .

- طبقات الحنابلة لأبي يعلى .
- أحمد بن حنبل للشيخ محمد أبو زهرة .
- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب .
- ابن تيمية بطل الإصلاح الديني لمحمود مهدي استنبولي .
- ابن تيمية لمحمد يوسف موسى .
- ابن تيمية لعبد العزيز المراغي ، سلسلة أعلام الإسلام .
- وراجع قادة الفكر الإسلامي للشيخ عبدالله بن سعد الرويشد .

---

(١) ابن قيم الجوزية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي لازم الإمام ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن في جميع العلوم الإسلامية وأوذي مرات وسجن مع شيخه ابن تيمية في قلعة دمشق ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ ، وله الكثير من المؤلفات مثل : زاد المعاد ، ومدارج السالكين ، وحادي الأرواح .

ابـن قيـم الجـوزيـة

(٦٩١-٧٥١هـ) (١٢٩٢-١٣٥٠م)

ابن القيـم أو ابن قـيم الجوزية شيخ الإسلام ، شمس الدين ، أبو عـبد الله ، محمد بن أبي بكر بن سعد ، الزرعي ، ثم الدمشقي ، من أعلام الإسلام وأئمته وكبار شيوخه .

كـان أبوه قيـم المدرسة الجـوزية التي أنشأها الإمـام ابن الجـوزي - ٥٩٧هـ - بسوق القمح بدمشق . فقيل له ابن القيم ، أو ابن قيم الجوزية .

تخرج على والده وعلى شيوخ عصره ، ودرس العلوم الإسلامية والعربية ، ونبغ فيها ، أخذ الأصول والفقه على شيخه الصفي الهندي ، وعلى كمال الدين الزمالكاني - ٨٢٧ هـ ، وعلى شيخ الإسلام ابن تيمية - ٧٢٨هـ - الذي لقيه عام ٧١٢هـ - وهي السنة التي عاد فيها الإمام ابن تيمية من مصر إلى دمشق ، فلازمه واتبع مذهبه ، وانتصر له .

تعلم ابن القيم الجوزية ، ودرس بالمدرسة الصدرية أيضاً ، ونبغ في الكلام والأصول والتفسير ، وسار على المذهب الذي كان يسير عليه شيخه ابن تيمية ، وهو مذهب السلف من التمسك بالكتاب والسنة ، وعدم تأويل نصوصهما ، ويسمى مذهب أهل السنة والجماعة ، ويعتمد ابن القيم على الكتاب والسنة ، ويأخذ بظاهرهما ، دون تأويل أو مجاز .

حُبسَ ابن القيم مراراً من أجل آرائه التي هي في جملتها آراء أستاذه الإمام ابن تيمَية ، وكان العصر - عصر المماليك - ضد مذهبه ومذهب شيخه ، وتوفي أستاذه عام ٧٢٨هـ ،فظل من بعده ينتقل من حال إلى حال ، حتى استأثرت به رحمة الله عام ٧٥١هـ .

وفي تلخيص آراء ابن القيم يقول هو نفسه في كتابه - مدارج السالكين [١] -

نحن ندين بالقدر ، وإن سمى جبراً وندين بإثبات الصفات ، وإن سمى تجسيماً ، وندين بإثبات علو الله على عرشه فوق سماواته ، وإن سُمِّي تحيزاً أو جهة ، وندين بإثبات وجهه الأعلى ويديه المبسوطتين ، وإن سُمِّي تركيباً ، وندين بأنه يُرَى بالأبصار عياناً حقيقة يوم لقائه ، وإن سُمِّي ذلك تشبيهاً ، وندين بحب أصحاب محمد ، وإن سُمِّي نصباً ، وكان الإمام ابن تيمية يقول في شعره :

إن كان نصباً حبّ صحبِ محمد فليشهد الثقلان أني ناصبي

ففي آيات الصفات نرى أن ابن القيم يطلقها على الله تعالى بمعناها الحقيقي من غير تفويض ، بينما ذهب الصابوني في كتابه ـ عقيدة السلف ـ وابن خلدون في ـ المقدمة ـ والرازي في كتابه ـ أساس التقديس ـ إلى إطلاقها على الله تعالى بمعناها الذي يليق بذاته .

ويستدل على وجود الله تعالى بمقدرته في السماء والأرض وفي أنفس الناس .

ويرى أن الله يجب أن يتصف بكل كمال ، ويتنزه عن كل نقص ، مستدلاً على صفات الكمال بالعالم وإتقان صنعه .

ويرى أن أفعاله تعالى كلها خير لا شر فيها أصلاً ، ويذهب إلى القبح والحسن العقليين ، وأن التكليف لا يكون إلا بعد البعثة .

وعلى الجملة فهو يذهب مذهب السلف ، مذهب شيخه ابن تيمية في استدلاله على وجود الله ، وفي مسألة الصفات ، وفي مسألة وجود الشر في العالم وحكمة وجوده فيه ، وفي مسألة الحسن والقبح ، وفي النفس الإنسانية وفي أمر المعاد ، وفي مسألة أبدية الجنة والنار ، سالكاً مذهب الانتخاب الفكري في كل آرائه ومذهبه ، فهو يحرص أن يقدم بين يدي دراساته ومباحثه آراء العلماء السابقين ، مناقشاً لها وموجهاً وناقداً ، ومختاراً منها مذهبه الذي يعتقده الحق ، حيث يتخذه مذهباً له ، وعقيدة يدافع عنها بكل ما يستطيع ، ويحبها ويقدمها على كل شيء ، وفي هذا يقول رحمه الله :

ـ شيخ الإسلام ـ الأنصاري ـ حبيب إلينا ـ والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من كلامه ومتروك(٢) ، ومن ذا الذي لم تزل به القدم ، ولم يكب به الجواد (٣).

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول : كل أحد يؤخذ من كلامه ، ويترك إلا صاحب هذا القبر (٤) . أي الرسول ﷺ .

كان في ابن القيم رحمه الله شموخ وعزة نفس ، وسموُّ همة ، وقد انتفع به الناس والعلماء في عصره وبعد عصره .

وقد نشر علم الإمام ابن تيمية ، وكان ينتصر له في أغلب آرائه ، وهو الذي هذب كتبه ، وورث علمه ، وقد جمع إلى العلم الزهد والورع والصلاح ، وقد ترك كتباً مشهورة منها : مدارج السالكين ، وأعلام الموقعين عن رب العالمين ، والطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، وعدة الصابرين ، وذخيرة الشاكرين ، وطريق الهجرتين وباب السعادتين ، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، وزاد المعاد في هدي خير العباد ، وهو في السيرة النبوية ويقع في أربعة أجزاء .

وله كتب أخرى مشهورة ، مثل التبيان في أقسام القرآن ، وتفسير المعوذتين ، وتفسير الفاتحة ، ومفتاح دار السعادة ، والوابل الصيب من الكلم الطيب .

وكان من تلامذته ابن رجب الحنبلي ، والذهبي ، وابن كثير ، وغيرهم من جلة العلماء .

وكان ابن القيم يرى أن السلف هم أفضل الناس مذهباً ، وأهداهم طريقة (٥) .

وكان هو وأستاذه ابن تيمية يدعوان إلى جمع الكلمة على مذهب واحد في الأصول والفروع ، واختيار ما هو الأولى والأصوب من المذاهب المختلفة ، وما يوافق الكتاب والسنة منها (٦) .

واعتزاز ابن القيم بالحق والصواب كان مضرب المثل بين الناس .

وكان ابن القيم يسلك مسلك أهل السلف في الحجة والبرهان والاستدلال ، فيستدل على وجود الله تعالى بالطبيعة والكون ، وبدلائل قدرته في السماء والأرض ، والماء والهواء ، من حيث كان المتكلمون والفلاسفة ممن تبعوا المنطق الأرسططاليسي يستدلون على وجوده تعالى بالأقيسة المنطقية والأدلة العقلية .

ومن أجل ذلك كان ابن القيم كأستاذه ابن تيمية يعادي المنطق اليوناني ، ويرى أنه ليس علماً صحيحاً ، بل هو علم باطل ، فساده أضعاف حقه .

ونظم قصيدة [٧] في إبطال المنطق الأرسططاليسي وفي بيان فساده ، وفيها يقول :

واعـجـبـاً لمنـطـق اليـونـان كـم فـيـه مـن إفـك ومـن بهـتـان

متـضـارب الأصـول والمـبـانـي علـى شـفـا هـار بـنـاه البـانـي

وهو في ذلك قريب إلى العلماء المسلمين الأصلاء ، الذين رجعوا في الاستدلال إلى الكتاب والسنة ومذهب السلف ، رضوان الله عليهم .

وعن ابن القيم ومذهبه وآرائه وأفكاره كتب الأستاذ الدكتور / عوض الله حجازي كتابه القيم الممتع " **ابن القيم وموقفه من التفكير والفكر الإسلامي** " - الذي يعد أول دراسة عن ابن القيم وفلسفته ومذهبه ، والذي كان رسالته للدكتوراه ناقشه فيها جماعة من فحول الأساتذة في مصر .

وقد درس فيه عصره وحياته وجملة مذهبه وحلل آراءه الاعتقادية ودرسها بالتفصيل ، فيما يتعلق بوجود الله وصفاته ، وصفاته الخبرية ، وحكمة وجود الشر في العالم ، ومسألة الحسن والقبح ، والمعاد ، وحقيقة النفس الإنسانية ، والنفس وهل هي قديمة أو حادثة ، ومخلوقة قبل البدن أو بعده ، والنفس هل هي والروح شيء واحد ، أو شيئان مختلفان ومسألة أبدية الجنة والنار .

وكل ذلك في تحليل واستقصاء ودقة ، وعمق وأمانة علمية نادرة .

وابن القيم جدير بأن يتصدر الدراسات الإسلامية ، وبأن يكتب عنه البحوث الضافية الطويلة ، لعلمه وفضله ومكانته في الفكر الإسلامي ، رحمه الله وأجزل له مثوبته .

(١) ص ٢٥٨ جزء ٣
(٢) ٩ : ٢ مدارج السالكين ـ مطبعة المنار .
(٣) ١ : ١٢٥ المرجع نفسه .
(٤) ١٤ : ١٤ البداية والنهاية لابن كثير ـ مطبعة السعادة بالقاهرة .
(٥) ٦٤ ابن القيم تأليف د. عوض الل حجازي ـ طيعة القاهرة ١٩٦٠م .
(٦) ص ٤٧ المرجع نفسه .
(٧) ١٧١ مفاتح دار السعادة لا بن القيم .



ابن خلدون والعمران البشري

للمستشرقة الروسية سفيتلانا

(١)

ابن خلدون موضوع قديم جديد فهو عبقرية من عبقريات الإسلام التي ظهرت في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي ، وهو ملحمة من ملاحم الفكر الإسلامي ، وحياته أشبه بالأساطير التي نسمع بها .

ولا بن خلدون في مصر قصة طويلة حافلة بالذكريات الخالدة . وابن خلدون عربي حضرمي عاش أجداده في إشبيلية في الأندلس ، وبعد سقوط إشبيلية في أيدي النصارى هاجروا إلى سبته وشغلوا مراكز مرموقة ثم هاجروا إلى المغرب ، وكان جده محمد بن خلدون حاجبا للأمير أبي فارس حاكم إحدى المدن الكبرى في أفريقيا ، وهي بجاية ، أما والده محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي ، فكان من أعلام الفكر التونسي وأدبائها .

ولد ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن الحضرمي بتونس في ٢٧ مايو ١٣٣٢م ٧٣٢هـ ، وقد ظهر نبوغه وعبقريته وهو في سن الشباب ، ونبغ في علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ ، وشغل وظائف كثيرة في الدولة ، وأصبح كبير الأمناء بديوان السلطان الحفصي ، ثم صار سكرتيراً له ، وسمح بالمشاركة في مجالسه ومناظراته العلمية والتوقيع عنه ، وتزوج ابن خلدون من ابنة قائد جيش الحفصيين محمد بن الحكم ، وفي المغرب العربي ، وفي دولة غرناطة اشتهر ابن خلدون في كثير من الأحيان بنشاطه السياسي ، ودراساته التاريخية ، وإذا كانت المقدمة هي الجزء الأول من كتاب " العبر " لابن خلدون ، فإن المستشرقين في مؤلفاتهم يطلقون " المقدمة " على الجزء الأول من كتاب " العبر " مع مقدمة المؤلف في فصل علم التاريخ ، وهذه التسمية مأخوذة عن حاجي خليفة الذي سماها في بعض فصول موسوعاته " كشف الظنون " : " مقدمة ابن خلدون " .

وابن خلدون يسمي الكتاب الأول من مؤلفه التاريخي بعنوان : " في طبيعة العمران "، أي طبيعة الحياة الاجتماعية . ويقول ابن خلدون في مستهل كتابه التاريخي : " أنشأت في التاريخ كتاباً ، ورفعت به عن الأحوال الناشئة حجاباً ، وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً ، باباً ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً ، وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار ، وملأوا أكناف النواحي منه والأمصار ، وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ، ومن سلف من الملوك والأنصار ، وهم العرب والبربر ، إذ هما الجيلان اللذان عرفا بالمغرب مأواهما ، وطال فيه على الأحقاب مثواهما " فهذبت مناحيه تهذيبا ، وقربته واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقة مبتدعة وأسلوباً ، وشرحت فيه العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني في العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب :

والكتاب الأول : في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب .

والكتاب الثاني : في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ، منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة .

والكتاب الثالث : في أخبار البربر ومن إليهم ، وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

وعن المقدمة يقول ابن خلدون : انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة أبواب:

ـ **الأول** : في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

ـ **الثاني** : في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية .

ـ **والثالث** : في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

ـ **والرابع** : في العمران الحضري والبلدان والأمصار .

ـ **والخامس** : في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

ـ **والسادس** في العلوم واكتسابها ، والمعنى التاريخي الاجتماعي المعاصر لإصلاح " المدينة " الذي يعني " المقومات الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع في طور محدد " لا يطابق هذا المحتوى الذي وضعه ابن خلدون للعمران ، ولا يوافق مفهوم إصلاح " الحضارة " لأن العمران هو نفس العملية الخاصة بالنشاط الحيوي للمجتمع ، والترجمة الحرفية للاصطلاح هي " الحياة الاجتماعية " ، فهي مطابقة لمفهوم " العمران " عند ابن خلدون ، ومن أجل ذلك حدد ابن خلدون مسائله في ثلاثة اتجاهات متميزة :

١ - اتجاه فلسفي ، وهو تعليل للكائنات ومباديها ، وعلم بكيفيات الواقع وأسبابها (ج١ ص٢ المقدمة) .

٢ - اتجاه تاريخي وهو بحث أسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل .

٣ - اتجاه اجتماعي وهو شرح أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الإنساني : من أسباب أولية الدول والعمران ، وشرح وتحليل لأحوال المجتمع البشري .

(٢)

وعن " العمران البشري في مقدمة ابن خلدون " كتبت " سفيتلانا باتسييفا " الروسية كتاباً بهذا العنوان ، ترجمه من الروسية إلى العربية الأديب العربي

المرحوم " رضوان إبراهيم " ونشرته الدار العربية للكتاب بتونس عام ١٩٧٨م ـ في ٢٩٢ صفحة .

وفي هذا الكتاب تتحدث المؤلفة عن عصر تأليف المقدمة ، وعن حياة ابن خلدون ، والمراحل التاريخية لدراسة المقدمة ، وعن النظرية الفلسفية لابن خلدون ، وهذه البحوث هي الفصول الخمسة التي يتألف منها الكتاب ، ما عدا المقدمة والخاتمة .

فعن عصر تأليف المقدمة تحدثت المؤلفة بصفة خاصة عن الحياة الاقتصادية في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي ، وأشارت بصفة خاصة إلى بعض التيارات السياسية التي شملت المغرب العربي خلال القرن الرابع عشر الذي عاش فيه ابن خلدون .

وعن المراحل التاريخية لدراسة المقدمة أشارت الباحثة إلى العلماء الأوروبيين والعرب الذين أولوا المقدمة عنايتهم ، وترجموها إلى لغتهم أو درسوها وكتبوا بحوثا خصبة في دراستها وهي تؤكد أنه " يجب أن يقال على الفور إن المفكرين الأوربيين في عصر النهضة لم يتوصلوا إلى المنزلة السامية في الفكر التاريخي الاجتماعي والفلسفي الذي نجده عند ابن خلدون " .

وفي رأي المستشرق " جيب " أن ابن خلدون يضع تصورات الفقهاء السنيين القدامى أساساً للأفكار الفلسفية ,وجميع مفاهيم ابن خلدون إنما هي تطوير بعيد المدى للمبادئ الدينية للإسلام طبقاً لتاريخ المجتمع ، ولم يكن ابن خلدون مسلما فحسب ، بل كان كذلك رجل دين وفقيها للمدرسة المالكية وقد اعتبر الشريعة وحدها قيادة صحيحة ، ويكتب " جيب " : " لم يستطع ابن خلدون أن يدخل في تنظيم آرائه أي شيء لا يتفق منطقيا مع تعاليم الإسلام .

أما الفصل الرابع من الكتاب فهو عن نظرية ابن خلدون في فلسفة لمحن كثيرة هنا وهناك ، وكانت فترة عمله في خدمة الأمير أبي عبد الله محمد أمير بجاية من

أزهى الفترات في حياته السياسية ، ففيها عمل حاجباً للأمير ، أي رئيساً لجهاز الدولة ، وهذه المغامرات السياسية ، والمحن التي تعرض لها جعلته يزهد في السياسة ومناصبها ، ويبدأ التفكير في التفرغ للحياة العملية حيث تخلى عن الأعمال السياسية وتفرغ لكتابة كتابه التاريخي " العبر " وبدأ بكتابة مقدمته المشهورة ، وهو مقيم في أحياء بني عريف . وتعني " المقدمة " الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون : " **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** " .

وانتقل ابن خلدون إلى وطنه تونس ، واستطاع أن ينجح في كسب ثقة السلطان وعطفه ، وفي ذلك الوقت أخذ يواصل عمله في التاريخ للعرب والبربر ، فأتم تدوين أصول كتابه التاريخي عام ١٣٨١م ، ولكن وجد نفسه محاطاً بالدسائس والمؤامرات ، فعزم على الهجرة من تونس إلى القاهرة ، وفي ٢٥ من أكتوبر عام ١٣٨٢م غادر ابن خلدون وطنه متوجها إلى الإسكندرية ، فالقاهرة .

وصل ابن خلدون إلى القاهرة في فبراير ١٣٨٣م ، بدأ يلقي دروسه في الأزهر على الطلاب وهي دروس في الفقه المالكي ، وفي التاريخ وفلسفته ، وفي نظرياته في العمران البشري وصار ابن خلدون في قمة المجتمع القاهري ، ويقول عنه ابن حجر العسقلاني : " كان لساناً فصيحاً حسن الترسل مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة " .

وشمل السلطانُ برقوق ابنَ خلدون برعايته وعطفه . وفي أوائل عام ١٣٨٤م عينّه السلطان في منصب التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص في الفسطاط ، وهي مدرسة الفقه المالكي ، ولم يلبث السلطان إلا قليلا ، حتى اصدر أمراً بتولي ابن خلدون منصب قاضي قضاة المالكية .

وشارك ابن خلدون في حياة مصر السياسية بنشاط وفاعلية ، وفي رواق المغاربة بالأزهر استكمل ابن خلدون مقدمته المشهورة ، وتاريخه " العبر " ،

ويقول أحد خصوم ابن خلدون وهو الركراكي : " إن محاضرات ابن خلدون إليها المنتهى " . وهكذا نقَّح ابن خلدون طائفة من فصول كتابه التاريخي بناء على المصادر الجديدة التي اطلع عليها بالقاهرة كما نقَّح الكثير من أفكاره في المقدمة .

ومادة كتابه عن التتار والترك وتيمورلنك والمماليك جديدة ، كتبت في القاهرة ، ووصل في تاريخ المغرب إلى أواخر القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي. وفصل المقدمة عن العلوم وكذلك ما كتبه في القاهرة .

والتفت حول ابن خلدون نخبة من العلماء والطلاب ، وكان من تلاميذه المقريزي الذي كان يلقب أستاذه ابن خلدون بلقب " شيخنا " ، وبلقب العالم العلامة شيخ الفقهاء ، ويسجل في كتابه " السلوك لمعرفة الملوك " حياة ابن خلدون في مصر ، وكذلك فعل في كتابه " درر العقود الفريدة " وهو الكتاب الذي اقتبس ابن حجر والسخاوي كثيراً من نصوصه .

وزادت مكانته عند السلطان برقوق وفي نفس الوقت كان يقوم بطلب من السلاطين الحفصيين والمرينيين بسفارات دبلوماسية باعتباره ممثلا للمغرب ، وذلك من أجل تأكيد حماية التجارة وسلامة الحجاج ، كما كان سفيراً للسلطان الفرج بن برقوق لدى تيمورلنك (فبراير ١٤٠١م) .

وكان ابن خلدون يترك القاهرة أحياناً إلى الفيوم في قرية من قراها كانت مهداة إليه على سبيل الإقطاع . وفي خلال إقامته في هذه القرية كتب النسخة الأولى من سيرته الذاتية حتى وصل بها عام ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م .

وقضى ابن خلدون في القاهرة الأعوام الأخيرة من حياته حتى يواصل العمل في تنقيح كتابه " العبر " وفي مقدمته ، وفي سيرته الذاتية ، وأدركه أجله المحتوم في (٨٠٨هـ / ١٧ من مايو ١٤٠٧م) . ودفن في مقبرة الصوفية بالقرب من باب النصر في مدينة القاهرة ، بعد جهاد طويل ، وكفاح مرير ، وصراع مستمر للأحداث وللحكام وللمحن التي أحاطت به من كل جانب .

أما الفصل الخامس من الكتاب فهو عن النظرية الفلسفية لابن خلدون . ولقد حَدَّدَ ابن خلدون علمه الجديد " العمران " بأنه فرع هام من الفلسفة ، كما ذكر في المقدمة (ج١ ص٢) ، فالعلم الجديد يندرج في نظره تحت مفهوم العلوم الفلسفية .



ابـن خلــدون
مؤرخ الحضـارة الإسـلاميـة
(١٣٣٢-١٤٠٦م)

للدكتور عبد الحليم عويس

ابن خلدون (٢٧مايو ١٣٣٢ ـ ١٦ مارس ١٤٠٦م) هذا المفكر العربي المسلم الكبير الذي أذهل العلماء في الشرق والغرب ، وسبق الباحثين جميعاً إلى الكشف عن مبادئ علم الاجتماع ، وصاحب النظريات الجديدة في عصره في دراسات التاريخ ، والذي عاش ستين عاماً من حياته في وطنه المغرب الكبير بين الجزائر وتونس ، ثم هاجر إلى القاهرة فأقام فيها ستة وعشرين عاماً ، أستاذاً في الأزهر الشريف ، وشيخاً من شيوخ رواق المغاربة فيه ، وقاضياً للمالكية ، ورئيساً للمدرسة المالكية في مصر الفسطاط ، وراجع تاريخه الكبير " العبر " ومقدمة هذا التاريخ في صحن الأزهر الشريف .

هذا العالم الخالد ، هو موضوع الدراسة الجديدة ، التي كتبها الباحث د. عبد الحليم عويس .

ويكشف الباحث لنا في افتتاحية كتابه عن بعض الدراسات التي كتبها باحثون معاصرون عن ابن خلدون ، وتأثروا فيها بتيارات الفكر الاستشراقي المتعصب المتأثر بالمناهج المعادية للعرب وللإسلام ، ومن أجمل الفصول في الكتاب هذا الفصل الذي يؤكد الباحث فيه أن فكر ابن خلدون ثمرة من ثمرات الحضارة الإسلامية ، وليس ثمرة لعصره فحسب .

ويدرس الباحث في كتابه مناهج البحث التاريخي قبل ابن خلدون ، والأخطاء التي وقعت فيها بعض المناهج التقليدية ، والتي رد عليها ابن خلدون في صدر مقدمته بقوة ، ويكشف لنا عن الأصول الإسلامية لنظريات ابن خلدون ، مؤكداً أن النظريات (الخلدونية) ترد في مقدمته وفق منهجية شمولية تمزج بين

جوانب المعرفة الإنسانية مزجاً كاملاً ، وتنظر للإنسان نظرة عضوية مترابطة ، ثم تنطلق من ذلك إلى النظر للمجتمعات دون تشقيق ، ثم ترى في الحضارة كائناً حياً يشبه الكائنات العضوية أو يكاد يخضع للشروط نفسها ، وللتكاملية بين العوامل الفاعلة فيه على النحو الذي تخضع له المجتمعات الإنسانية .

ويواصل الباحث حديثه عن الفكر التاريخي والعمراني والسياسي عند ابن خلدون موثقاً صلة هذا المفكر الكبير في نظريته عن العمران أو المجتمع الإنساني الذي يُعَرِّفُه على أنه مجتمع إسلامي حكومة ورعية بالقرآن والسنة وقصص النبيين وهذه المنابع هي كلها منابع الفكر الإسلامي عند العلماء الباحثين من أسلافنا الخالدين ، والمقدمة كلها كشف عن أحوال العمران أو المجتمع البشري من وجهة نظر ابن خلدون ، الذي يقول عنه المستشرق (جب) :

إن الدين عند ابن خلدون أهم شيء في الحياة ، وإن الشريعة هي الطريق الوحيد إلى الهدى (٢٢) دراسة في حضارة الإسلام للمستشرق جب - بيروت (١٩٧٩م) .

ومؤلف الكتاب يتحدث في كتابه في فصل آخر عن النظرة الخلدونية الإسلامية للعمران وعن ابن خلدون رائداً للتفسير العلمي للتاريخ ، وعن فكر ابن خلدون في العصبية والعروبة ، وعن هذا الفكر الذي ترجم فيه صاحبه للرؤية الإسلامية في نظرياته وأفكاره ترجمة أمينة صادقة . وابن خلدون هو الذي كان يقول : من لم ير القاهرة لم ير عزة الإسلام . ويقول عنها إنها إيوان الإسلام .

ولقد عاش ابن خلدون في المغرب متنقلاً بين تونس والجزائر سنين ما بين (١٣٢٢-١٣٨٢م) وعاش في مصر حياته الأخيرة سبعة وعشرين عاماً (١٣٨٢-١٤٠٦م) ودفن فيها ، ومقبرته معروفة حتى اليوم ، وقد عاش ابن خلدون في قمة المجتمع في وطنه المغرب العربي عالماً وأديباً وسياسياً ودبلوماسياً ورجل دولة .

وانتقل إلى القاهرة ، وهي يومئذ عاصمة من عواصم الإسلام والفكر والثقافة ، وكان وصوله إليها في الخامس من فبراير من عام ١٣٧٨م . وقال عن القاهرة : رأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، وإيوان الإسلام وكرسي الملك ، وقال عنها نقلاً عن بعض مفكري المغرب : من لم ير القاهرة لم ير عزة الإسلام .

وعاش ابن خلدون في مصر أستاذاً في الأزهر ، وشيخاً من شيوخ رواق المغاربة فيه وقاضياً ومفتياً للمالكية ، ورئيساً للمدرسة المالكية في مصر الفسطاط وأخذ يراجع تاريخه " العبر " ومقدمة هذا التاريخ وهو في القاهرة ، حيث كتب فصولها الأخيرة ووضعها في صيغتها ، وهو أستاذ في الأزهر » العبر " يؤرخ للعالم ولدول الإسلام حتى عصره أي آخر القرن الثامن الهجري ، وفي مقدمته فصول وضع بها لأول مرة في تاريخ الفكر العالمي مبادئ علم الاجتماع ، وسبق بذلك جميع علماء الاجتماع في أوروبا .

وابن خلدون مفكر إسلامي كان يؤلمه أشد الألم ضعف العالم الإسلامي ، ويرى في مصر ومكانتها السياسية والإسلامية في العالم بعد انتصاراتها المدوية على المغول والصليبيين المنقذ العظيم للمسلمين في شتى أنحاء العالم ، وكان يكتب بروح المفكر يدعو المسلمين إلى القوة وإلى متابعة مسيرتهم الحضارية والثقافية وسيادتهم السياسية .

وفي ١٦ مارس ١٤٠٦م لقي ربه بعد أن ترك دوياً لا يضعف صداه ، وذكراً خالداً لا تمحوه مرور الأعوام والأجيال والقرون .



صفحات من التاريخ
الرحلة إلى الحرمين

الرحلة إلى الحرمين : المسجد الحرام والمسجد النبوي استمرت طول عصور التاريخ الإسلامي ، لم تنقطع في يوم من الأيام ، لقصد أداء فريضة الحج ، وأداء شعائر العمرة ! وما أجلها من رحلة ، وما أكرمها من مسيرة ! وقد تابع المؤرخون الإسلاميون الكتابة عن مكة والمدينة على امتداد القرون والعصور والأجيال ، في حرص شديد على أمانة البحث ، واستقصاء أحداث التاريخ ، والدقة الكاملة في وصف المشاهد والأماكن والحديث عن كل ما يتصل بتاريخ المدينتين الخالدتين الشامختين المرفوعتيْ الذرى والأعلام ، وبحسبنا ما بأيدينا من كتب باقية ، من مثل " تاريخ مكة " للأزرقي ، و " تاريخ المدينة " للنجار ، و " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " لتقي الدين الفاسي تلميذ المؤرخ ابن خلدون ، و " العقد الثمين بأخبار البلد الأمين " للفاسي أيضاً ، ومئات الكتب التي أرخت لمكة والمدينة وللمسجد الحرام ، والمسجد النبوي .

رحلة حبيبة

الرحلة إلى الحرمين شعيرة من الشعائر ، ونسك من مناسك الحج والعمرة ، وهي رحلة حبيبة ، إلى قلب كل مسلم ومسلمة في مشارق الأرض ومغاربها ، ويتحمل المسلمون بلذة وشوق وحب في سبيلها كل شيء ، فالمسلم في الصين والمسلم في أواسط أفريقيا أو جنوبها ، والمسلم في أمريكا الجنوبية ، أو في أوروبا ، أو في استراليا يشعر بالسعادة الغامرة ، عندما يوفقه الله لأداء فريضة الحج ، أو لأداء العمرة ، ولزيارة المدينتين والحرمين ، ولا تسأل عن النشوة الغامرة التي يشعر بها المسلم من أعماق قلبه ، وهو يقف أمام الكعبة المشرفة ، أو عند جبل الرحمة في عرفات ، أو عندما يصلي لله في المسجد النبوي الشريف .

وفي أوائل القرن العشرين وجدنا المؤرخين والكتاب الإسلاميين لا يملّون من الكتابة عن رحلة الحج والعمرة ، ولا عن الحرمين الشريفين في حب غامر ، وأشواق روحية لا تنتهي ، وأمامنا رحلة إبراهيم رفعت باشا في كتابه " مرآة الحرمين " ، ورحلة محمد لبيب البتانوني في كتابه " الرحلة الحجازية " ، وكتاب المازني " الرحلة إلى الحجاز " ، وكتاب محمد حسين هيكل " في منزل الوحي " ، وفي كتابه الآخر " حياة محمد " ، وكتاب محمد لطفي جمعة " عن رحلته إلى الحجاز " ، وغير هؤلاء من الكتاب والمؤرخين ، وإلى آلاف الدراسات والكتابات عن الأماكن المقدسة ، وعن الحرمين الشريفين وعن كل ما يتصل بهما من مشاهد وصور وحياة وتاريخ .

ولقد كان من الأسباب في توالي الكتابة عن الحرمين رحلة خديوي مصر عباس حلمي باشا عام ١٩٠٩م إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج ، فأصدر إبراهيم رفعت باشا كتابه " مرآة الحرمين " ، وأصدر البتانوني كتابه " الرحلة الحجازية " . وفي هذه الفترة كان بطل الجزيرة العربية المجاهد عبد العزيز آل سعود ينطلق من الرياض إلى شتى ربوع نجد وجزيرة العرب من أجل توحيد البلاد والقضاء على أعداء الوحدة وجمع شمل الأمة تحت راية واحدة وسلطة قوية قادرة واحدة ، ولا ننسى معارك البكيرية والشنانة ، وروضة مهنا والطائف وغيرها ، وقد أثمر كفاحه توحيد نجد وعسير وجازان والحجاز والقصيم في دولة فتية تحت حكم آل سعود الأبطال .

(٢)

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو " **الرحلة الحجازية** " للمؤرخ الثبت محمد لبيب البتانوني ، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م فيما يقارب الثلاثين وثلاثمائة صفحة .

وكتاب " **الرحلة الحجازية**" من أوثق المصادر التاريخية عن أرض الحرمين ، وعن الأحوال الاجتماعية في الحجاز وعن كل ما يتصل بشعائر الحج والعمرة ، من مناسك وعبادات ، حيث تحدث فيه عن الرحلة الخديوية ، وعن المشاعر الدينية المقدسة من حج وعمرة ، وعن ما يهم الحاج من أمور تاريخية واجتماعية وعمرانية وجغرافية ، وحلاه بصور نادرة وقدم له بتمهيد واسع عن الجزيرة العربية وعن جميع الدول التي قامت فيها قبل الإسلام وبعده ، وكتب فصلا عن السيرة النبوية وعن الخلفاء الراشدين ، وفصلا عن بيت المقدس ثالث المساجد الكبرى في الإسلام ، مما جعل هذا الكتاب موسوعة كبرى شاملة .

كتاب جامع

أحاط المؤلف في كتابه الجامع بأمور الحج والعمرة ومناسكهما من طواف وسعي بين الصفا والمروة ووقوف بعرفة ورمي الجمرات ، ووصف الحرمين الشريفين وصفاً دقيقاً من الحدود والسعة وما تجدّد في كل منهما من عمارات إلى عهد المؤلف ، ووصف الطرق بين مصر وأرض الحجاز ، وبين جدة ومكة والمدينة وصفا كاملاً وتحدَّث عن المياه ومصادرها في مكة وفي المدينة ، وعن بئر زمزم وعين زبيدة ، والعين الزرقاء ، وبئر فاطمة ، وبئر عروة ، وبئر العباسية ، في مكة وفي المدينة .

كما تحدث مؤلف " الرحلة الحجازية " عن عادات أهل مكة وأهل المدينة أحاديث طويلة ، وعن الطعام والشراب والزراعات والحبوب والفواكه وغير ذلك ، من باذنجان وطماطم وبامية وملوخية وقرع وفاصوليا وسبانخ ، وبطيخ ورمان وعنب وخوخ وليمون وتمر وغيرها .

ويتكلم عن الأسواق التجارية في المدينتين ، وعن المدارس فيهما وعن مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والعمرانية كذلك .

ومن أسواق مكة يذكر سوق الشامية في شمال الحرم ، وهي أشبه بالأسواق التركية ، فالسقف من الخشب على مثال خان الخليلي بمصر ـ أي في أوائل القرن العشرين ـ لولا أن شوارعها أضيق وفيها يبيعون المسابح والأقمشة ، وفيها كثير من الفصوص الثمينة من العقيق والياقوت والفيروز . ومن أسواق مكة سوق صغير ، وهو تجاه باب إبراهيم ، وأغلب ما فيه للغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة ، كوادي فاطمة شمالاً ، ووادي الليمون شرقاً ، ووادي العبيدية والحسينية جنوباً ، وكثير من هذه الخضر يأتي من جهة الطائف وجبال كرا . وفي هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المقلية التي يؤتى بها من جدة ، وفي شرق المسجد الحرام سوق الليل ، وهي سوق كبيرة مختلطة فيها جميع احتياجات الحاج . ويصف المؤلف جو مكة بأنه شديد الحرارة قليل المطر .

ويذكر أن المدينة المنورة يوجد في الجهة الشمالية منها حدائق كثيرة ، منها حديقة الداوودية ، وحديقة السبيل ، وحديقة الزكي ، والفيروزية ، والزينية ، والدرويشية .

ويذكر أنه ليس في المدينة من المدارس ما يستحق الذكر وفيها سبعة عشر مكتباً لحفظ القرآن ، ولتعليم مبادئ الحساب ، والذي يُدَرَّس في الحرم شيءٌ قليل من الفقه والتفسير . وفي مكة يذكر أن فيها مدرستين ، المدرسة الصولية ، ويُدَرَّس فيها القرآن وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والحساب والهندسة ، ومدرسة الخياط ، ويُدَرَّس فيها ما يُدَرَّس في الصولية بتوسعة ، وفي جدة مدرسة الإصلاح والمدرسة الرشدية . ويذكر أن سكان المدينة نحو الستين ألفاً ، وسكان جدة نحو الخمسين ألفاً ، أما أهل مكة فيبلغ عددهم نحو ١٥٠ ألف شخص ، الثلث منهم من الأهالي والثلثان من مختلف الشعوب الإسلامية . ويذكر صاحب " الرحلة الحجازية " أن أغلب أهل مكة يتكلمون بالتركية ، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة ، أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا نكاد نفهمها إذا سمعناهم يتكلمون بها .

الجـانـب الإداري

ويذكر أن الجانب الإداري في الحرمين في يد الشريف أمير مكة ، ويسمونه " سيد الجميع " . وأما الجانب العسكري فهو في يد الوالي التركي العثماني ، المعيَّن من قبل الخلافة العثمانية ، ويكون تركياً في الغالب . والشريف ينظر في القضايا الكبيرة ، أما القضايا الصغيرة فينظر فيها القاضي ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم في دار الإمارة كل يوم من النهار إلى قبيل العصر ، ثم يَتَوَجَّه إلى الحرم فيصَلِّي العصر ، وكثيراً ما يجلس فيه حتى يُصلِّي المغرب ، ومن عادته أن يصلي الجمعة في الحرم ، وفي صباح يوم الجمعة يجلس في دار الإمارة للمقابلات .

ومن عادات أهل مكة الاصطياف في الطائف ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ١٥٥٠ متراً ، والهدا فوق جبل الكرا ، ويرتفع عن سطح البحر بنحو ١٧٦٠ مترا . وأشهر مصيف في الطائف يسمى (شبرا) ، وهو مصيف الأشراف .

والطائف مشهورة بخوخها وعنبها ، وماؤها أعذب مياه تلك المنطقة .

ويتحدث عن دار الأرقم المخزومي في مكة المكرمة ، وهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا ، وفيها كان يختبئ رسول ﷺ في أول صدر الإسلام ، هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون سراً حتى أسلم عمر ـ رضي الله عنه ، فقويت به عُصْبَتُهُمْ وجهروا بالإسلام والصلاة في الحرم .

غــار حـراء

ومن الأماكن المأثورة في مكة المكرمة غار حراء ، وهو الغار الذي كان يخلو فيه رسول الله ﷺ ، ويوجد في قمة جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة ، وفيه نزل الوحي على رسول الله ﷺ .

أما جبل ثور فهو في جنوب مكة من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها ، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه حين قصد الهجرة إلى المدينة .

وفي خارج باب مكة الشرقي مقبرة أهل مكة (المعلا) . وعن النقود السائدة في مكة فهي النقود المصرية والتركية فضية أو ذهبية ، والجنيه الإنجليزي .

ويتحدث عن عين زبيدة في مكة التي أمرت بها السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد الخليفة العباسي (١٧٠-١٩٣هـ) وهذه العين حياة لأهل البلد الحرام ولحجاج بيت الله العتيق .

ومـاذا عـن المديـنة

وعن المدينة يذكر صاحب " الرحلة الحجازية " أن أهلها من عاداتهم الرياضة والتنزه في البساتين خارج المدينة .

(٣)

ويتحدث صاحب " الرحلة الحجازية " عن الحرم المكي حديثاً طويلاً ، وعن عماراته ، ويذكر أن له ثلاثة أبواب في الجهة الغربية هي باب العمرة ، باب إبراهيم ، باب الحزورة (وهي سوق أهل مكة في الجاهلية ، ويقال له باب بني الحكم) ، وفي الجهة الشمالية ثمانية أبواب : باب الزيبة ، باب المدرسة ، باب المحكمة ، باب الزيادة ، وبجواره إلى الغرب باب القطبي نسبة إلى القطبي صاحب كتاب " تاريخ مكة " وباب الباسطية ، باب الزحامية ، باب عمرو بن العاص ، وله من الجهة الجنوبية سبعة أبواب : باب أم هانيء ، باب العجلة (وكان يقال له باب بني تميم ؟ ويسمونه باب التكية) ، باب الرحمة ـ باب أجياد (أو السنبلة) ، وباب الصغار ، باب بني مهزوم ، باب بازان ، وله من الجهة الشرقية أربعة أبواب : باب بني هاشم (أو باب علي) باب العباس ، باب النبي ، باب السلام وهو الذي يدخل الحاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم .

وفي المسجد الحرام ست منارات : منارة باب العمرة ، منارة باب السلام ،

منارة باب علي ، منارة باب الحزورة ، منارة باب الزيادة ، منارة السلطان قايتباي . وكلها باقية يؤذن عليها في الأوقات الخمسة .

حديث عن الكعبة

ويفيض البتانوني في الحديث عن الكعبة وتاريخها العريق وأنها مازالت على بناء إبراهيم حتى بنتها العماليق ، ثم جرهم ، ويقال إن جرهم بنتها قبل العماليق ـ ثمَّ بناها قصي ، ثم قمر حسين والرسول ﷺ في الخامسة والثلاثين من عمره ، ثمَّ بناها ابن الزبير سنة ٦٤هـ ، ثم بناها الحجاج الثقفي بأمر عبد الملك بن مروان بعد ذلك .

ويتحدث المؤلف عن شكل الكعبة ، وتاريخها الطويل قبل الإسلام ، وأنها في الجاهلية كانت الناس تجمع على احترامها على اختلاف دياناتهم ، وجعلوا لها حرماً لا يدخل أحد إلا وهو محرم ، وكل من دخله صار آمناً قال تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

وبلغ من شأنها في الجاهلية أن الناس كانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها . ومازالت الكعبة معظمة في الجاهلية حتى جاء الإسلام ، وجعلها الله في شعبان من العام الثاني للهجرة النبوية قبلة المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها يُولُّون وجوههم شطرها في كل صلاة حيثما كانوا ، وجعل الله تعالى الطواف بالكعبة من فرائض الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم من استطاع إليه سبيلا في أي زمان ومكان .

ويتحدث صاحب " الرحلة الحجازية " في كتابه عن الطواف وعن بئر زمزم ، وعن كسوة الكعبة ، ويُرْوَى أن تُبَّع أبا كرب أسعد ملك حمير هو أول من كساها عام ٢٢٠ق.هـ ، حين مر عليها من غزوته ليثرب ، وتبعه ملوك حمير ، ثم كساها قصي ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وتابع الخلفاء والملوك في كسوتها ،

وصارت الخلافة العباسية ترسل كسوة الكعبة من بغداد ، وبعد سقوط بغداد صارت الكسوة ترسل تارة من اليمن وتارة من مصر ، ثم تكفلت بها مصر منذ الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون ، وفي عهد الدولة العثمانية منذ استيلائها على مصر اختصت بكسوة الحجرة النبوية الشريفة وكسوة البيت الداخلية ، واختصت وصارت تنسج الكسوة في دار فسيحة سميت دار الكسوة وهي بالخرنفش ، واليوم تصنع الكسوة في أرض الحرم المكي المعظم .

الحـرم المـدنـي

أما الحرم المدني فيتحدث عنه البتانوني طويلا أيضاً حيث يذكر أن الحرم المدني هو مسجد رسول ﷺ وفيه المقصورة الشريفة ، في الجهة القبلية الشرقية من الحرم ، وتقع الروضة النبوية في غرب المقصورة ، وهي مسافة ما بين القبر النبوي ، ومنبر رسول الله لقوله ﷺ : " **ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة** " ، وفي رواية أخرى " **ما بين بيتي ومنبري** " .

وللحرم النبوي خمسة أبواب هي : باب السلام ، باب الرحمة (في الغرب) ، الباب المجيدي (في الشمال) ، باب النساء ، باب جبريل (أو باب البقيع) في الشرق ، ويذكر عمارات الحرم النبوي حتى عصره .

ويقول المؤلف : إن أول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هارون الرشيد عندما قدمت في حجِّها لزيارة مسجد رسول الله ﷺ ، وصارت كسوتها من بعدها سنة الملوك والسلاطين .

ويتحدث المؤلف كذلك في كتابه عن المدينة وتاريخها الطويل ، وأنها تقع في واد شاسع يمتد إلى الجنوب ، وفيها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت الزاخرة بنفائس المخطوطات .

الفهـرس
كتـــاب
من ذخائر التراث الإسلامي



بعض الإنتاج العلمي للأستاذ الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

حسب ما توافر لدينا

*** كتب محققة في النحو واللغة والحديث والفقه وغيره :**

١) الإيضاح في البلاغة للقزويني .
٢) متن التلخيص في البلاغة .
٣) شرح التلخيص في البلاغة ـ الجزء الأول .
٤) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .
٥) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني .
٦) إعجاز القرآن للباقلاني .
٧) البديع لابن المعتز .
٨) سر الفصاحة للأمير ابن سنان الخفاجي .
٩) دراسة عن أثر أبي هلال في البلاغة العربية .
١٠) متن الآجرومية في النحو .
١١) تهذيب الآجرومية .
١٢) توضيح الأزهرية .
١٣) قطر الندى في النحو شرح الخفاجي .
١٤) شرح ابن عقيل .
١٥) شرح الرافعي على ابن عقيل .
١٦) القواعد العربية في النحو العربي .
١٧) النحو العربي لرجال الإعلام ـ بالاشتراك .
١٨) أخبار النحويين البصريين للسيرافي .
١٩) فصيح ثعلب .

٢٠) كتاب الفوارق اللغوية لأبي هلال العسكري ـ بالاشتراك .
٢١) تهذيب اللغة للإمام الأزهري والدكتور محمود فرج العقدة .
٢٢) رسائل ابن المعتز .
٢٣) تحقيق وشرح المعلقات للزوزني .
٢٤) أشعار عنترة العبسي وشرحها .
٢٥) ديوان الإمام علي بن أبي طالب .
٢٦) ديوان الإمام الشافعي .
٢٧) ديوان ابن الفارض .
٢٨) ديوان البرعي الصوفي اليمني .
٢٩) فحولة الشعراء للأصمعي .
٣٠) قواعد الشعر لثعلب .
٣١) نقد الشعر لقدامة .
٣٢) حماسة أبي تمام جزآن .
٣٣) مقامات الحريري بشرح الشريشي .
٣٤) الكرماء لأبي هلال العسكري .
٣٥) صحيح الإمام البخاري بالاشتراك .
٣٦) المختار الصحيح من التجريد الصريح في أحاديث الرسول ﷺ .
٣٧) مشكاة اليقين في أحاديث سيد المرسلين للإمام المنذري .
٣٨) رياض الصالحين .
٣٩) المختار الصحيح في الحديث النبوي .
٤٠) تهذيب الجواهر اللؤلؤية للجرداني ، في الحديث .
٤١) الترغيب والترهيب للإمام نافع الخفاجي .
٤٢) شفاء الغليل للشهاب الخفاجي .
٤٣) أدب الدنيا والدين للماوردي .

٤٤) قصة مولد رسول الله ﷺ لنافع الخفاجي .
٤٥) الإسراء والمعراج االشيخ نافع الخفاجي .
٤٦) شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام للفاسي .
٤٧) تطهير الاعتقاد للصنعاني اليمني .
٤٨) المنتخب في الدين .
٤٩) الفرج بعد الشدة للتنوخي .
٥٠) المغني لابن قدامة .
٥١) توضيح البيجوري في الفقه .
٥٢) الاختيار في الفقه .
٥٣) أحكام الصيام لنافع الخفاجي .

*** كتب مؤلفة في الإسلام والتفسير وغيره :**

١) الإسلام وحقوق الإنسان .
٢) الإسلام دين الإنسانية الخالد .
٣) الإنسانية رسالة الإصلاح والحرية .
٤) الإسلام ومبادئه الخالدة .
٥) في ظلال الإسلام ـ بالاشتراك .
٦) مواكب النبوة .
٧) الإسلام في قيادة المجتمع العربي .
٨) الثقافة الإسلامية بين ماضيها وحاضرها .
٩) خلود الإسلام .
١٠) دراسات في الإسلام .
١١) مأثورات نبوية .
١٢) من ماضي الإسلام وحاضره ـ بالاشتراك .
١٣) بين الشيوعية والإسلام .

١٤) تفسير القرآن .
١٥) صورة من الفكر العربي وتاريخ الإسلام .
١٦) الذكر الحكيم .
١٧) فصول في الدين والأدب .
١٨) التيسير في الفقه والحديث والتوحيد
١٩) شرح ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول - إنما السبيل - وما أنزلنا) .
٢٠) شرح الأنفال وأوائل التوبة ، وسورة الحجر وأوائل النحل ، وأواخر العنكبوت ، وسورة الروم ، وأوائل لقمان .
٢١) البابية والبهائية في الإسلام .
٢٢) الرد على المشركين .
٢٣) الرد على الملحدين .
٢٤) الرد على الماديين .
٢٥) الرد على أعداء الإسلام .
٢٦) سماحة الإسلام .
٢٧) سيرة رسول الله ﷺ .
٢٨) الإسلام ونظريته الاقتصادية .
٢٩) الإسلام والحضارة الإنسانية .
٣٠) الحج على المذاهب الأربعة - بالاشتراك .
٣١) الإسلام وحضارة المستقبل - بالاشتراك .
٣٢) الإسلام وارث الحضارات .
٣٣) الإسلام ينقض الشيوعية .
٣٤) عظمة الشخصية المحمدية .
٣٥) مشاهد من السيرة العطرة .

٣٦) التفسير الإعلامي للسيرة النبوية ـ بالاشتراك .
٣٧) القرآن معجزة العصور ـ بالاشتراك .
٣٨) البهائية ـ بالاشتراك .

*** كتب مؤلفة في التصوف الإسلامي :**

١) التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر .
٢) الصوفي المجدد .
٣) التصوف الإسلامي وظلاله في الأدب العربي .
٤) الأدب في التراث الصوفي .

*** كتب مؤلفة في تراجم العلماء والأدباء والشعراء :**

١) المتلمس الضبعي .
٢) المثقب العبدي .
٣) أشعار الشعراء الستة الجاهليين .
٤) أعلام الأدب في عصر بني أمية .
٥) أبو عثمان الجاحظ .
٦) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان .
٧) الشعراء الجاهليون .
٨) شاعر وكتاب دراسة عن الأمير ابن سنان الخفاجي .
٩) أعلام الشعر الجاهلي ـ بالاشتراك .
١٠) أعلام الأدب العربي ـ بالاشتراك .
١١) أدباء الشرق ـ بالاشتراك .
١٢) مع الشعراء المعاصرين .
١٣) رائد الشعر الحديث .
١٤) الرصافي الشاعر ـ بالاشتراك .
١٥) أبو دلف عبقري من ينبع .

١٦) الرؤية الإبداعية في أدب أبي شادي ـ بالاشتراك .
١٧) الرؤية الإبداعية في أدب محمد مزالي ـ بالاشتراك .
١٨) الرؤية الإبداعية في شعر عواد ـ بالاشتراك .
١٩) الشابي ومدرسة أبولو ـ بالاشتراك .
٢٠) شعر عبد الخالق فريد .
٢١) شعر الماحي .
٢٢) عباس محمود العقاد صحفياً وأدبياً ـ بالاشتراك .
٢٣) محمد مزالي والشخصية العربية .
٢٤) شاعر من أبوللو : عبد الله زكريا ـ الأنصاري .
٢٥) حسن القرشي شاعر من أبو للو .
٢٦) الشاعر أحمد أبو المجد عيسى .
٢٧) أبو شادي في المهجر .

*** دراسات للمؤلف في الأدب و النقد والبلاغة والشعر :ـ**

١) دراسات في النقد الأدبي .
٢) أصول النقد .
٣) مدارس النقد .
٤) موقف النقاد من الشعر الجاهلي .
٥) عبد القاهر والبلاغة العربية .
٦) البلاغة العربية .
٧) نحو بلاغة جديدة ـ بالاشتراك .
٨) فصول في النقد .
٩) دراسات في الأدب والنقد .
١٠) الفكر الأدبي والنقدي في القرن الرابع .
١١) حكومة القاضي الجرجاني في النقد الأدبي .

١٢) بين الأدب والنقد ـ بالاشتراك .
١٣) من بلاغة العرب ـ بالاشتراك .
١٤) مرشد البيان في البلاغة .
١٥) وحدة القصيدة في الشعر العربي .
١٦) البناء الفني للقصيدة العربية .
١٧) فن الشعر .
١٨) التشبيه في شعر ابن المعتز وابن الرومي .
١٩) الشعر العربي أوزانه وقوافيه .
٢٠) تحقيق متن الكافي في العروض والقوافي .
٢١) العروض والقوافي .
٢٢) العروض العربي .
٢٣) ميزان الشاعر ـ بالاشتراك .
٢٤) موسيقى الشعر .
٢٥) الميزان .
٢٦) النغم الشعري عند العرب ـ بالاشتراك .
٢٧) الشعر والتجديد .
٢٨) مدارس الشعر الحديث .
٢٩) حركات التجديد في الشعر الحديث .
٣٠) الأصالة والتجديد في روائع الشعر العربي .
٣١) مذاهب الأدب .
٣٢) فصول في الأدب ـ بالاشتراك .
٣٣) دراسات في الأدب المعاصر .
٣٤) من روائع الأدب العربي ـ بالاشتراك .
٣٥) من تراثنا الأدبي ـ بالاشتراك .

٣٦) الأدب العربي في أزهى عصوره ـ بالاشتراك .
٣٧) مختارات من الأدب الجاهلي ـ بالاشتراك .
٣٨) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي .
٣٩) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .
٤٠) الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام ـ بالاشتراك .
٤١) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام .
٤٢) الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي .
٤٣) الحياة الأدبية في العصر العباسي .
٤٤) الحياة الأدبية في عصر بني أمية .
٤٥) الحياة الأدبية في مصر .
٤٦) الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد .
٤٧) قصة الأدب في مصر .
٤٨) قصة الأدب في الأندلس .
٤٩) الأدب العربي وتاريخه في العصر الأموي والعصر العباسي .
٥٠) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام بالاشتراك .
٥١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ـ الاشتراك .
٥٢) الأدب العربي وتاريخه ـ بالاشتراك .
٥٣) الأدب العربي في عصر بني أمية والعصر العباسي الأول ـ بالاشتراك.
٥٤) الأدب العربي في الأندلس ـ بالاشتراك .
٥٥) صور من الأدب الحديث .
٥٦) قصة الأدب في ليبيا العربية .
٥٧) قصة الأدب المهجري .
٥٨) ثورة الإسلام للدكتور أحمد زكي أبو شادي .
٥٩) قصة الأدب في الحجاز ـ بالاشتراك .

٦٠) قصة الأدب المعاصر .
٦١) نداء الحياة .
٦٢) أسلوب الإنشاء الحديث .
٦٣) نشيد الصحراء قصة حياة توبة الخفاجي وليلى الأخيلية ـ مسرحية شعرية ونثرية .
٦٤) توبة شاعر البطولة .
٦٥) المطالعة الأزهرية .
٦٦) المحفوظات والأناشيد .
٦٧) البحوث الأدبية ـ مناهجها ومصادرها .
٦٨) كيف تكتب بحثاً جامعياً ـ بالاشتراك .
٦٩) قصص من الحياة .

دواوين شعر للمؤلف :ـ

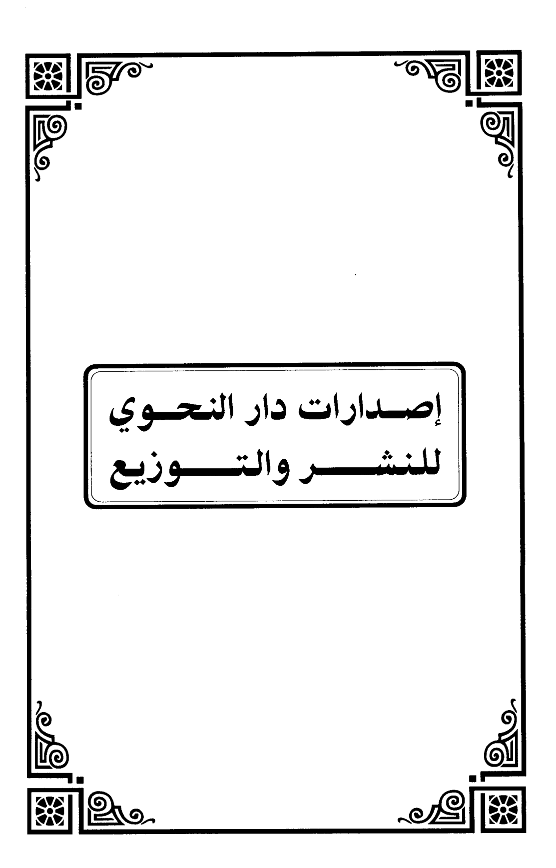
١) وحي العاطفة .
٢) أحلام الشباب .
٣) أحلام السراب .
٤) نغم من الخلد .
٥) أشواق الحياة .
٦) صلوات على الضفاف .
٧) الديوان الإسلامي .
٨) أغنيات من عبقر .
٩) نشيد الذكرى .
١٠) ملحمة السيرة النبوية الخالدة .
١١) أحلام المساء .
١٢) أصداء الذكريات .

١٣) نشيد الصحراء .
١٤) أحلام الذكرى .
١٥) أحلام الأمس .
١٦) أنشودة الغد .

*** كتب مؤلفة في التاريخ :ـ**

١) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي .
٢) الأزهر في ألف عام .
٣) من تاريخنا المعاصر .
٤) مواكب الحرية في مصر الإسلامية .
٥) قصص من التاريخ .
٦) سيرة رسول الله ﷺ .
٧) الخفاجيون في التاريخ .
٨) السيرة النبوية الخالدة .
٩) مواكب الحياة .
١٠) الدولة الخفاجية في التاريخ .

*** وهنالك عدد كبير من الكتب التي قدم لها المؤلف . ومن الكتب المخطوطة للدكتور الخفاجي ماضاع في بعض دور النشر وصارت مفقودة .**


إصدارات دار النحوي
للنشر والتوزيع



إصـدارات دار النحـوي للنشـر والتـوزيـع

* مؤلفات الدكتور عدنان بن علي رضا بن محمد النحـوي .

الرقم	اســم الكتـــاب	الطبعـة
أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط ٢
٣	أضواء على طريق النجاة	ط ١
٤	النهج والممارسة الإيمانيّة في الدعوة الإسلامية	ط ٤
٥	كيف تلتقي الجماعات الإسلامية	ط ١
٦	الموجز الميسر عن مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن	ط١
ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية :		
٧	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٨	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٩	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
١٠	منهج لقاء المؤمنين	ط ٢
١١	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
١٢	لقاء المؤمنين - الأهداف - الجزء الثاني	ط ٤
١٣	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط٣
١٤	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الأول	ط ٢
١٥	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الثاني	ط ١
١٦	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط١
١٧	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط١
١٨	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٩	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميزها	ط ١
٢٠	التربية في الإسلام - النظريّة والمنهج .	ط١
٢١	النهج الإيماني للتفكير	ط١
٢٢	عهد الله والعهد مع الله بين التفلت والالتزام	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٢٣	حتى نتدبّر منهاج الله	ط٢
٢٤	حتى نغيّر ما بأنفسنا	ط١
٢٥	لؤلؤة الإيمان فريضة طلب العلم ومسؤولية المسلم الذاتية	ط١
٢٦	النهج في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٢٧	الموازنة وممارستها الإيمانية	ط١
٢٨	الاختلاف بين الوفاق والشقاق	ط١
ثالثاً: كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج للدعوة والبلاغ والبيان:		
٢٩	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
٣٠	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
٣١	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ١
٣٢	النية إشراقَة في النفس وجمال	ط ١
٣٣	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٤
٣٤	الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٣٥	الخشـــوع	ط ١
رابعاً: كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع الإسلامي وأهم أحداثه وتعتبر الملاحم جزءاً من دراسة الواقع:		
٣٦	الشورى وممارستها الإيمانية	ط٤
٣٧	الشورى لا الديمقراطية	ط ٥
٣٨	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٣٩	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٤٠	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ١
٤١	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٤٢	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط ١
٤٣	المرأة بين نهجين الإسلام أو العلمانية	ط١
٤٤	على أبواب القدس	ط٣
٤٥	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤

الرقم	اســـم الكتــــاب	الطبعـة
٤٦	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ٢
٤٧	حوار الأديان – دعوة أم تقارب أم تنازل	ط ١
٤٨	الانحــــراف	ط ١
٤٩	كيف ضيّعت الأمانة التي خلقنا للوفاء بها ؟!	ط ١
٥٠	حرّية الرأي في الميدان	ط ١
٥١	هذا هو الصراط المستقيم فاتَّبعوه !	ط ١
٥٢	المسلمون بين الواقع والأمل	ط ١
٥٣	تمزق العمل الإسلامي بين ضجيج الشعارات واضطراب الخطوات	ط١
٥٤	الرِّبَـــا وخطره في حياة الإنسان	ط ١
٥٥	الدعوة الإسلامية بين الأحزاب والجماعات	ط ١
خامساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى :		
٥٦	الأدب الإسلامي – إنسانيته وعالميته	ط ٤
٥٧	الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته	ط ١
٥٨	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط١
٥٩	أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٦٠	أدب الأطفال الإسلامي وأثره في تربيتهم العقدية الصحيحة	ط١
٦١	التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف	ط١
٦٢	لماذا اللغة العربية ؟	ط١
٦٣	الحداثة في منظور إيماني	ط٤
٦٤	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط٣
٦٥	الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام	ط ١
٦٦	الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية	ط١
٦٧	الشعر المتفلّت بين النثر والتفعيلة وخطره	ط١
٦٨	تجربتي الشعرية وامتدادها	ط١
سادساً : الدواوين الشعرية :		
٦٩	ديـوان الأرض المباركـة	ط٦

الرقم	اسـم الكتـاب	الطبعـة
٧٠	ديوان موكب النور	ط٤
٧١	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٧٢	ديوان مهرجان القصيد	ط١
٧٣	ديوان عبر وعبرات	ط١
٧٤	ديوان حرقة ألم وإشراقة أمل	ط١
٧٥	درة الأقصى	ط١
٧٦	أكثروا ذكر هاذم اللذات - أب يرثي ابنه	ط١
سابعاً : الملاحم الشعرية وتعتبر جزءاً من دراسة الواقع وأحداثه :		
٧٧	ملحمة فلسطين	ط ٥
٧٨	ملحمة الأقصى	ط ٢
٧٩	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٨٠	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٨١	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٨٢	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٨٣	ملحمة الغرباء	ط٣
٨٤	ملحمة أرض الرسالات	ط ١
٨٥	ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين	ط ١
٨٦	لهفي على بغداد	ط ١
٨٧	ملحمة بين سجن «أبو غريب» ورفح	ط١
٨٨	ملحمة أفغانستان	ط١
٨٩	ملحمة الطوفان (تسونامي)	ط١
ثامناً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٩٠	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط١

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعـة
تاسعاً : كتب في علوم أخرى :		
٩١	دراسة الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة «بالإنجليزية»	ط١
عاشراً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٩٢	لقاء المؤمنين - الجزء الأول «ترجم إلى اللغة التركية»	ط ١
٩٣	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «ترجم إلى اللغة التركية»	ط ١
٩٤	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «ترجم إلى اللغة الإنجليزية»	ط ١
٩٥	لماذا اللغة العربية «ترجم إلى اللغة الأوردية»	ط ١
أحد عشر : الصوتيات والمرئيات :		
١	أضواء على طريق النجاة	فيديو وكاسيت
٢	لمحة عن واقع المسلمين أمراض وعلاج	فيديو وكاسيت
٣	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	فيديو وكاسيت
٤	الأُسلوب والأُسلوبيّة	فيديو وكاسيت
٥	درة الأقصى	فيديو وكاسيت
٦	النيَّة إشراقة في النفس وجمال ويَقَظةٌ في القلب ووعي	فيديو وكاسيت
٧	حديث النفس بين الدنيا والآخرة	فيديو وكاسيت
٨	التعامل مع مجتمع غير مسلم	فيديو وكاسيت
٩	وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه	فيديو وكاسيت
١٠	قضايا في الأدب الملتزم بالإسلام	فيديو وكاسيت
١١	المسلمون في الغرب بين الإسلام والعلمانية	فيديو وكاسيت
١٢	محاضرة الوصايا والمواعظ	فيديو وكاسيت
١٣	ندوة شعرية - عمان	فيديو وكاسيت
١٤	ندوة شعرية عن فلسطين	فيديو وكاسيت
١٥	ندوة شعرية - جامعة قطر	فيديو وكاسيت
١٦	ندوة شعرية - مؤسسة (مركز) الملك فيصل	فيديو وكاسيت
١٧	محاضرة : «وحملها الإنسان»	كـــاســيت

* كتـب لمؤلفـين آخـريـن :

الرقم	اسـم الكتـاب		الطبعـة
١	ملحمة بنت حواء المغربية	الدكتور عبدالرحمن عبدالوافي	ط ١
٢	النفخ في الطين قفو الأثر في أسماء السور	الدكـتـور حـسن الأمـراني	ط ١
٣	ديوان أين الطريق	الأستاذ مصطفى حسن حمد الله النبالي	ط ١
٤	قصيدة الإسراء	الدكـتـور حـسن الأمـراني	ط ١
٥	من ذخائر التراث الإسلامي	الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي	ط ١
٦	الإبدال والإعلال دراسة نظرية تطبيقية في قصيدة البردة	الدكتورة منيرة محمود الحمد	ط ١



دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

موقع الانترنت : www.alnahwi.com

البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com

ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري - جمع الكمبيوتر - والتصميم والإخراج الفني بالتعاون مع :

وكالة وادي العمران للدعاية والاعلان - الرياض - هاتف ٤٧٣٣٠٥٠ ـ فاكس : ٤٧٣٣٠٦٠ - جوال : ٠٥٠٣٢٠٧٣٥٠



مطابع الحميضي هاتف: ٤٥٨١٠٠٠ فاكس: ٤٥٩٢٢١٧